حضرة المولوي نور الدين ﵁

الخليفة الأول للمسيح الموعود ؑ

بقلم

محمد ظفر اللّه خان

ترجمه

مصطفى ثابت

اسم الكتاب: حضرة المولوي نور الدين ﷺ
الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م

Ḥaḍrat Maulawī Nūr-ud-Dīn[ra], Khalīfatul Masih I

By: Sir Muhammad Zafrullah Khan (May Allah be pleased with him)

Arabic Translation from English
by: Mustafa Sabit

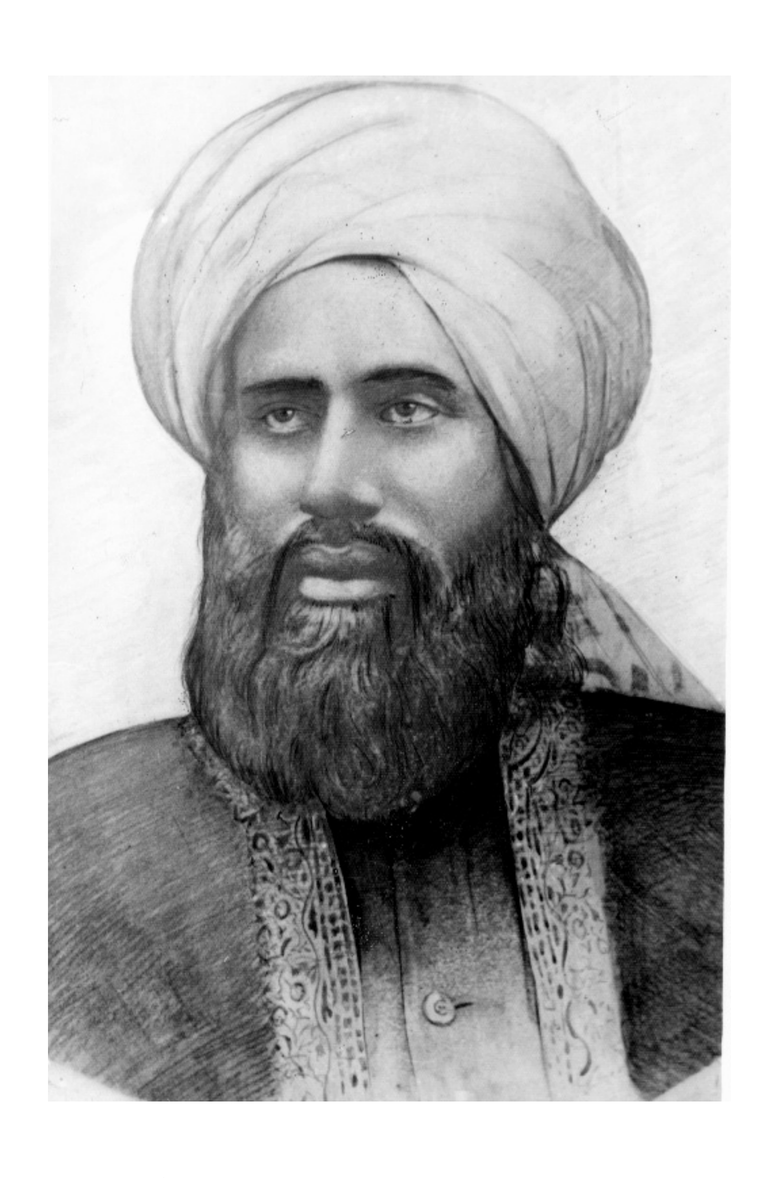
First Published in UK in 2007

By: Al-Shirkatul Islamiyyah
Islamabad
Sheephatch Lane
Tilford, Surrey GU10 2AQ
United Kingdom

Printed in UK at:
Raqeem Press
Islamabad

ISBN: 1 85 372 890 X


بسم الله الرحمن الرحيم



حضرة المولوي نور الدين رضي الله عنه

فهرس الموضوعات

بسم الله الرحمن الرحيم   نحمده ونصلي على رسوله الكريم

كلمة المترجم

الحمد لله السميع العليم، ذي المجد والآلاء، وهو الحليم الكريم، ذو الفضل والعطاء، كما أنه وحده هو العظيم الحكيم، يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يُؤتى الحكمة فقد أوتي فضلا عظيما. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وأزكى النبيين، وخير الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه وأتباعه الكرام الطيبين، وبعد.

فمن أمتع الكتب التي كان لي شرف القيام بترجمتها، كان هذا الكتاب القيّم الذي كتبه باللغة الإنجليزية ذلك الرجل العظيم السيد محمد ظفر الله خان، الذي شرفني باعتباري من زمرة أصدقائه، رغم أنه أعظم وأجل من أن يصادق من هو مثلي، وأنا أدنى وأقل من أن أطمع في شرف مصادقة من هو مثله. وإنني أدين بنوال شرف ترجمة هذا الكتاب إلى الصديق العزيز والأخ الكريم الأستاذ منير الدين شمس، وكيل التصنيف. إذ قرر حضرة خليفة المسيح، أيده الله تعالى بنصره العزيز، ترجمة مجموعة من الكتب القيّمة بمناسبة العيد المئوي لإعادة تأسيس الخلافة الراشدة، الذي سيتم الاحتفال به عام ٢٠٠٨، وكان هذا الكتاب ضمن الكتب التي تقرر ترجمتها إلى اللغة العربية، بهذه المناسبة الكريمة. ولما كان الأستاذ منير الدين شمس يعلم مدى العلاقة الوطيدة التي كانت تربطني بالمؤلف العظيم، فقد اقترح لحضرة خليفة المسيح أن

أتولى أنا ترجمة الكتاب، وتفضل سيدنا خليفة المسيح في عام ٢٠٠٥ بالموافقة على أن يمنحني هذا الشرف.

وحدث أن كلفني سيدنا خليفة المسيح بالتصدّي للرد على تخرّصات القمص زكريا بطرس وافتراءاته التي كان يشيعها من إحدى القنوات الفضائية. واستلزم مني هذا العمل أن أتفرغ له تماما لمدة عام كي أتمكن من إعداد ثلاثين حلقة من حلقات "أجوبة عن الإيمان"، مما أجبرني على تأجيل أعمال الترجمة بعد أن كنت قد أنجزت منها بضع صفحات. وبعد أن تم نشر الجزء الأول من كتاب "أجوبة عن الإيمان"، تبيّن أن الرد على زكريا بطرس سوف يستغرق عاما آخر، فعكفت على إعداد ثلاثين حلقة أخرى تضمنها الجزء الثاني من كتاب "أجوبة عن الإيمان". وللمرة الثانية كان لزاما عليّ أن أؤجل أعمال الترجمة لعام آخر. غير أن الأمر استلزم إعداد جزء ثالث من كتاب "أجوبة عن الإيمان"، ومعنى هذا تأجيل أعمال الترجمة، الأمر الذي لم يكن محبّذا خاصة وقد صرنا الآن في عام ٢٠٠٧. ولم يكن أمامي سوى أن أتوجّه إلى الله تعالى بالدعاء أن يعينني على أداء الترجمة في أسرع وقت ممكن، واستعنت به سبحانه وبدأت أعمال الترجمة، حتى مكنني الله عز وجل من إتمامها يوم الجمعة ٢ مارس (آذار) ٢٠٠٧.

لم تكن ترجمة هذا الكتاب شرفا ومتعة فحسب، بل كانت نعمة جليلة من الله تعالى. ولا شك أن القارئ سوف يشاركني الشعور بهذه النعمة عندما يعيش مع حضرة المولوي نور الدين في جميع أطوار حياته من خلال سطور هذا الكتاب. لقد كان حضرته مثالا يُحتذى للمؤمن الصادق في توكله على الله تعالى، ونبراسا مضيئا للمسلم الحق في طاعته

للإمام، ومنارة يُستهدى بها لكل أحمدي في تمسكه الحريص بمقام الخلافة. إن فضل حضرة الخليفة الأول سوف يظل ديْنا كريما في عنق كل أحمدي على وجه الخصوص، وفي عنق كل مسلم على وجه العموم، ولن يمضي من الزمن شوط طويل حتى يدرك العالم بأجمعه مدى فضل هذا الرجل الذي وقف كالطود الشامخ والجبل الراسخ في المحافظة على نظام الخلافة، فلم يهن، ولم يلن، ولم يتزحزح عن إيمانه وقناعته بأنه لا منجى للإسلام والمسلمين، ولا بقاء للأحمدية والأحمديين، إلا بالتمسك والثبات والمحافظة على نظام الخلافة.

رحمك الله يا نور الدين، رحمك الله يا من عزّ بك الدين، رحمك الله يا ذا الإيمان واليقين المتين، وأسكنك المنعم الكريم فسيح جنات النعيم، وجعل مقامك في أعلى عليين، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، آمين ثم آمين.

مصطفى ثابت

مارس (آذار) ٢٠٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

بعد مرض استمر سويعات، تُوفي حضرة مرزا غلام أحمد عليه السلام، المسيح الموعود والمهدي المعهود، مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية. كان ذلك في مدينة لاهور في اليوم السادس والعشرين من شهر مايو (أيار) عام ١٩٠٨. وكان عليه السلام قد تلقى وحيا تكرر نزوله على مدى عدة أسابيع، أخبره الله تعالى فيه بأن موعد وفاته يقترب بسرعة. ومع ذلك، فإن تأثير الصدمة كان شديدا ومحزنا عندما وقعت الوفاة بالفعل.

وقد تنفس أعداؤه الألدّاء الصعداء، وبعض منهم الذين كانوا يضمرون أشد العداوة والبغضاء، عبروا عن فرحهم وسرورهم، لأن الخطر الذي كان يهدد بعض عقائدهم التي كانوا يعتقدونها وأسلوب الحياة الذي تعوّدوا عليه، قد زال أخيرا. وقد ظنوا أن الحركة التي أنشأها سرعان ما تنْزوي في زوايا النسيان، ولن يذكر الناس عنها شيئا سوى أنها كانت مجرد مُوَيجات صغيرة ترقرقت على سطح مياه الإسلام التقليدي.

أما العقلاء من بين المسلمين، فرغم أنهم لم يؤمنوا بدعوته و لم يتّبعوه، إلا إنهم شعروا بأنهم قد فقدوا بطلا عظيما من أبطال الإسلام، فكان موته بالنسبة لهم خسارة فادحة لم يكن من الممكن تعويضها. وحتى أولئك الذين كانوا من بين غير المسلمين، اعترفوا هم أيضا بأفضاله

وأثنوا على علمه وجهاده، وأقروا بإخلاصه وطهارته ونقاء حياته وتقواه طوال عمره.

وفي تلك اللحظات الحاسمة من تاريخ الجماعة، وتاريخ الإسلام، وتاريخ الأديان، بل تاريخ الإنسانية كلها، وقبل أن يواري الترابُ جسدَه الشريف في قاديان، في السابع والعشرين من شهر مايو (أيار)، تم الإعلان عن انتخاب حضرة المولوي نور الدين ليكون خليفته الروحي. وكان حضرته من أخلص حوارييه وأشدهم تقوى وصلاحا، كما أنه كان عالما جهبذا شديد الحب للقرآن المجيد، وكان طبيبا بارعا وحكيما لا يُشق له غبار. وقد بايعه أفراد الجماعة باعتباره الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام، وشاء الله أن يؤدي الدور الذي أدّاه أبو بكر رضي الله عنه الخليفة الأول للرسول صلى الله عليه وسلم، في زمن كان أشد خطرا على مستقبل الإسلام والإنسانية كلها منذ ثلاثة عشر قرنا مضت. وقد مكّن الله تعالى بفضله الكريم حضرة المولوي نور الدين أن يؤدي ذلك الدور بكفاءة بالغة، إلى أن حلّ موعد وفاته في شهر مارس (آذار) من عام ١٩١٤، وكانت الجماعة قد أكملت آنذاك ربع القرن الأول من حياتها، وأصبحت في منعة من الانهيار أو التشتت. وجاء الامتحان بسرعة في شكل تحدّ لمقام الخلافة نفسه، وذلك من جانب عدد من كبار أفراد الجماعة المعروفين، ادّعوا أنهم يحظون بتأييد خمسة وتسعين في المئة من أعضاء الجماعة. وسرعان ما تبين خطؤهم وانكشفت أوهامهم، إذ وقفت الأغلبية العظمى من الجماعة في ثبات ووحدة، وجابهت هذا التحدّي بعزيمة قوية. وتقدّمت الجماعة منذ ذلك الحين من نصر إلى نصر تحت القيادة

الحكيمة والتوجيه الرشيد لحضرة الخليفة الثاني (١٩١٤-١٩٦٥) وحضرة الخليفة الثالث. والآن، ها قد انتشرت فروعها في جنبات الكرة الأرضية، وبلغ عدد أفرادها الذين يزدادون يوميا بفضل الله تعالى أكثر من عشرة ملايين نسمة*. وتُعتبر هذه الجماعة المباركة تحقيقا لنبوءة القرآن الكريم التي ذكرها سورة التوبة الآية ٣٣، والتي تَعِد بتحقيق النصر النهائي للإسلام وظهوره على الدين كله.

إن مكانة حضرة المولوي نور الدين رضي الله عنه، الخليفة الأول للمسيح الموعود عليه السلام، قد تأصّلت بقوة في تاريخ الجماعة الإسلامية الأحمدية. غير أن أولئك الذين لا يعرفون اللغة الأردية من أفراد الجماعة، وغيرهم ممن يطلبون الحق، لا يعرفون الكثير عن حياته وشخصيته. ومن هنا، جاء هذا العمل المتواضع ليقدم ملخصا وافيا عن هذه الحياة الحافلة والشخصية العظيمة. وبذلك فإن الكاتب يؤدي جانبا بسيطا من حق الديْن العظيم من الشكر والامتنان الذي يدين به لهذه الشخصية الكريمة المبجّلة، والتي تصل محبتها إلى أعماق القلب، خاصة وأن الكاتب قد تلقى منه العديد من الأيادي الكريمة والأفضال الحميدة.

وقد اعتمد المؤلف في استخلاص الحقائق التي قدمها، فيما عدا ما جاء في الفصل السابع عشر من هذا الكتاب، على مرجع مؤلَّف عن سيرة الخليفة الأول، كتبه باللغة الأردية المرحوم الشيخ عبد القادر ("سوداغر مل" قبل إسلامه)، واسمه "حياة نور". وكل جملة جاءت في

* كان ذلك في الستينيات من القرن العشرين، وأما الآن فقد تجاوز عدد أفراد الجماعة ١٦٠ مليون حسب بعض التقديرات (المترجم).

ذلك الكتاب العظيم، يشهد على صدقها المصدر الذي نُقلت عنه. ولكن لما كانت جميع المصادر مكتوبة أيضا باللغة الأردية، لم يكن من المفيد ذكر تلك المصادر في هذا المؤلف، حيث إن ذكرها لن يضيف شيئا بالنسبة للقارئ العادي. أما من يريد أن يسبر غور الموضوع ويدرس جوانبه، فإنه يستطيع أن يجد تلك المصادر بسهولة في كتاب "حياة نور".

ويُلاحظ أن جميع المراجع المذكورة تشير إلى القرآن المجيد ما لم يُذكر اسم المرجع بشكل خاص.

الفصل الأول

الخلفية التاريخية

وُلد حضرة المولوي نور الدين في مدينة "بهيرة" في مقاطعة شاهبور ببنجاب في عام ١٨٤١، وكان هو الأصغر بين سبعة إخوة وشقيقتين. كما أنه كان الابن الرابع والثلاثين الذي انحدر من نسل حضرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الخليفة الثاني لرسول الله ﷺ. وعلى هذا، كان نور الدين قرشيا، هاشميا، وفاروقيا أيضا. وقد حفظ أبوه القرآن المجيد، كما حفظه من قبل أيضا ما لا يقل عن عشرة من آبائه وأجداده المباشرين. وكانت أمه "نور بخت" من قبيلة "أعوان"، من قرية تقع على بُعد بضعة أميال من "بهيرة". وكانت تُعلّم صغار الأطفال في جيرتها الترجمة البنجابية لمعاني القرآن المجيد، كما كانت تقوم بتعليمهم المبادئ الأولية في علوم الفقه والشريعة. وقد قامت كذلك بتعليم ابنها الأصغر على نفس هذا النمط، وذكر حضرته فيما بعد أنه كان قد سمع أمه تتلو القرآن الكريم وهو لم يزل جنينا في بطنها، كما أنه رضع حب القرآن مع اللبن الذي كان يرضعه من أمه، التي كانت هي أول من قام بتعليمه. كذلك كان والده من أشد المحبين للقرآن المجيد. ولأنه كان موسرا، كان يشتري العديد من المصاحف الشريفة التي كان يأتي بها من أماكن بعيدة، تصل إلى "بومباي"، ثم يقوم بتوزيعها على الناس مجانا.

لقد كان حقا أبا محبا كريما يهتم بشؤون عائلته وأولاده، ورسم أهدافا سامية أمام أولاده، وكان يقوم دائما بتشجيعهم في كل خطوة لتحقيق هذه الأهداف. وقد ذكر ابنه الأصغر الذي كان متميّزا بشكل

خاص فقال: "لقد كان والدي شديد الطموح من أجلنا، حتى إنه لو كان على قيد الحياة الآن، لبعثني إلى الولايات المتحدة الأمريكية من أجل تحصيل العلوم والمعارف".

وعندما ترعرع الطفل نور الدين ذهب إلى المدرسة، ولم تكن فصول المدارس قد ازدحمت بعد بالتلاميذ، فكان كل تلميذ يتلقى من مُدرّسه العناية الفردية اللازمة، مما مكّن أن تنشأ علاقة خاصة بين الأستاذ والتلميذ. وكلما ازدادت قوة هذه العلاقة، زادت الفائدة التي يجنيها التلميذ من أستاذه. ولم تكن الدروس الخصوصية قد ظهرت بعد، إذ كان المدرسون قانعين برواتبهم، وكانوا يقضون أوقاتهم في مساعدة التلاميذ المجتهدين الواعدين، والمستحقين للتشجيع على الاستذكار، ولذلك كانوا يحظون بأسمى واجبات الاحترام والتقدير من تلاميذهم الذين لم يألوا جهدا في التعبير عن امتنانهم لما يدينون لهم به من شكر وعرفان. وقد بلغ نور الدين بفضل الله تعالى شأنا عظيما ومرتبة سامية في حياته، وكان يذكر دائما العديد من أساتذته الأفاضل بلسان التقدير والإعزاز العميق. وقد حظي نور الدين بحياة سعيدة وهانئة في بيت العائلة، وكان أخوه الأكبر عالما من علماء الدين، واهتم بأمور تربيته اهتماما بالغا. وكانت أمهما مثالا فاضلا في التقوى والحياة الصالحة، وكانت تزرع في أذهانهم دائما احترام المبادئ السامية التي تقوم عليها البيوتات الفاضلة في بنجاب. ولم تكن اللغة الأردية منتشرة آنذاك في بنجاب، وقد سمعها نور الدين للمرة الأولى من فم جندي من "ديوبند"، فوقع في حبها من الوهلة الأولى، وصار شغوفا بقراءة الكتب

الأردية، واستفاد كثيرا من الكتب التي كتبها أفراد من أسرة العالم الكبير والمجدد الجليل شاه ولي الله الدهلوي. وقد نشأ في نفسه منذ صغره حبٌ عميق للكتب، فكان يحرص على جمعها والاستفادة بها.

ومنذ طفولته المبكرة كان عازفا عن استعمال الكلمات النابية، وكان رفقاؤه في اللعب والمرح حريصين على الالتزام بهذا الخلق وهم في صحبته. كان كذلك مغرما بالسباحة، فكان يذهب للسباحة في نهر "جهلم" حتى في أثناء فصل الشتاء.

وكان أخوه الأكبر يمتلك مطبعة في لاهور، فكان عليه أن يذهب إلى مدينة لاهور من حين لآخر من أجل الإشراف على شؤون المطبعة. وفي إحدى المناسبات، عندما كان عُمْر نور الدين اثني عشر عاما، صحب والدته إلى لاهور، وهناك أصابه المرض، وأمكن علاجه على يد الحكيم "غلام دستغير" من بلدة "سعيد متها". وقد تأثر نور الدين بأخلاق ذلك الحكيم وبشهرته مما جعله يقرر دراسة الطب؛ غير أن أخاه حثّه على دراسة اللغة الفارسية، ورتب أمر تعليمه هذه اللغة على يد معلم فارسي مشهور، وهو المنشي محمد قاسم الكشميري، الذي تولى تعليمه هذه اللغة بتؤدة وود، حتى إنه لم يلبث أن اكتسب معرفتها بتميّز واقتدار. كذلك تلقى دروسا في فن كتابة الخطوط على يد كاتب متخصص في هذا الفن، هو مرزا إمام فيردي. وكان كل من أستاذيْه ينتميان إلى طائفة الشيعة، ومن هنا اكتسب تلميذهما بعض المعارف عن عقائد الشيعة وممارساتهم.

وفي تلك المناسبة استمرت إقامته في لاهور لمدة سنتين، وعندما عاد إلى بهيرة استكمل دراساته الفارسية مع الحاج ميان شرف الدين. وبعد

وقت قصير، عاد أخوه مولوي سلطان أحمد إلى بهيرة وبدأ تعليمه اللغة العربية. وقد استعمل معه أسلوبا بسيطا في تعليم اللغة، استطاع به أن يحظى على انتباهه وكسب ميوله، فبدأ يتقدم باضطراد مستمر في تعلم هذه اللغة التي كانت تبدو لغة صعبة.

كانت البنجاب قد تحررت منذ بضع سنوات على يد الإنجليز من الفساد السياسي ومن حكم السيخ والبطش الشديد وحمامات الدم وانعدام الأمن الذي تفشى فيها بعد وفاة المهراجا رانجيت سنغ في عام ١٨٣٩. وكانت المعارف والعلوم والثقافة قد بلغت الحضيض. وكان القليل من الناس، حتى من بين رجال الدين المسلمين، من يعرف المعاني العربية للقرآن المجيد؛ بل إن دراسة القرآن لم تكن تلقى أي اهتمام. غير أن اهتمام نور الدين بدراسة القرآن الكريم في ذلك الوقت حدث بسبب صدفة سعيدة. فقد حدث أن جاء إلى بهيرة بائع للكتب من كلكتا في عام ١٨٥٧، وقضى فيها بضعة أيام نزل فيها ضيفا على والد نور الدين. وقد حث نور الدين وشجعه على دراسة الأصل العربي للقرآن المجيد، وقدم له طبعة تحتوي على الخمس سور الرئيسة باللغة العربية، بالإضافة إلى ترجمتها باللغة الأردية. وقد ثبت فيما بعد أن هذه النصيحة كانت نعمة جاءته من الله تعالى، وقد عمل بها نور الدين بكل إخلاص.

كذلك حدث بعد فترة قصيرة أن نصحه تاجر آخر من بومباي أن يدرس كتابين باللغة الأردية، هما "تقوية الإيمان" و "مشارق الأنوار" اللذيْن كانا يحتويان على تفسير لبعض أجزاء من القرآن المجيد، وقد قام فعلا بدراستهما خير قيام. وبهذا تم بناء الأساس الذي بُني عليه حبه

للكتاب العزيز، الذي تحوّل عنده فأصبح رغبة جامحة طوال حياته، ظلت تلازمه حتى النفس الأخير.

وحول ذلك الوقت، زار مدينة لاهور للمرة الثانية، وبدأ دراسة الطب مع رجل مشهور اسمه "حكيم الله دين" من بلدة "غومتي بازار"، غير أن إقامته في لاهور لم تستمر، واضطر إلى تأجيل دراسته.

وفي عام ١٨٥٨، وكان قد بلغ من عمره السابعة عشر، بدأ الدراسة للحصول على دبلوم التعليم في مدرسة "نورمال" في راولبندي. وكان ناظر المدرسة، المولوي سكندر علي، شديد الإعجاب بتفوّقه الدراسي وتقدمه، حتى إنه أعفاه من حضور بعض الحصص الدراسية المعتادة، مما مكنه من استخدام الوقت الذي توفر لديه في دراسة بعض الموضوعات الخاصة بإتقان وعمق، وذلك بمساعدة بعض المدرسين الخاصّين. وبانتهاء سنوات الدراسة الأربع، كان قد أتقن دراسة العديد من الموضوعات، فأدّى امتحان شهادة الدبلوم بنجاح كبير، حتى إنه رغم أنه لم يكن قد تجاوز الحادية والعشرين، فقد عُيّن ناظرا لمدرسة في بلدة "بيند دادان خان"، وهي بلدة تقع على بُعد بضعة أميال من مدينة "بهيرة"، وتقع على ضفاف نهر "جهلم". وقد استمر يشغل هذه الوظيفة لمدة أربع سنوات.

وخلال وجوده في "بيند دادان خان"، استمر في دراسة اللغة العربية تحت إشراف أخيه مولوي سلطان أحمد. كذلك فقد بدأ يتلقى الرؤى الصالحة التي ساهمت في تطور وتقدم قواه ومواهبه الروحية. وكانت دراسته المبكرة للقرآن الكريم قد صقلت بالفعل قدرته على التفريق بين الحق والباطل. وقد حدث أثناء دراسته في مدرسة "نورمال" أن حثه

البعض على زيارة أحد المبشرين المسيحيين واسمه مستر ألكسندر. وقد أعطاه هذا الرجل كتابين جميلين، هما "ميزان الحق" و "طريق الحياة". وقد قرأهما بعناية، ولكنه لم يجد فيهما ما يقنعه، وتبين أنهما عديما القيمة بالنسبة له.

وذات مرة عندما كان يمر بقرية على مشارف بلدة "بيند دادن خان"، حدث أن استضافه أحد المعجبين بوالده، وأكرمه بضيافته كرما كبيرا. وحين حان موعد انصرافه، طلب منه المضيف أن يكتب له رقية، أو يقدم له نصيحة، أو يقول له شيئا يكون مفيدا وذا نفع له، فتلا عليه قول الله تعالى: ﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ولا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾ (الأنعام:٥١).

* * *

وقد جاءت استقالته من نظارة المدرسة بشكل دراميّ، ويصف ذلك بنفسه فيقول:

حدث مرة أن جاء إلى المدرسة مفتش المدارس بينما كنت أتناول وجبة طعامي، فدعوته لأن يشاركني الطعام. وبدلا من قبول دعوتي، رد عليّ قائلا:

- لعلك لم تدرك من أنا. إن اسمي "خدا بخش"، وأنا مفتش المدارس.

- فقلت: آه، حقا؟ أنت إذن شخصية كبيرة. ولذلك فأنت لا تقبل أن تتناول الطعام الذي يقدمه لك واحد من المدرسين، فما أجمل هذا!!

وبعد أن قلت هذا استمررت في تناول الطعام، بينما وقف وهو يمسك بلجام حصانه، ينتظر مني أن آمر بعض التلاميذ أن يذهبوا ليمسكوا بلجام حصانه. ولما رأى أني لم أتحرك لتنفيذ رغبته، سألني قائلا:

- هل لك أنت أن تأمر بعض التلاميذ أن يمسكوا بلجام حصاني؟

فأجبته قائلا:

- يا سيدي، إنك رجل حريص على المبادئ، حتى إنك ترفض أن تتناول الطعام الذي يقدمه لك واحد من المدرسين، معتبرا إياه رشوة، فكيف يمكن لي أن أطلب من أحد التلاميذ أن يمسك لك بلجام حصانك؟ إن التلاميذ تأتون إلى هنا كي يدرسو ويتعلموا، لا لكي يؤدوا وظيفة صبيان الاصطبل. وقد تطلب أيضا أن نقوم بتغذية الحصان وتقييده، فكيف يمكن تقديم الطعام للحصان بينما أنت نفسك لم تكن على استعداد لقبول ضيافة واحد من المدرسين؟

وأثناء ذلك بدأ الحصان يتململ، ولكن في نفس الوقت وصل مساعدو المفتش وأخذوا يقومون بعمل كل ما يلزمه.

وقد أبدى المفتش رغبته في البدء بامتحان الطلبة؛ فقمت حينذاك بتنظيم التلاميذ وإعدادهم للامتحان، ثم انتحيت أنا جانبا وجلست. وعقد المفتش الامتحان ثم قال لي:

- لقد سمعت أنك مدرس قدير، وقد حصلت على دبلوم من مدرسة نورمال. ولعل ذلك هو السبب في تصرفك المتعالي.

فرددت قائلا:

- سيدي، أنا لا أعتبر ورقة تبلغ مساحتها بضعة بوصات مربعة إلها.

وحينئذ أرسلت في طلب شهادة الدبلوم ومزقتها أمام عينيه إلى قطع صغيرة، مبيّنا له أني لا أشرك بالله تعالى شيئا. وقد أسف المفتش لوقوع الحادثة كلها، وأخذ يلوم نفسه على تسببه لي في فقد شهادة الدبلوم. ولكن الحقيقة أن تمزيقي لهذه الشهادة أصبح نقطة تحوّل في حياتي، وفتح أمامي أبواب فضل الله تعالى على مصراعيها.

* * *

وهكذا بعد أن تحرر من قيود العمل وروابط الوظيفة، عاد الشاب نور الدين الذي بلغ الآن من العمر الخامسة والعشرين، إلى ممارسة ما يحبه ويهواه، وهو تحصيل العلوم والمعارف. وقد رتّب له والده أمر تعلم اللغة العربية على يد المولوي أحمد دين المحترم من بلدة بجّيوالا، غير أن هذا الرجل كان دائم الانتقال بسبب مشروعه الذي كان يقوم به وهو بناء مسجد كبير، وكان على تلاميذه أن ينتقلوا معه حيثما ذهب. وقد قضى نور الدين عاما كاملا في هذا التنقل من مكان لآخر، ولما لم يجد في نفسه أنه حقق تقدما ذا شأن في نهاية المدة، عبر لأخيه المولوي سلطان أحمد عن عدم رضاه عن هذا الوضع، فأخذه أخوه إلى لاهور حيث عهد به إلى عناية "حكيم محمد بخش" من أجل تحصيل العلوم العليا. وفي خلال بضعة أيام، أقنعه أحد تلاميذه أنه ينبغي عليهما أن

يذهبا إلى "رامبور" من أجل تحصيل العلوم العليا. وحينما ذكر ذلك لوالده وافق على الفور، ونصحه قائلا: "اذهب يا بني واجتهد في تحصيل العلوم والمعارف، حتى ولو اضطررت أن تغيب عنا طويلا؛ ولكن لا تذكر هذا لأمك كي لا تحزن بسبب طول فراقك، فتعمل على إقناعك بعدم الذهاب".

وبينما كان يُعد العدة للسفر تذكّر نصيحة ذكرها له أحد الصلحاء حيث قال له: "حيثما قررت الإقامة، ينبغي عليك أن تقيم علاقات صداقة طيبة مع رئيس الشرطة في البلدة التي تقيم فيها، وطبيب حاذق، ورجل ذو قلب رحيب ومواس للناس، ورجل من قادة البلدة".

الفصل الثاني
البحث عن المعرفة

في عامه السابع والعشرين من عمره، خرج نور الدين من لاهور سيرا على الأقدام في طريقه إلى "رامبور"، وكان في صحبته اثنان آخران من الباحثين عن الحقيقة. واستمرت تلك الرحلة الشاقة عدة أيام. ولم يكونوا يعرفون أحدا في رامبور، ولذلك عند وصولهم إليها لجأوا إلى مسجد صغير شبه مهجور، لينالوا فيه قسطا من الراحة. وفي اليومين التاليين كانت هناك فتاة صغيرة تبلغ السابعة أو الثامنة من عمرها، تحضر لهم شيئا من الطعام. وفي اليوم الثالث، عندما أحضرت لهم الطعام، قالت لهم:

- إن أمي تطلب منكم أن تدعوا الله لها كي يجعل زوجها يعاملها بمودة ورحمة.

وقد ذهب نور الدين معها إلى بيتها وتحدث إلى أبيها بأسلوب كريم ومقنع، مما أدى إلى عودة المياه إلى مجاريها بين الزوجين. وبسبب هذا الفضل من الله تعالى، قام نور الدين بتقديم آيات الحمد والشكر لله سبحانه وتعالى.

وفي عصر نفس ذلك اليوم، وبينما كان يتمشى في حي البنجابيين، حدث أن التقى أحد حفاظ القرآن الكريم وهو الحافظ عبد الحق، الذي دعاه للإقامة في مسجده. فأخبره نور الدين بأن هناك ثلاثة منهم يقيمون سويا، فرحب بهم جميعا. فقال له نور الدين إنهم أتوا إلى رامبور من

أجل تحصيل المعرفة، ولذلك فهم لا يريدون أن يتسوّلوا من أجل الحصول على قوتهم، كما أنهم لا يريدون أن يكسبوا معيشتهم بأن يتولوا أمر أطفال الحي، وأنهم سوف يحتاجون إلى كتب ومدرسين. فأكد له الرجل أنه سيعمل على توفير كل شيء لهم. وعلى هذا انتقل الثلاثة للإقامة في مسجد الحافظ عبد الحق، الذي لم يدّخر وسعا في الوفاء بكل ما وعد به. وقد استطاع نور الدين تحقيق الكثير من التقدم السريع في هذه الفترة التي كانت تخلو من الهموم والمسؤوليات.

وفي إحدى المناسبات، انخرط عدد كبير من التلاميذ في نقاش حول مشكلة عويصة. وبعد تقليب الأمر فيها لبعض الوقت قال نور الدين إن لديه الجواب لتلك المشكلة. ولما كان قد قضى في الدراسة وقتا قصيرا، لم يتصور معظم التلاميذ أنه يستطيع حل المشكلة، وأرادوا أن يسخروا منه، غير أن التلاميذ البنجابيين اقترحوا أن يسمعوا له، فوافق الجميع. فاقترح هو تعيين أحد النحويين ليكون حكما، وبالفعل تم اختيار المولوي غلام نبي المحترم لهذا الغرض، وكان من الشخصيات التي تتمتع بالاحترام والتقدير. وقد أعجبه كثيرا الحل الذي قدمه نور الدين، فخلع عليه لقب "مولوي"، مما أثار السرور في نفس الشاب الطموح، واعتبر اللقب بمثابة وسام له.

* * *

لم يكن المولوي نور الدين، كما يستحق بجدارة أن يذكر اسمه، على قناعة تامة بأسلوب التعليم المتبع في تلك الأيام. فقد كان التلميذ بشكل

عام يُترك لشأنه ولوسائله الخاصة، دون تقديم التوجيه المطلوب والإرشاد اللازم. وقد علّق على ذلك فيما بعد فقال:

لقد شعرت دائما بأنه لو أن المسلمين قاموا بتحديد المراجع المناسبة للمدارس والمؤسسات التعليمية بعد البحث اللازم، مع الأخذ في الاعتبار الاحتياجات الدينية والدنيوية للتلاميذ، فإنهم سوف يُسْدون للمجتمع خدمة عظيمة. إن أماكن التعليم المبعثرة وغير المنظمة تخلق الكثير من الصعوبات والعديد من المتاعب. ومن أكبر الصعوبات التي واجهتني هي أن أحدا من المدرسين لم يقدّم أي توجيه فيما يتعلق بموضوعات وكتب الدراسة، كما أن التلاميذ لم يشعروا بأن لهم الحرية في تعديل دراساتهم لتتناسب مع قدراتهم ومواهبهم التي منحهم الله إياها. كذلك لم يكن هناك أي جهد مبذول من أجل تعليم وممارسة القيم الأخلاقية العالية. وأستطيع أن أؤكد بناء على تجربتي الشخصية، أن أحدا من أساتذتي في ذلك الوقت لم يعط أي اهتمام بالتزكية الروحية والتمسك بالأخلاق النبيلة لدى الجيل الأصغر، وما زلت أستنكر هذا المنهج حتى الآن. إذ لم يهتم أحد من أساتذتي بمراقبة أي من تصرفاتي أو كلماتي أو عاداتي أو أخلاقي، كما لم يهتم أحد بأمور العقيدة أو الإيمان.

كان شاه عبد الرزاق أحد الشخصيات الربانية التي كان المولوي نور الدين يحرص على زيارتها من حين لآخر. وحدث ذات مرة أن طالت الفترة بين زياراته، فلما جاء لزيارته في المرة التالية سأله قائلا:

- نور الدين، ما الذي أبقاك بعيدا لمدة طويلة؟

فأجاب قائلا:

- سيدي، لقد كنت مشغولا بدراساتي، وربما كنت أيضا نسيّا بعض الشيء.
- هل حدث لك أن مررت أمام محل جزارة؟
- نعم بالطبع، عدة مرات.
- إذًا لعلك لاحظت أن الجزار كلما استعمل سكينه في تقطيع اللحم، فإنه من حين لآخر يحتاج إلى تشحيذ السكين وصقلها بحكها مع سكين آخر.
- نعم يا سيدي، ولكني لا أفهم ما ترمي إليه.
- ما أرمي إليه هو أن الغياب يصيب كلينا بشيء من النسيان، ولقاءنا يصقل كلا منا.

كان المولوي نور الدين كثيرا ما يذكر أنه استفاد كثيرا من هذه النصيحة التي قدمها له شاه عبد الرزاق، فإن صحبة الصلحاء تؤدي دائما إلى تقوية المشاعر الروحية.

* * *

قضى المولوي نور الدين حوالي ثلاث سنوات في رامبور، وقام بتحصيل دراساته بجد وحرص واهتمام بالغ، مما تسبب في مرضه مرضا شديدا. وقد أحيا مرضه في نفسه الرغبة في دراسة علوم الطب. وعندما تقصّى ذلك الأمر تبيّن أن أمهر الأطباء الموجودين في البلد هو الحكيم علي حسين المحترم من مدينة "لكناو"، فقرر على الفور أن يذهب إلى لكناو. وفي الطريق توقف في مدينة "مراد أباد"، وهناك التقى مصادفة

بشخصية من الأولياء، وهو المولوي عبد الرشيد من "بناريس". وقام الشيخ الكريم بمداواته والسهر على راحته إلى أن تم شفاؤه واستعاد صحته تماما في خلال بضعة أسابيع. وكان المولوي نور الدين يذكر بالإعزاز دائما العديد من الأفضال التي غمره بها الشيخ الكريم، والتي كان دوما يعبر له عن امتنانه وعرفانه عنها.

كان المولوي عبد الرشيد أعزب، وكان يعيش حياة بسيطة للغاية في غرفة ملحقة بأحد المساجد. وحدث ذات مرة في وقت متأخر من إحدى الليالي أن وصل أحد الضيوف، ولم يعرف المولوي عبد الرشيد كيف ومن أين يستطيع أن يوفر الطعام للضيف، فقال له أن يستلقي قليلا لينال قسطا من الراحة إلى حين تحضير الطعام. فاستلقى الضيف وسرعان ما راح في سبات عميق. وقام المولوي عبد الرشيد وتوضأ وضوء الصلاة، ثم جلس في اتجاه القبلة وراح يبتهل إلى الله تعالى بقوله عز وجل: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ (غافر:٤٥). وانغمس بكل جوارحه في هذا الابتهال والتضرع إلى الله تعالى لفترة من الوقت تكفي لإعداد الطعام، ثم تنبه من ابتهاله على صوت ينادي عليه ويقول: يا سيدي تعال بسرعة فإن يدي تكاد تحترق. فنهض المولوي عبد الرشيد ووجد رجلا يحمل إناءً كبيرا من النحاس يحتوي على أرز ساخن تتصاعد منه الأبخرة، وكان مطبوخا في مرق اللحم. فأخذ الإناء، وأيقظ ضيفه، وقدّم له الطعام الشهي. وقد ظل إناء النحاس لدى المولوي عبد الرشيد ولم يأت أحد لطلبه، وذلك بالرغم من أنه أعلن عدة مرات أنه ينبغي على صاحب الإناء أن يأتي لأخذه. وكثيرا ما كان يحدث للمولوي نور الدين نفسه أن تتحقق مطالبه بشكل غير عادي، وبدون

أن يجد لذلك تفسيرا أو تعليلا، وذلك حسب قول الله تعالى الذي أكده في الكتاب العزيز حيث يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق:٣-٤).

وعند رحيل المولوي نور الدين من مراد آباد، توقف لمدة يوم واحد في بلدة "كانبور" عند صديق لأخيه، ثم أكمل رحلته بعد ذلك إلى لكناو. كان الوقت في قمة قيظ الصيف، وكانت الطرقات ممتلئة بالغبار، حتى إنه حين وصل أخيرا إلى منتهى رحلته، كان جسمه كله قد غطته الأتربة، فكان يبدو أشعث أغبر. وبمجرد أن خرج من العربة التي كان يسافر فيها، استفسر أحدَ الأشخاص عن محل سكن الحكيم علي حسين، فأخبره بأن حضرة الحكيم يسكن في الجانب المقابل للمكان الذي يقف فيه. فحمل متاعه واتجه ناحية المسكن، ودلف إليه كما هو دون أن يصلح من مظهره. وبعد المدخل رأى غرفة كبيرة، وفي نهايتها كان يجلس شخص يبدو كأنه شخصية ملائكية. كانت له لحية بيضاء، وكان جميل الوجه، وجذاب الشكل، ويرتدي رداء أبيض في لون الثلج. وكان يجلس على وسادة ويستند على وسادات جميلة، وتصطف أمامه في نظام رائع الأدوات والمعدات التي قد يحتاج إليها. وكان يجلس أمامه حول الحائط في الغرفة مجموعة من الرجال يبدو عليهم الوقار، ويجلسون باحترام. وكانت الأرض كلها مغطاه بفرش ناصع البياض. وقد أثر المنظر كله في نفسه، وأحس كأنه كان يمر بحالة من الوحي، إذ لم يحدث له من قبل أن شاهد منظرا كهذا. ومع ذلك فقد وضع صرة متاعه في

جانب من المدخل، وتقدم بجرأة داخل الغرفة ميمما شطر الشخص الذي يتوسط الغرفة، والذي صدق فيه حدسه بأنه الحكيم المحترم نفسه. وقد تركت أقدامه المغبرة آثارا على الفرش الأبيض الذي يغطي الأرض، مما أصابه بشيء من الحرج، ولكنه لم يستطع أن يفعل شيئا إزاء ذلك. وعندما وصل أمام الشخصية المبجلة حيّاه بصوت واضح قائلا: السلام عليكم، ومد إليه يديه. ورد الحكيم المحترم التحية بصوت رقيق، ثم احتوى يديه المغبرتين في يديه الناعمتين. وجلس الزائر أمام حكيم المحترم، غير أن الحاضرين استاءوا جدا لكل ما حدث، فحتى تحيته بدت غريبة في أسماعهم. و لم يستطع أحدهم أن يملك نفسه فقال غاضبا:

- سيدي، من أي منطقة متحضرة قد جئت؟ فأجابه قائلا:
- لقد تعلمت هذه التحية من ذلك الأمّي الذي كان يعيش في واد غير ذي زرع، وكان يعمل في بعض الأحيان برعي الغنم، صلى الله عليه وسلم، وعسى أن يكون أبي وأمي فدى له.

وقد نزلت إجابته على الحضور نزول الصاعقة، وتأثر الحكيم المحترم تأثرا بالغا وقال للسائل:

- لقد كنت أحد رجال الحاشية الملكية، فهل أصابك مثل هذا الارتباك من قبل؟

وبعد برهة من السكون، استفسر حضرة الحكيم من زائره عن المهمة التي جاء من أجلها. فقال إنه جاء ليتعلم منه علوم الطب. وهنا أجاب حضرة الحكيم قائلا:

- كما ترى إنني بلغت من الكبر عتيّا ولا أرى أن التعليم مناسب لي، ولذلك فقد اتخذت قرارا حاسما بعدم العودة للتدريس بعد ذلك.

فرد المولوي نور الدين بصوت قلق ونبرة حزينة قائلا:

- إذًا كان الفيلسوف الشيرازي مخطئا حين قال إنه من الإثم أن تُحزن قلب إنسان.

وقد تأثر حضرة الحكيم لذلك كثيرا، وبعد شيء من التفكير قال:

- إن مولوي نور كريم طبيب حاذق، وسوف أزكيك عنده، وهو سوف يُحسن أمر تعليمك.

فذكر المولوي نور الدين مثلا فارسيا آخر يقول: أرض الله واسعة وأنا لدي ساقان قويتان.

وإلى هنا رفع حضرة الحكيم يديه مستسلما وقال:

- حسنا، سوف أتنازل عن قراري بعدم التدريس.

دخل حضرة الحكيم إلى بيته بعد ذلك وانصرف الجمع، وأخذ المولوي نور الدين صرة أمتعته واتخذ طريقه إلى بيت "علي بخش خان" الذي كان صديقا لأخيه. وقد استقبله مُرحّبا وسهر على راحته، فاغتسل وغير ملابسه وانتقل إلى الجناح الذي خصصه له علي بخش خان حيث كان عليه أن يتولى شؤون نفسه. وكانت المحاولة الأولى له هي أن يقوم بخبز بعض الخبز، ولكن تلك المحاولة باءت بالفشل الذريع. وأثناءِ إحساسه بالخيبة راح يدعو الله تعالى قائلا: يا رب، أنا لا أعرف

شيئا عن الخبز أو الطهي، وإسناد هذا العمل إلى شخص مثلي سوف يعني فقط إهدار نعمتك بغير طائل.

وبعد أن استعاد نظافته ونشاطه وارتدى ما يليق من الملابس، عاد مرة أخرى إلى حضرة حكيم الذي راح يلومه بأسلوب رقيق بسبب غيابه، وقال له:

- لقد اختفيت دون استئذان، وهو أمر لا يليق بتلميذ. إن هذا هو المكان الذي يجب أن تقيم فيه، ولكن إذا شئت أن تقيم في مكان آخر، فينبغي عليك أن تتناول طعامك هنا.

وبعد ذلك سأله قائلا:

- إلى أي مستوى من المعرفة تريد أن تصل في تعلمك للطب؟

وكانت إجابته هي أنه يريد أن يصل إلى مستوى أمهر الأطباء الذين عاشوا على هذه الأرض. فابتسم حضرة الحكيم وقال:

- إنك سوف تصل حتما إلى مستوى عال، ولو كنت قد حددت هدفك بأقل من ذلك لخاب أملي فيك.

وقد بدأ حضرة الحكيم تدريسه متبعا في ذلك منهجا معينا، ولكنه لم يكن راضيا بتلقي درس واحد في اليوم، وأراد أن يبحث عن وسيلة لتلقّي بعض الدروس الإضافية، ولكنه لم يجد شيئا يشبع رغبته، رغم أنه تلقى دروسا أيضا من المولوي فضل الله من "فرنجي محلي"، فقرر حينئذ أن يستأذن حضرة الحكيم ليعود إلى رامبور. وعندما أخبر حضرة الحكيم برغبته في الانتقال سأله الحكيم قائلا:

- قل لي! هل الأفضل لشخص مثلي أن يستمر في الممارسة أم يقبل عرضا مناسبا للتوظف.

وقد أشار عليه المولوي نور الدين برأيه وذكر له أسبابه، مما أثار حماسة حضرة الحكيم فأراه برقية كان قد تسلمها منذ وقت قصير من "نواب كلب علي خان"، حاكم رامبور، وفيها يعرض عليه وظيفة مناسبة ويطلب منه الحضور بسرعة إلى رامبور لعلاج "علي بخش"، وهو أحد المستخدمين المقربين إلى النواب، وكان يعاني من مرض خطير. وقال حضرة الحكيم:

- الآن وقد أشرت عليّ برأيك، فإني سوف أقبل عرض النواب، وسوف نسافر سويا إلى رامبور.

* * *

بعد وصولهما إلى رامبور، طلب حضرة الحكيم من المولوي نور الدين أن يدعو الله تعالى ليتمم شفاء علي بخش، فقال إنه لم يجد في نفسه ميولا إلى ذلك، واستشعر من هذا أن المريض سوف يوافي منيته؛ وهو ما حدث. وكان هناك طبيب آخر اسمه "إبراهيم"، وهو أيضا من لكناو، ولكنه حاول الانتقاص من أسلوب معالجة حضرة الحكيم لعلي بخش، وذلك أثناء وجود الحاكم، الأمر الذي أغاظ الحكيم المحترم. وقد أراد المولوي نور الدين أن يسرّي عنه بقوله إن الحياة والموت كليهما في يد الله تعالى، ومن الممكن أن يحدث لأحد أن يمرض مثل علي بخش ويكون تحت رعاية الحكيم إبراهيم، ومع ذلك توافيه المنيّة. وبالفعل، لم تنقض سوى فترة قصيرة ومرض مستخدم آخر للنواب كان تحت علاج الحكيم إبراهيم، ومع ذلك فقد وافته المنيّة بالرغم من التشخيصات

المتفائلة التي كان يعلنها الحكيم إبراهيم. وقد وضع هذا نهاية لانتقاص الحكيم إبراهيم لأسلوب علاج حكيم المحترم.

كان تدريب المولوي نور الدين تحت توجيه الحكيم المحترم، يتقدم بخطى حثيثة لأنه كان يستكمله بمجهوده الخاص وذكائه الحاد. وكان أستاذه يختبره باستمرار، ويجده دوما فوق المستوى المطلوب، مما جعله يثق في حكمه ويطمئن إلى الاعتماد عليه. ولم يُقْصر التلميذ الواعد دراساته على تشخيص الأمراض وعلاجها فقط، فإن رغبته الجامحة للمعرفة كانت شديدة كالعادة. وفي إحدى المناسبات طلب من "المفتي سعد الله" أن يدرس معه أعمال "المتنبي"، ولكن الأستاذ العالم صدّه بطريقة جافة بحجة أنه لا يملك الوقت اللازم لذلك. فانصرف عنه المولوي نور الدين بعد أن قال له:

- حسنا يا سيدي، إنني سوف أنتظر إلى أن تتوسل إليّ أن أدرس معك.

وعند عودته إلى حضرة ا لحكيم سأله قائلا:

- سيدي، ماذا يستفيد الإنسان من المعرفة؟

فأجابه قائلا:

- إن المعرفة تساعد الإنسان على اكتساب الأخلاق السامية، ولكن لماذا هذا السؤال؟
- سيدي، لقد طلبت من المفتي سعد الله أن يسمح لي أن أدرس معه أعمال المتنبي؛ غير أنه صدّني بجفاء متعللا بعدم وجود الوقت الكافي لديه.

وفي الحال أرسل حضرة الحكيم رسالة إلى المفتي، وطلب منه أن يمر عليه في طريق عودته من مكتبه. وعندما اقترب موعد حضوره، قال للمولوي نور الدين أن ينتظر في حجرة مجاورة. وبعد وصول المفتي وتبادل التحيات المعتادة سأله حكيم المحترم:

- حضرة المفتي، إذا أردت أن أتعلم منك شيئا، فهل تكون على استعداد لتوفير الوقت اللازم لذلك؟
- بالتأكيد، إنني على استعداد تام وعلى شغف أن أقوم بخدمتك.
- وإذا طلب هذا منك شخص أحمل له عظيم التقدير واعتبره أستاذي الروحي؟
- في هذه الحالة سوف يشرفني أن أذهب إليه بنفسي حيثما كان.

وبعد قليل نادى حضرة الحكيم المولوي نور الدين، وعندما رآه حضرة المفتي انفجر ضاحكا وقال:

- تعال يا سيدي.. فأنا الآن أتوسل إليك أن تدرس معي.

وفي إحدى المرات تجادل مجموعة من التلاميذ حول ما إذا كان الأشخاص الذي وصلوا إلى المقامات الروحية العالية، يميلون إلى تعليم حكمتهم للآخرين. وقد أكد المولوي نور الدين على الرأي الموجب، بينما أيد الباقون جميعا الرأي السالب. وفي النهاية تم الاتفاق على وضع الأمر كله أمام "أمير شاه"، وهو أحد الأشخاص الذين يتمتعون بمقام روحي سامٍ. وبعد أن سمع وجهة نظر كل من الفريقين صرّح بأن نور الدين على حق. وعندما كان المولوي نور الدين على أهبة الانصراف، قال له أمير شاه:

- دعني أقول لك شيئا ينبغي عليك أن تضعه دوما في اعتبارك. عندما يأتيك شخص بمشكلة ما، اتجه إلى الله تعالى وادعه قائلا: يا ربي، إني لم أطلب مجيئ هذا الشخص، وإنما أنت الذي أرسلته إليّ. فإن لم تكن راضيا بتحقيق الطلب الذي جاء من أجله، فإني أتوب إليك من ذلك الذنب الذي بسببه جعلت هذه المناسبة سببا لخزيي. فإذا أصر الشخص فيما بعد على طلب رأيك، فاطلب الهداية من الله تعالى، ثم قدم له النصيحة كما تراها مناسبة.

ويقول المولوي نور الدين إنه قد استفاد كثيرا من هذه النصيحة التي قدمها له أمير شاه.

وظل على اتصال بالحكيم علي حسين لمدة تزيد عن عامين، ثم طلب الإذن بالمغادرة بعد أن تفضل بمنحه شهادته الرسمية. وسأله حضرة الحكيم عما ينوي عمله، فأخبره بأنه يرغب في استكمال دراسة اللغة العربية والحديث الشريف. فاقترح حضرة ا لحكيم أن يذهب إلى "ميرٹھ" ويدرس على يد الحافظ أحمد علي، ثم يتوجه بعد ذلك إلى دلهي ويستكمل دراسته مع المولوي نذير حسين. وعرض عليه أن يساعده في كل من المكانين.

وقد اكتشف عند وصوله إلى ميرٹھ أن الحافظ أحمد علي قد انتقل إلى كلكتا، فسافر إلى دلهي. وهناك وجد أن المولوي نذير حسين قُدّم إلى المحاكمة بتهمة سياسية وغير موجود أيضا. وبعد إصابته بخيبة الأمل قرر الذهاب إلى بهوبال، وبدأ رحلته. وفي "جواليور" التقى بشخصية مبجلة كانت من تلاميذ الرجل الصالح المعروف سيد أحمد البريلوي،

فقرر أن يقضي بضعة أيام في صحبته. وعندما عاود استكمال ترحاله، صحبه في سفره شاب يافع من الأفغان اسمه محمود. وعندما وصلا إلى منشأة جونّة كان التعب قد نال منهما وتورّمت أقدامهما، ولم يكادا يستطيعان الحراك، فقضيا ليلتهما في مسجد شبه مهجور. وجاء أحد الأشخاص لأداء الصلاة في وقت متأخر، فلما سُئل عن سبب حضوره للصلاة في ذلك الوقت المتأخر، قال إن الناس كانوا يعمرون هذا المسجد، ولكن نشأ بينهم خلاف حول مسألة فقهية بسيطة تتعلق بأداء بعض الطقوس، وتطور الخلاف إلى نزاع حاد صار ينذر بسفك الدماء، ومن أجل تجنب ذلك اتفق الجميع على أن يؤدي كل منهم الصلاة في بيته. وأما ذلك الشخص، فلم يستطع أن يقنع نفسه بأداء الصلاة في بيته، فجاء إلى المسجد في ساعة متأخرة حتى لا يراه أحد. فطلب منه المولوي نور الدين أن يدعو جميع المصلين إلى الحضور للمسجد في اليوم التالي لكي يبذل محاولة لرفع الخلاف وحل النّزاع. فانصرف الرجل ثم عاد بعد برهة ومعه طبق من الأرز يكفي لكلا المسافريْن. وفي اليوم التالي أحضر عددا كبيرا من المصلين، وقد استطاع المولوي نور الدين أن يقنعهم بشرحه على ضرورة العودة مرة أخرى لأداء الصلاة في المسجد.

الفصل الثالث

التجوال في بهوبال

كان المسافرون قد تقدّموا بضع أميال فقط بعد أن تجاوزوا ثكنات جونّاه عندما حذّرهم أحد الفلاحين بأن عليهم أن يغيروا طريقهم لأن المنطقة التي في طريقهم قد تفشى فيها وباء الكوليرا. وكان من رأي حضرته أن يأخذوا هذا التحذير مأخذ الجد، ولكن محمود استخف به قائلا إنه رأي فرد واحد ولا يستحق أن يُعطى له أية أهمية. وبعد بضعة دقائق، أصيب محمود بالكوليرا. ورفض أهل قرية مجاورة أن يستضيفوهما، مما اضطرهما إلى اللجوء لظل شجرة. وانشغل الحكيم نور الدين طوال الوقت بتمريض رفيق سفره بكل عناية ورعاية، ولكنه فارق الحياة بعد يومين أو ثلاثة من مرضه. وقد أمكن إقناع رئيس البلدة أن يدبر أمر حفر قبر للفقيد، ولكن بعد أن تلقى مبلغا كبيرا من المال. وأدّى الحكيم نور الدين المراسم الأخيرة وتولى بنفسه عملية الدفن دون مساعدة من أحد. وقد نال منه التعب والإجهاد، وأثر فيه القلق وما كان يعانيه من شظف، مما جعله يشعر بالعجز والضعف الشديد.

وفي تلك الأثناء جاء اليه رئيس البلدة مهرولا وهو في اضطراب شديد، لأن الكوليرا أصابت ابنه، وتوسّل إليه أن يأتي إلى بيته كي يعالج الصبي، فامتثل نور الدين لتوسلاته. وبدأ الصبي في التحسن والشفاء نتيجة للعلاج الذي قدّمه له. وفيما بعد، قام بنجاح أيضا بعلاج العديد من المرضى في تلك القرية. وقد تولى رئيس البلدة وزوجه استضافته

والسهر على راحته. و لم يكتف رئيس البلدة بإعادة المبلغ الكبير من المال الذي أخذه منه نظير تدبير أمر حفر قبر محمود، وإنما تولى تدبير وسائل نقله ونقل أمتعته إلى بهوبال.

وعند وصوله إلى بهوبال، وضع أمتعته في خان للمسافرين خارج أبواب المدينة، وأصلح من شأنه ومظهره بعد السفر، وأخذ معه روبية واحدة، وانطلق إلى المدينة. وفي الطريق تناول وجبة طعام لدى محل خباز، كلفته نصف روبية. وبعد الحصول على إذن بالدخول من الحرس الذي يحرس أبواب المدينة، دخل إليها ليكتشف بعد برهة أنه لسبب أو لآخر قد فقد نصف الروبية المتبقي معه. وعندما عاد إلى الخان الذي ترك فيه متاعه، وجد متاعه كله كاملا، غير أن جميع نقوده قد اختفت. وفي اليوم التالي حمل متاعه ودخل المدينة، ومرّ بمحل الخبّاز الذي تناول فيه وجبة الطعام بالأمس، فنادى عليه الخباز ودعاه لتناول الطعام. فوضع متاعه عنده وتناول وجبة شهية من الطعام.

وفي المدينة وجد مسجدا كبيرا يقع على ضفاف بركة صغيرة. وأعجبه المسجد والطبيعة التي تحيطه فقضى فيه معظم أوقاته. وبعد أن قضى يومين أو ثلاثة دون أن يتناول أي طعام، أحس بضعف شديد، وشعر بأنه لن يعيش بعد ذلك طويلا. وبعد أداء صلاة العصر، مد جسده على الأرض في إحدى جنبات المسجد وقد غمره عرق بارد. وكان الْمُنشي جمال الدين، رئيس وزراء الدولة، قد أدّى صلاة العصر في المسجد، ويبدو أنه قد لاحظ وجود الحكيم نور الدين والحالة التي كان يعاني منها، فأرسل إليه إمام المسجد ليستفسر عنه. وتلقى إمام

المسجد إجابة مقتضبة على أسئلته من الغريب المتهالك الذي كان على شفا أن يُسلم أمانة الروح إلى خالقها. ولما أبلغ إمام المسجد جناب رئيس الوزراء بما علمه عن شخصيته، قام بنفسه ومعه مرافقوه، وذهب إليه ليسأله بعض الأسئلة. ولما علم منه أنه طبيب طلب منه أن يختبر نبضه. فأخبره بعدها الحكيم نور الدين بأنه يعاني من عسر الهضم، فطلب منه أن يصف له الدواء المناسب، فأملاه اسم دواء غالي الثمن.

وأشار رئيس الوزراء إلى مرافقيه بالانصراف، ولما اختلى به دعاه أن يرافقه في تناول وجبة الطعام، غير أنه اعتذر قائلا إنه ليس في حالة تسمح له بذلك، فذكّره الْمُنشي جمال الدين بأن رسول الله حض على قبول الدعوة، فرضخ الحكيم نور الدين وأبدى قبوله للدعوة، فانصرف رئيس الوزراء. وبعد فترة قصيرة، جاء رسول من لدنه وأخبره أنه سوف يصاحبه إلى مكان إقامة رئيس الوزراء. فأعرب الحكيم نور الدين عن عدم قدرته على المشي، فعرض الرسول أن يحمله على ظهره. وهكذا تم نقله إلى مكان إقامة رئيس الوزراء، حيث أجلسه الرسول على الكرسي المجاور لمقعد رئيس الوزراء في غرفة الطعام.

وما تلى ذلك يمكن أن يُقال بنفس كلمات الحكيم نور الدين الذي حكى ما حدث فقال:

> تم تقديم الطعام. وكان عليّ أن أختار ما سوف أتناوله من الأطعمة، وكان الصنف المفضل عندي هو الأرز المطبوخ في شوربة الدجاج، فأخذت منه مقدارا صغيرا، ولكني خشيت أن آكل منه بعد المدة الطويلة التي قضيتها دون طعام، فنحّيته جانبا وأخذت بدلا منه طبقا من مرق الدجاج وشربت بعضا

منه. وقد أحسست على الفور بالقوة والحيوية تعود إليّ، فتناولت جزءا آخر ورحت آكل ببطء. وحينئذ أرسل المضيف يستدعي الطباخ وسأله: ما هو العيب في طبق الأرز؟ فأجاب لا شيء سوى أن الدجاج قد تم طهيه زيادة عن المطلوب في جزء من الإناء فوضع ذلك الجزء في قاع الصحن الذي يحتوي على الأرز. فسأله المضيف عن أفضل الأطباق التي أعدها في تلك الليلة فقال إنها مرق الدجاج. وقد تناولت من مرق الدجاج كمية شعرت بعدها أنني قد عدت مرة أخرى إلى الحياة.

وبعد تناول الطعام تحدث معي مُنشي المحترم على انفراد وسألني عن نفسي وأموري، فأخبرته أنني من بنجاب، وأنني جئت إلى بهوبال بحثا عن المعرفة. وشعرت بأنه ظن أنني رجل ذو علم ومال ولكن ألمت به محنة، وأن موضوع البحث عن المعرفة ليس إلا مجرد ادعاء من جانبي. فأخبرني بأنني سأكون ضيفه، وأنه سوف يرتب أمور تعليمي. وخصص لي جناحا في بيته، وأوصى المشرف على مكتبته أن يسمح لي بالاطلاع على ما أشاء من الكتب. كذلك فقد أمر بإحضار كتبي وأمتعتي، وعين المولوي عبد القيوم المحترم ليكون مدرّسا لي. وقد بدأت معه في دراسة كتاب صحيح البخاري وكتاب هداية.

كان مُنشي جمال الدين يعطي في كل ليلة درسا في تفسير القرآن الكريم. وفي أحد الأيام حضر المولوي نور الدين الدرس، وكانت الآية التي يتكلم عنها هي الآية ٧٧ من سورة البقرة حيث يقول تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ...﴾، فاستأذن أن يسأل سؤالا فأُذن له، فقال: في هذه الآية وفي الآية رقم ١٥ من سورة البقرة، كان الحديث عن المنافقين في المدينة. وبينما وُصف هؤلاء في هذه الآية بأنهم قد ﴿خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ﴾، فقد وُصفوا في الآية رقم ١٥ بأنهم قد ﴿خَلَوْا إِلى شَيَاطِينِهِمْ﴾، فلا بد أن يكون هناك سبب لهذه التفرقة. وقد اعترف المُنشي المحترم بأنه لا يعرف سبب ذلك، ثم سأل المولوي نور الدين أن يبين هو السبب. فقال إنه كان هناك فريقان من المنافقين في المدينة، أحدهما من اليهود والآخر من المشركين. والآية الحالية موضوع الدرس كانت تتكلم عن المنافقين من اليهود، ولما كان هؤلاء من أهل الكتاب فقد اكتفت الآية بوصفهم بأنهم كانوا يخلون بعضهم إلى البعض ﴿خَلا بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ﴾، أما الكلام في الآية رقم ١٥ فكان عن المشركين، ولذلك وصفتهم الآية بأنهم شياطين ﴿خَلَوْا إِلى شَيَاطِينِهِمْ﴾. وقد تأثر المنشي جمال الدين بهذا التفسير تأثرا بالغا حتى إنه نهض من مكانه ودعا المولوي نور الدين أن يجلس فيه وأن يكمل درس القرآن. وقال أيضا إنه فيما بعد سوف يتولى المولوي نور الدين تقديم درس القرآن، وإنه سوف يحضر بنفسه الدرس ليستفيد من معارفه الواسعة.

* * *

وقد حدث في إحدى المناسبات التي كان المنشي المحترم يرأس فيها أحد الاجتماعات الرسمية بصفته رئيس الوزراء، أن تفوّه القاضي ببعض العبارات غير المهذبة عن حضرة شاه إسحاق. وقد تصادف للمولوي نور الدين حضور ذلك الاجتماع، فتأثر تأثرا شديدا لهذه الإساءة وانسحب من الاجتماع على الفور. وفي ذلك المساء لم يصحب المنشي المحترم على مائدة العشاء، مما أدّى بالأخير أن يمتنع هو الآخر عن تناول الطعام. وبعد ظهر اليوم التالي سأل عن المكان الذي يُحتمل أن يؤدّي فيه المولوي نور الدين صلاة العصر، فقيل له إنه سوف يؤديها على الأرجح في المسجد المجاور للجناح الذي يقيم فيه. فذهب المنشي جمال الدين إلى المسجد، ووجد بالفعل مولوي نور الدين منخرطا في أداء الصلاة، فجلس على الأرض بجواره وعن يمينه. وعند انتهائه من الصلاة وأداء التسليم، التفت إلى يمينه ليقول "السلام عليكم ورحمة الله" كما هو معتاد في نهاية الصلاة، فقال له المنشي: "آه ها! إذن فأنت تحييني بسرور"، وأمسك بيده ورفعه من على الأرض، ثم قاده من يده إلى خارج المسجد وأجلسه في عربته وأمر السائق أن يخرج بهما من المدينة. وبعد أن غادرت العربة المدينة وابتعدت عنها بعض الشيء، بدأ المنشي حديثه فقال معاتبا:

- لقد أبقيتني البارحة جوعان دون طعام، فقال المولوي المحترم:
- إن حضرة شاه إسحاق قد أهين في مجلسك وأثناء وجودك، وأنا أحد المعجبين به والمخلصين له. فسأله المنشي:
- هل حدث لك أن قابلت حضرة شاه إسحاق؟

- لا
- لقد تعلمتُ القرآن من حضرة الشاه، وقد كنت شيعيًّا شديد التعصب. وكان بيتنا في دلهي يقع بالقرب من بيته، وكثيرا ما كنت أمر من أمامه. ومع الوقت بدأت أحضر دروس القرآن التي يلقيها، والآن تستطيع أن ترى النتيجة.

وراح حضرة المُنشي يقص على المولوي نور الدين قصة تحوّله من شيعي متعصب إلى سني مخلص، ثم ختم حديثه بقوله:

- وعلى هذا فأنا من أشد المعجبين بشاه المحترم. وقد وقعت حادثة الأمس خلال اجتماع رسمي، ولذلك لم أجد أنه من المناسب أن أتدخل في الأمر. إن هؤلاء الناس عقولهم ضيقة، وعليك ألا تلقي بالا إلى ما يقولون.

وعادت بهما العربة إلى المدينة، وفي المساء تناولا سويا طعام العشاء، وعاد الوئام بينهما مرة أخرى.

وكما سبق ذكره، كان المولوي نور الدين قد درس البخاري وكتاب الهداية مع المولوي عبد القيوم، وأشرف مفتي بهوبال على تعليمه الأربعين حديثا للرسول ﷺ، التي رواها شخص عن آخر خلال سلسلة طويلة من الرواة عبر القرون. وكان المفتي قد تعلمها من محمد بن ناصر الحضرمي، الذي كان إنسانا على جانب كبير من الصلاح والتقوى، كما كان مثالا يُحتذى به في الإيمان. وقد روى المنشي جمال الدين الحادثة التالية للدلالة على ذلك:

> كان محمد بن ناصر الحضرمي شخصية معروفة بالصلاح والفضائل. وفي إحدى المناسبات عندما زارني، وضعت أمامه

حقيبة بها مبلغ ألف روبية على سبيل الهدية. ولاحظت أنه لم يُسر بهذا العمل، بل حرّك الحقيبة بسرعة ووضعها أمامي، ثم ابتسم وقال: لقد كان في نيتي أن أقرأ عليك الأربعين حديثا، ولكنك حين وضعت النقود أمامي، ظننت أنك إنسان مادي من أهل الدنيا. وكان من الممكن أن أقبل هديتك النقدية، ولكني لم أكن لأقرأ عليك الأحاديث. والآن فإني أراك إنسانا فطينا، وسأكون سعيدا عندما أزورك مرة أخرى، وسوف أقرأ عليك الأحاديث، ولكني لست في حاجة إلى مال. إن حديقتي من النخيل تُثمر من البلح ما يكفي جميع احتياجاتي، كما أني أملك أيضا بعض الجمال، وأذهب إلى الحج في مكة كل عام، حيث أحمل على أحد الجمال ما أحتاجه من البلح، ويمتطي هذا الجمل واحد من الخدم، وأمتطي أنا ظهر الجمل الآخر، وأحمل معي ما يلزم من الماء. فماذا يحتاج الإنسان لأكثر من هذا؟ الحمد لله تعالى.

وذكر المُنشي أن الحضرمي كان سريعا في كلامه وحديثه، وكانت الكلمات تنساب من فمه دون أي عناء؛ ولكن جميع كلماته كانت مأخوذة من القرآن الكريم والحديث الشريف.

كان الوضع المالي لمنشي المحترم فيما يختص بأمور بيته أمرا بسيطا للغاية. وقد ذكر مرة أنه خلال كل السنين التي قضاها في بهوبال لم ينفق أكثر من ثلاث روبيات لشراء اللحوم. وكان يأكل وجبة مشبعة واحدة في اليوم ويدعو عدة أشخاص إلى مائدته. وكان كل اللحم المطلوب

طبخه يوميا هو كيلوجرام واحد فقط من كتف الضأن. وكان خدمه يشترون له خروفا في كل صباح بثلاث روبيات، وعند ذبحه يأخذون منه كيلوجرام من اللحم المطلوب لمطبخه، ويُعرض الباقي في الحال للبيع بأثمان معقولة، وكان الناس يشترون بسرعة ما يريدون بحيث لا يزيد سعر البيع عن ثلاث روبيات، وتُرد هذه الروبيات الثلاث إلى المنشي. ولا شك أنه كان يتبع نفس هذا الأسلوب لتلبية بقية حاجات بيته. ومع ذلك فقد كان إنسانا كريما ومعطاءً للغاية. وقد خصص، على سبيل المثال، حيا بأكمله في المدينة لإيواء الناس الذين فقدوا بصرهم، وكان ينفق عليهم من ماله الخاص، واهتم اهتماما كبيرا بأمور معيشتهم، وكان يرتب بنفسه أمور تزويجهم من بين أنفسهم، وكان يشعر بسعادة غامرة عندما يرى بريق أعين أولادهم، الذين أنشأ لهم خصيصا مدرسة لتعليمهم.

وقد أصيب المولوي نور الدين أثناء إقامته في بهوبال بحمّى شديدة، حتى إن لعابه كان يسيل من فمه في لون قاتم ذي رائحة كريهة. واستشار الحكيم "فرزند علي" الذي أخبره بأنه قد أصيب إصابة مميته بنوع خبيث من الحمّى لا شفاء لها، وأن عليه أن يعود إلى بلدته على الفور. وحدث بعد ذلك أن جاء أحد الشخصيات المحترمة لزيارة المولوي نور الدين، وكان هو المدير المشرف على التلاميذ، واشتكى له من أنه يعاني من خروج اللعاب من فمه بسبب كبره في السن، وسأله عن علاج لهذه الحالة. فنصحه مولوي نور الدين أن يجرّب مربى الزيتون مع حبوب بذور الهال مع أوراق الذهب. وعاد الرجل ومعه إناء من المربى وكمية من بذور الهال وألياف الذهب وقدمها له قائلا: أرى أنك

تعاني من نفس الداء الذي كنت أعاني أنا منه، ولذلك فقد جئت إليك بنفس العلاج الذي وصفته لي لعلك تجرّبه. وشكره حضرة المولوي على لطفه، ووجد أن الاستعمال المتكرر لهذا الخليط قد حقق له بالفعل شفاء كاملا.

* * *

وحدث ذات مرة أنه كان يملك معطفين مصنوعين من نوع ثمين من القماش، وقبل أن تُتاح له فرصة لارتداء أي منهما، سُرق أحدهما منه. ولم يشعر بأي انزعاج لهذه الخسارة، بل تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة:١٥٧). ولأنه كان يؤمن يقينا بأن الله تعالى سوف يُعوّضه برزق أفضل مما فقده، فقد تصدّق بالمعطف الآخر الذي تبقّى لديه. وبعد مرور عدة أيام، بدأ ابن أحد أثرياء المدينة يشكو من إصابته بمرض السيلان، فطلب من صديق له أن يحضر له طبيبا لا يكون من الأطباء المعروفين، وكان ذلك الصديق يعرف الحكيم نور الدين، فعرض عليه أن يزور المريض الشاب. وحين علم الحكيم نور الدين بتفاصيل الأمر قال في نفسه: هذا هو معطفي المفقود؛ واصطحب مبعوث المريض إلى منْزله حيث وجده جالسا في حديقة منْزله. وذكر المريض جميع الأعراض التي يشعر بها، وطلب منه أن يصف له دواء يستطيع أن يُرَكّبه بنفسه. كان في الحديقة بعض أشجار الموز، فوصف له الحكيم ماء الموز ومُركّب الكالسيوم الذي كان من السهل الحصول عليه. وعلى الفور حضّر المريض التركيبة ثم ابتلعها. وغادر الطبيب مريضه ثم عاد في اليوم التالي لزيارته والاطمئنان عليه، فأخبره المريض بأنه قد شُفي من مرضه

بعد تناوله الجرعة الأولى من الدواء، وأنه لم يعد في حاجة إلى المزيد من الدواء. وأدرك الحكيم نور الدين أن الواقعة كلها لم تكن سوى تجليا لفضل الله تعالى. وفي اليوم التالي حضر إليه صديق المريض وأحضر إليه عدة أثواب من القماش المطرز بالقصب وأنواعا أخرى غالية الثمن، بالإضافة إلى مبلغ كبير من المال أرسلها إليه المريض تعبيرا عن امتنانه وعرفانه بفضله. فقال الحكيم مرة أخرى: هذا هو المعطف المفقود. فسأله الصديق عن سر هذا المعطف المفقود فأخبره عنه الطبيب، وقال له حيث إنه لن يستعمل هذا القماش الثمين، فالأوْلى أن يُباع ليستفيد بثمنه. وقد بيعت الأقمشة بثمن كبير، وعندما أضيف إلى ما معه من أموال، تجمّع لديه مبلغ كبير من المال، مما جعله يقرر أن يذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج.

وحين حان موعد رحيله من بهوبال، استأذن من صديقه الحميم مُنشي جمال الدين، كما ذهب في صحبة مجموعة من كبراء القوم والعلماء لوداع المولوي عبد القيوم. وعند مغادرته طلب منه أن يسدي إليه بعض النصائح التي تجلب إليه السعادة وتجعله في موقف سليم. فقال له: لا تحاول أن تجعل نفسك الله ولا رسوله. فقال له باستغراب:

- سيدي، أنا لم أفهم ما تقصد، ولا أظن أن أحدا من هذه الصحبة الكبيرة من العلماء قد فهم مقصدك.
- حسنا، قل لي كيف ترى قدر الله تعالى؟
- سيدي، إن إحدى صفاته تبارك وتعالى أنه على كل شيء قدير.
- هذا حق، وهذا هو ما قصدت. فحينما تفشل بعض تدابيرك، فينبغي عليك أن تُذكّر نفسك بأنك لست الله. كذلك فإن

رسول الله يتلقى الأمر من الله تعالى، ويعلم أن مصير أولئك الذين يعصون أمره هو العذاب في جهنم، ولذلك فإنه يحزن لمعصيتهم إياه. وأما أنت، فإذا حدث أن عصاك أحد أو رفض أن يأخذ برأيك، فإن هذا لن يكون سببا في غضب الله تعالى عليه، وعلى ذلك ينبغي ألا يكون هذا سببا في حزنك عليه.

وبعد أن غادر بهوبال، توقف في بُرهانبور حيث استقبله المولوي عبد الله، صديق والده، استقبالا حافلا وأشرف على راحته. وعند رحيله أعطاه المولوي عبد الله صندوقا من الحلوى، فلما فتحه وجد فيه بعض المال نقدا، كما وجد أيضا أمرا بدفع مبلغ ألف روبية يُصرف من لدن أحد التجار في مكة المكرمة. وقد استخدم المبلغ النقدي في نفقاته، ولكنه لم يصرف من التاجر أمر الدفع.

أما المولوي عبد الله فكان له تاريخ مثير. كان ينتمي إلى ساهيوال في مقاطعة شاهبور. وكان رجلا معدما ولكنه استطاع بحيلة ما أن يصل إلى مكة لأداء فريضة الحج. ولما لم يكن يملك ما يقيم أوده، فقد اعتاد أن يلجأ إلى التسوّل من الناس وطلب المعونة منهم. وفي أحد الأيام خطر له أنه إذا داهمه المرض وليس معه ما يعول به نفسه فسوف يكون في مأزق صعب للغاية. وعلى التو قام إلى الكعبة المشرّفة، وتعلق بركن من أستارها، وعاهد الله تبارك وتعالى قائلا: "يا رب! أنا لا أستطيع أن أراك، ولكني أتعلق بأستار كعبة بيتك المكرّم، وأنا أعدك يا ربي أنني منذ هذه اللحظة لن أتسول حاجتي من أي مخلوق من مخلوقاتك". وبعد هذا العهد الذي قطعه على نفسه، ترك أستار الكعبة ورجع إلى الوراء

وجلس على الأرض. ومر عليه أحد الأشخاص، ولعله لاحظ ما يعانيه من فاقة، فوضع في يده ست بيسات (ما يوازي ستة ملاليم أو ستة فلسات – المترجم). ولما لم يكن قد سأل أحدا ولا تسوّل من أحد، فقد أخذ البيسات الست، وتناول الطعام باثنتين منهن واشترى بالباقي كبريتا باعه بست بيسات. وعاد يستثمر رأس ماله الصغير، فاشترى الكبريت ثم باعه بتسع بيسات. وراح يكرر عملية الاستثمار هذه حتى إذا غابت شمس ذلك اليوم كان قد تجمع لديه مبلغ أربع آنات (أي ست عشرة بيسة). وفي خلال بضعة أيام كانت حزمة الكبريت التي يحملها قد ثقل عليه حملها. فتحول إلى الاستثمار في الصابون ومساحيق الزينة. واستمرت تجارته في الازدهار حتى إذا ما تجمعت لديه بعض الأموال سافر عائدا إلى بومباي، حيث كان يشتري نسخا من القرآن المجيد ويبيعها في المدن والقرى المجاورة. ولقيت تجارته هذه نجاحا باهرا حتى إنه في إحدى المرات اشترى نسخا من القرآن المجيد بمبلغ كبير وصل إلى ثلاثين ألف روبية، وشحنها كلها إلى مدينة "بهيرة" حيث باعها كلها لوالد المولوي نور الدين. ومع مرور الوقت صار من كبار تجار الأقمشة، وبنى له بيتا في بُرهانبور واستقر به المقام هناك. وكان يقول إن أسلوبه في التجارة هو أن يقبل الربح البسيط كي يبيع بضاعته بسرعة.

وفي بومباي قابل المولوي نور الدين المولوي عناية الله، وطلب منه أن يحضر له نسخة من كتاب حضرة شاه وليّ الله واسمه "الفوز الكبير"، فقد كان حريصا على قراءته والاحتفاظ به. وقيل له في اليوم التالي إنه يمكن الحصول على الكتاب بسعر خمسين روبية، فدفع على الفور ورقة مالية بقيمة خمسين روبية وأخذ الكتاب وقام ليغادر المكان. فسأله المولوي

عناية الله عن سببه تعجله في المغادرة، فقال إن بعض العلماء أفتى بأن البيع لا يكون نهائيا إلا بعد أن يفترق البائع والمشتري، ولذلك كان يريد أن يغادر المكان حتى تكون عملية البيع نهائية، فرجاه المولوي عناية الله أن يعود في أقرب وقت. وعندما عاد المولوي نور الدين، أعاد إليه المولوي عناية الله مبلغ الخمسين روبية لما رأى مقدار حبه للكتب وحرصه على اقتنائها، وذلك بالرغم من تأكيد المولوي نور الدين على أن لديه ما يكفيه من المال، وأن المبلغ الذي دفعه ثمنا للكتاب لم يعجزه.

الفصل الرابع

فترة الحجاز

استقل المولوي نور الدين مركبا من بومباي إلى جدّة. وعلى ظهر المركب قابل خمسة من الحجاج ينتمون إلى نفس المنطقة التي ينتمي هو إليها، وقد احتفى به هؤلاء وسهروا على راحته في كل أمر. ثم قطع الرحلة من جدّة إلى مكة المكرمة على ظهر أحد الجمال. وكان قد سمع أن الدعاء الذي يدعو به المرء عند رؤيته الكعبة للمرة الأولى يكون دعاء مُجابا، فما أن لمح الكعبة المشرّفة من على ظهر أحد الجبال حتى دعا الله تعالى بهذا الدعاء قائلا: "اللهم ربي إني فقير دائما إلى عونك وفضلك، ولذلك فإني أدعوك أن تجعلني بخالص رحمتك مستجاب الدعاء". ولم يكن متأكدا من مدى صحة ذلك الاعتقاد الشائع باستجابة الدعاء عند رؤية الكعبة المشرفة للمرة الأولى، غير أن تجاربه فيما بعد أقنعته بأن الله تعالى قد استجاب ذلك الدعاء الذي دعا به في تلك المناسبة.

وفي مكة المكرّمة، اتخذ مقامه مع أحد الأشخاص الصالحين، وكان متقدما بعض الشيء في العمر، وكان معروفا باسم "مخدوم". وبدأ المولوي نور الدين في دراسة الحديث الشريف على يد ثلاثة من العلماء البارزين. فدرس "أبو داود" مع الشيخ محمد الخزرجي، ودرس "صحيح مسلم" مع سيد حسين، كما درس "الموطأ" مع المولوي رحمة الله. وقد استمر الوقت الأطول من بين هؤلاء الثلاثة مع السيد حسين الذي كان قليل الكلام، ولكن كان كل كلامه يقتصر على الحديث الشريف. وقد

أخبره المولوي رحمة الله أنه قد عرف سيد حسين منذ عشرين عاما ومع ذلك فلا يعرف ما إذا كان للشيخ أهل أو عائلة، كما أنه لا يعرف كيف كان يدبر أمور معيشتة. وقد لاحظ المولوي نور الدين أنه عندما يأتي الناس إلى الشيخ سيد حسين طلبا للهدى والمشورة، فإنه كان ينصح أحدهم أن يُعوّد نفسه على ذكر الله تعالى ويدعوه بقوله يا باسط، ويقول للآخر أن يدعوه بقوله يا غني، أو يا حميد، أو يا مجيد، وهكذا. وقد خطر على بال المولوي نور الدين أن يستفسر منه عن الحكمة وراء نصيحته هذه، ولكنه لم يجرؤ على ذلك احتراما لمقامه.

كان المولوي رحمة الله عالما واسع المعرفة، كما كان معروفا بخبرته العميقة في أمور المناظرات، وخاصة في تفنيد العقائد المسيحية. وعلى عكس الكثير من العلماء الآخرين، لم يكن من المعروف عنه التصرّف بحدة تجاه من يعارضه الرأي، حتى إنه كان لا يفقد اتزانه ولا بشاشته في وجه أي موقف عويص مهما كانت شدته.

وأما الشيخ محمد الخزرجي فكان عالما متمكنا في كتب الحديث الستة الرئيسة. وفي إحدى المناسبات أثناء درس الحديث من كتاب أبي داود، حدث أن ثار سؤال بسيط بين الأستاذ والتلميذ عن الوقت الذي ينبغي أن يبدأ فيه الاعتكاف خلال شهر رمضان المبارك. فإذا بدأ الاعتكاف في صباح اليوم الحادي والعشرين، فهناك احتمال أن تكون الليلة السابقة هي ليلة القدر، ولم يكن الاعتكاف ليبدأ في اليوم العشرين، حيث إن الرسول ﷺ كان يفضل أن يبدأ الاعتكاف في الصباح. وقد علّق المولوي نور الدين على هذا الأمر بأنه لا توجد أي

صعوبة على الإطلاق، إذ يمكن أن يبدأ الاعتكاف في صباح اليوم العشرين. ولكن الشيخ ذكر أن هذا يخالف الإجماع.

فقال نور الدين: سيدي، إني أود أن ألفت انتباهكم إلى ما ذكره الإمام أحمد بن حنبل عن موضوع الإجماع. إذ إنه لا يعني سوى اتفاق معظم العلماء من أتباع مدرسة فكرية معينة.

وقد تسبب هذا في كثير من الاستياء للشيخ، الذي لم ينطق بكلمة خلال بقية الدرس. وبعد ظهر ذلك اليوم ذهب المولوي نور الدين لحضور درسه مع الشيخ رحمة الله، الذي سأله قائلا: هل تجادلت مع شيخك في أي موضوع اليوم؟

- سيدي، لا يمكن أن يكون هناك مجال للجدال بين تلميذ وأستاذه. وأنا لست سوى تلميذ، والشيخ عالم كبير. غير أنني حاولت فقط أن أشرح نقطة صغيرة.
- لا بد أنها كانت نقطة هامة، فقد جاءني الشيخ وقال إن بعض التلاميذ يتصفون بالجرأة البالغة ويخلقون المشاكل، ثم قص عليّ كل ما حدث.
- يا سيدي إن الموضوع لم يكن سوى أمر شرعي بسيط. فعند بدْء الاعتكاف في صباح اليوم العشرين بدلا من صباح اليوم الحادي والعشرين، يمكن التوفيق بين مختلف الأحاديث عن الموضوع.
- ولكن هذا سوف يكون مغايرا للإجماع.
- أي إجماع هذا على أمر بسيط مثل هذا؟
- حسنا، دعنا نؤجل الدرس حتى الغد، ودعنا نذهب إلى بيتي.

وعند مرورهما بفناء الكعبة أشار المولوي نور الدين في اتجاه الكعبة وتساءل قائلا:

- لماذا يتوجه الناس ناحية البيت الحرام عند سجودهم في الصلاة؟
- هذا ما أمر به الرسول ﷺ.
- سيدي، إنك على معرفة تامة بكتاب اليهود المقدس، وتعلم أن القدس كانت هي القبلة بحسب إجماع كل أنبياء بني إسرائيل. فلماذا تحيد عن إجماع كل الأنبياء بسبب أمر نبي واحد فقط؟ فإذا اختلفت أنا على تفسير واحد من الأحاديث يختص بأمر بسيط، فما هو الضرر الذي ارتكبته؟
- إن قلبي غير مطمئن إلى ذلك.
- ولكن ماذا عن الشخص الذي يشعر قلبه بالاطمئنان؟
- حسنا. لقد تشفعت لك مع شيخك وطمأنته تماما. ويمكن لك متى شئت أن تستأنف دروسك معه.

وفيما بعد استكمل المولوي نور الدين مع الشيخ محمد الخزرجي دراسة النسائي وابن ماجه، بالإضافة إلى سنن أبي داود.

* * *

وفي تلك الأثناء وصل حضرة شاه عبد الغني مجدّدي إلى مكة المكرمة قادما من المدينة المنوّرة. وقد تم الإعلان عن وصوله إلى مكة بشكل واسع، واستُقبل استقبالا حافلا. وذهب المولوي نور الدين أيضا ليقوم بواجب الترحيب به. وكان حضرته قد اتخذ مجلسه في فناء الكعبة، يحيط

به أفواج من المعجبين به. وبعد أن حياه المولوي نور الدين، وبدون أية مقدمات سأله قائلا:

- سيدي، متى ينبغي أن يبدأ الاعتكاف.

فأجاب الشيخ بدون أي تردد قائلا: في صباح اليوم العشرين.

وشعر المولوي نور الدين بالرضى البالغ، وتأثر تأثرا عميقا بعظمة الشيخ وغزارة علمه. وحينئذ قال له:

- سيدي. لقد سمعت أن هذا سوف يكون منافيا للإجماع.

وأجاب حضرة الشاه بلهجة غريبة فقال:

- إن الجهل بلاء عظيم؛ ثم راح يعدد أسماء العديدين من علماء الشريعة ممن ينتمون إلى المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي الذين قالوا نفس الرأي.

وقد استولى الشيخ بغزارة علمه وفكره الثاقب على إعجاب المولوي نور الدين وإخلاصه، فانتحى جانبا وكتب رسالة صغيرة يطلب فيها الإذن أن يصحب حضرة الشاه إلى المدينة المنوّرة كي يدرس على يده. وعند قراءة الرسالة أبلغه حضرة الشاه أن عليه أن يستكمل دراساته أولا في مكة قبل أن يذهب إلى المدينة المنوّرة.

وقص المولوي نور الدين كل ما حدث على المولوي رحمة الله، ثم قال:

- هذا هو العلم الحقيقي. إن شيخنا كان متخوّفا بعض الشيء، ولكن حضرة الشاه أعلن رأيه في فناء الكعبة في حضور الألوف من العلماء و لم يعترض واحد منهم على قوله.

وعلق المولوي رحمة الله فقال: إن حضرة الشاه عالم كبير.

وقد حدث ذات مرة أن مرضت والدة أحد أساتذته واستمر مرضها زمنا طويلا، وجرّب علاج العديد من الأطباء ولكن دون جدوى. وحينئذ طلب ذلك الأستاذ من المولوي نور الدين أن يستشير أي طبيب يعرفه. وبغير أن يذكر أنه هو نفسه كان طبيبا، أعدّ علاجا كان له الفضل في تحقيق الشفاء خلال يومين أو ثلاثة. و لم يكتشف الأستاذ أبدا حقيقة شخصية الطبيب.

* * *

وعندما أتم المولوي نور الدين استعداده للذهاب إلى المدينة المنورة، ترك مبلغا كبيرا من المال وبعض متاعه لدى واحد من زملاء دراسته، كان من نفس بلدته "بهيرة"، وكان يقيم في مكة. وأخبره أنه يستطيع أن يستعمل المال في تجارته، وأنه سوف يسترد منه المتاع والمال عند عودته، وسوف يترك له الربح الذي يحققه من استعماله المال. وفي المدينة المنورة قدّم نفسه لحضرة شاه عبد الغني الذي خصص له جناحا لإقامته. وبعد بضعة أيام عرض المولوي نور الدين أن يبايع حضرة الشاه باعتباره أستاذه الروحي. وقد وافق الشاه على أن يمكث معه مدة ستة شهور. ووجّهه لأن يركز تفكيره على الآية القرآنية الكريمة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق:١٧)، ثم بعد فترة قصيرة أضاف إليها الآية ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (الحديد:٥). وكان من نتيجة هذا التركيز أنه كان كثيرا ما يتشرّف برؤية الرسول ﷺ في أحلامه، كما أنه تبين النتائج الروحية التي تحدث عندما يتساهل في بعض الأمور. وقد استفاد كثيرا من وجوده في صحبة حضرة الشاه الذي كان رجلا على وعي كبير

وكلام قليل، كما أنه كان يتمتع بفكر ثاقب ونظرة بعيدة ومعرفة واسعة. وكان يعطي دروسا في صحيح البخاري، والترمذي، والمثنوي لمولانا جلال الدين الرومي، والقشيرية، كما أنه كان يتصف أيضا بالذوق الكريم.

وقد سأله المولوي نور الدين في إحدى المناسبات عن تقييمه للمذاهب السُّنية الأربعة، فأجاب قائلا: الأوسع انتشارا هو مذهب أبي حنيفة، والأكثر اتباعا هو المذهب المالكي، والأشد صرامة هو المذهب الشافعي، والأكثر شمولا هو مذهب أحمد بن حنبل.

كان القرآن المجيد بأكمله يُتلى في بيته يوميا، وكان بعض تلاميذه يرددون "لا إله إلا الله" تسعة عشر ألف مرة في اليوم. وقد ذكر له بعض تلاميذه أن نور الدين لا يثابر على الرياضات الروحية، كما أنه يتلو الفاتحة في الصلوات التي يجهر فيها الإمام بتلاوة الفاتحة، وهو أيضا يوافق على رفع الأيدي في بعض المواطن خلال أداء الصلاة. وردَّ حضرة الشاه على ذلك بقوله: حسنا، خذوا سكينا واقطعوا من صحيح البخارى تلك الصفحات التي تذكر جواز تلاوة الفاتحة في الصلوات التي يجهر فيها الإمام بتلاوة الفاتحة، والصفحات التي تذكر رفع اليد في بعض المواضع خلال الصلاة. وأيضا أروه بعض المراجع من القرآن أو الحديث تحث على ترديد "لا إله إلا الله" تسعة عشر ألف مرة في اليوم، وأنا على يقين أنه سوف يستجيب. وقد أسكت هذا الرد جميع المنتقدين.

كان المولوي نبي بخش من جامبور يعيش في الجناح المجاور لجناح المولوي نور الدين. وكان يهدف من إقامته في المدينة المنورة أن يحظى برؤية الرسول ﷺ وهو في حالة من اليقظة الكاملة. وكان من رأيه أنه لا

يجوز أداء ركعة واحدة في صلاة الوتر، فأقنعه المولوي نور الدين بجواز ذلك. وبعد ذلك بقليل تشرف المولوي نور الدين برؤيا رأى فيها الرسول ﷺ، وقال له فيها: من المسموح لك أن تأكل في بيتي، ولكني أشعر بالقلق على نبي بخش. وقد بحث المولوي نور الدين عن نبي بخش لفترة طويلة، ولكنه لم يكن يأتي إلى جناحه. وحينما عثر عليه بعد ذلك سأله عما إذا كان يعاني من مشكلة أو ضيق، وعرض عليه بعض المال. واعترف نبي بخش بأنه قد مر بفترة عصيبة، ولكنه وجد أخيرا عملا استطاع أن يكسب من ورائه بعض المال مما أزاح عن صدره بعض العناء، وأنه لم يعد يشعر بالحاجة بعد ذلك.

كان ضمن سكان المدينة أحد الأتراك، وكان يمتلك مكتبة ضخمة، كما أنه كان قد تعرّف على المولوي نور الدين وصار من المعجبين به، وتأثر بمدى حبه للقرآن الكريم، ولذلك عرض عليه أن يُقرضه أي كتاب يرغب في قراءته. فسأله عن كتاب يساعده على فهم موضوع نسخ عدد من الآيات القرآنية. فأحضر له كتابا كان يذكر أن عدد الآيات المنسوخة يبلغ حوالي ستمئة آية. وقد أصابه هذا الكتاب بالاضطراب والحيرة. فأحضر له صديقه عندئذ كتاب "الإتقان في علوم القرآن" لجلال الدين السيوطي، وقد فهم من خلاله أن عدد الآيات المنسوخة يبلغ تسع عشرة آية فقط. وشعر بالراحة والسرور بهذا الكتاب، وخطر له أن ينظر في كتاب شاه وليّ الله "الفوز الكبير"، الذي كان قد اشتراه في بومباي ولم يكن قد قرأه بعد. وقد غمره الفرح عندما اكتشف أنه حسب رأي شاه وليّ الله، لا يوجد في القرآن المجيد سوى خمس آيات

منسوخة فقط. وقد أقنعه هذا أن موضوع النسخ كله في القرآن هو موضوع يتوقف على حسن الفهم والقدرة على التفكر والتدبر في الآيات الكريمة. وقد استطاع فيما بعد أن يحل المشكلة بأكملها وصار على قناعة كاملة بأنه لا توجد آية واحدة منسوخة في الكتاب العزيز.

* * *

وقد أساءه أثناء إقامته في المدينة المنورة اكتشافه نقص الأمانة والشرف لدى بعض من يتقلدون المناصب العامة. فقد عزم صديق له على أن يقوم ببناء منْزل يخصص لراحة المسافرين الذين يزورون المدينة المنورة، وأنفق على هذا المشروع مبلغا كبيرا من المال. وطلب منه قاضي المدينة قرضا من المال يبلغ مئة جنيها، فأراد أن يستشير شاه عبد الغني طلبا للنصيحة، فأخبره بأن هذا القرض لن يُرد إليه، وعلى هذا رفض أن يدفع المبلغ المطلوب. وفي اليوم التالي تسلم إخطارا من إدارة القاضي بأن بناء المنْزل سوف يعترض مسار أحد الطرق، الأمر الذي يتعارض مع ما أمر به الرسول ﷺ، وعلى ذلك ينبغي أن يتوقف العمل في بناء المنْزل. وقد أفسد هذا الأمر جميع خططه مما دفعه إلى استشارة صديق له، فاقترح عليه أن يذهب إلى جدة ويرفع الأمر إلى القنصل البريطاني. وكتب القنصل إلى القاضي، فلما تسلم رسالته أصدر إخطارا آخر مفاده أن التحريات قد بيّنت أن الطريق لم يعد يستعمل بعد، وعلى ذلك فلن يسبب البناء أي اعتراض للطريق، ومن ثم يكون من المسموح به استئناف العمل في بناء منْزل المسافرين!

وحدث ذات مرة أن جاء أحد الأشخاص إلى حضرة الشاه وشكى له أنه قد هاجر إلى المدينة المنورة، ولكنه وجد أحوال الناس في المدينة

سيئة للغاية. وقد تضايق حضرة الشاه كثيرا لذلك وقال: أنا أيضا هاجرت للإقامة في هذه المدينة، فإن كان الدافع لهجرتك هو رغبتك أن تكون بالقرب من رسول الله ﷺ، فهذا أمر متاح لك. ولكن إذا كنت قد جئت إلى هنا طلبا لصحبة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، فإنك لن تجدهم هنا، وعليك أن تبحث عنهم في مكان آخر.

كذلك حدث مرة للمولوي نور الدين أن فاته أداء صلاة الظهر، الأمر الذي سبب له الكثير من الألم والحزن، وأعطاه الإحساس بالذنب وبأنه ارتكب كبيرة من الكبائر لن تُغفر له. فدخل المسجد وهو في حالة شديدة من القلق، ودخل من باب الرحمة الذي كان مكتوبا من فوقه كلمات الآية الكريمة: ﴿يَا عِبادِيَ الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر:٥٤). ولكن حتى هذا التأكيد الإلهي لم يأت بالسكينة إلى روحه المضطربة. وبدأ يؤدي صلاته في بقعة بين المنبر ومقام الرسول ﷺ. وأثناء ركوعه تذكر أن الرسول ﷺ كان قد وصف المكان الذي يقع بين المنبر والمقام بأنه جزء من الجنة. وشعر حينئذ بأنه في الجنة، ولذلك أحس بأن كل ما يدعو به مهما كان سوف يُستجاب، فدعا الله تعالى أن يغفر له ذنبه.

* * *

وقد لاحظ خلال رحلته من مكة إلى المدينة أنه كثيرا ما تقع المنازعات بين سائقي الجمال من البدو والمسافرين من الهنود، مما كان يؤدي إلى وقوع أمور غير سارة بينهم. وعندما فكر في ذلك الأمر وجد

أن هناك عاملين يؤديان إلى هذه النتيجة المؤسفة. العامل الأول هو نقص وسائل التفاهم، فالحجاج القادمون من الهند قليلا ما يعرفون اللغة العربية، والبدو لا يعرفون اللغة الهندية.

العامل الثاني هو عادة العرب في الترحيب بالجميع إلى الطعام. إذ كثيرا ما يحدث أن يقدم الراكب الطعام لسائق جمله، فيشاركه فيه الكثيرون، فتكون النتيجة أن لا يتمكن أحد من تناول ما يكفيه من الطعام، مما يؤدي أن يشعر الجميع بالجوع وانفلات الأعصاب.

أما العامل الأول فلم يكن له تأثير في حالة المولوي نور الدين. ولكي يقي نفسه من تأثير العامل الثاني، حرص على أن يأخذ معه كمية وافرة من التمر قبل أن يغادر المدينة المنورة في رحلة العودة إلى مكة المكرمة. وكان في كل ليلة، نحو منتصف الليل، يعطي لسائق جمله نصيبا مضاعفا من التمر، مما كان يُشبع السائق ويجعله راضيا، فكان يرعى راحته ويعمل على تلبية احتياجاته.

وعند الاقتراب من مكة، تذكر أنه جاء في أحد الأحاديث أن الرسول ﷺ قد دخل مكة من ثنية كَداءَ. وقد وجد أن الجمال المحمّلة والحمير لا تستطيع أن تذهب من ذلك الطريق، فترجّل عن جمله بعد أن جاوز "ذي طوى" بقليل، ودخل مكة عن طريق كَداءَ. وقد لاحظ أن القليل من الناس من كان يفعل ذلك.

وكلما أراد أن يعتمر وهو مقيم في مكة، كان يضع الإحرام في بيته. وعندما لاحظ هذا مضيفه السيد مخدوم المحترم، قال له إنه ينبغي عليه أن يذهب إلى التنعيم كي يبدأ إحرامه من هناك. فأخبره بأنه ليس من الضروري أن يذهب لمسافة ستة أو سبعة أميال خارج البلدة مع وجود

ما ينص في الحديث أن لأهل مكة أن يُحرموا من مكة. فاستاء مخدوم وقال: إنك تتصرف بخلاف أهل البلد، وتضع نفسك في موقف يتعارض معهم. فقال المولوي نور الدين إنه لا يريد أن يعارض أهل البلد، وإنما يريد فقط مخالفة سائقي الحمير الذين سوف يقل مدخولهم. وقد أتى هذا الرد بابتسامة ارتسمت على وجه مخدوم، وتوقف عن الاعتراض.

وبعد أداء فريضة الحج، ذهب إلى زميل دراسته من بلده "بهيرة" وطلب منه متاعه وماله الذي تركه أمانة عنده. وقد أجّل صديقه تسليم الأمانة مرة أو مرتين، ولكن إزاء إصراره أخذه الرجل إلى بيت كبير، كان بابه مغلقا بالمزلاج، ثم قال: لقد وضعت متاعك ومالك لدى مالك هذا البيت، ولا أدري أين ذهب. وبينما كانا يتحادثان جاء عربي وسأل قائلا: ما المشكلة؟ فقال المولوي نور الدين: إن متاعي لدى مالك هذا البيت، ومن الغريب أن يكون هذا البيت الكبير مغلقا. فسأل العربي قائلا: لماذا يقف هذا الهندي هنا؟

- إنه هو الذي وضع متاعي هنا.

ولما سمع العربي ذلك استشاط غيظا وقال:

- هذا الرجل كذاب وغشاش. لقد بدد مالك ومتاعك، فإن مالك هذا البيت رجل كريم يتمتع باحترام وتقدير الجميع، وقد ذهب مع أفراد عائلته إلى جدة لوداع بعض الأصدقاء، ولن يعود إلا بعد انتهاء موسم الحج ومغادرة الحجيج إلى بلادهم.

كان العربي يتكلم باحترام ومحبة مع المولوي نور الدين، ولكنه كان على العكس من ذلك كان يتكلم باحتقار مع زميل دراسته الذي ظل صامتا مطأطئ الرأس في خجل. وقال الرجل العربي:

- هذا هو الحال في مكة. لقد أساء إلينا هؤلاء الهنود وجلبوا لنا سمعة سيئة، ولا يفعلون شيئا لإصلاح أمورهم. يا سيدي، إن هذا الرجل قد أعطى كل مالك ومتاعك لامرأة بنغالية. لقد اعتاد هؤلاء الناس على فعل هذه الأمور، ولن تستطيع أن تستعيد شيئا مما لك.

وفيما بعد، حين أراد الأستاذ الذي كان يقوم بالتدريس للمولوي نور الدين وزميل دراسته أن يؤدي مراسم الحج، حذّره المولوي نور الدين ونصحه أن يعتني بمتاعه وماله وألا يثق في أحد. وعندما عاد من أداء فريضة الحج، عبر عن شكره وامتنانه لحضرة المولوي المحترم على نصيحته التي كانت سببا في نجاته من الوقوع في براثن تلميذه السابق.

كان المخدوم المحترم متقدما في السن، وكانت زوجته تصغره في العمر بفارق كبير، كما كانت شديدة الجمال أيضا. وفي أحد الأيام قال لها المولوي نور الدين:

- سيدتي، أريد أن أسألك سؤالين. الأول هو: هل تشعرين أنك تتمتعين بجمال بارع؟
- نعم بالفعل أشعر بهذا، حتى إنه في كل مكة، أنا هي المرأة الوحيدة التي لا تستخدم مساحيق التجميل بتاتا.

- أما سؤالي الثاني فهو أنني لاحظت أنك تبذلين جهدا كبيرا من أجل سعادة وراحة المخدوم. فهو رجل متقدم في العمر وأنت ما زلت في مقتبل العمر، وإخلاصك الحميم والنادر هذا يبهرني.
- لو لم يكن متقدما في العمر لما كنت قد بذلت كل هذا الجهد من أجل السهر على راحته. إن الله تعالى قد أنعم به عليّ وجعله زوجا لي، فصار من واجبي أن أعتني به وأفعل كل ما في وسعي من أجل راحته وسعادته.

وقد فهم المولوي نور الدين أن هذه المرأة الشابة قد بلغت أعلى مراتب التقوى والصلاح، فسأل المخدومَ عما إذا كان راضيا تماما عن زوجته، فأجابه قائلا:

- إنني أشهد لها بعظيم صدقها وإخلاصها، وهي تبذل أقصى ما وسعها من أجل تحقيق راحتي، حتى إنها تُعتبر بحق تجسيما مثاليا لما يدل عليه اسمها وهو "صادقة".

* * *

وصل المولوي نور الدين إلى بومباي ومعه حمل ثقيل من الكتب. وقد أرسل الصناديق التي تحتويها إلى لاهور بالبريد المسجل، على أن يدفع مصاريف الشحن عند الاستلام. وتوقف بعض الوقت في دلهي حيث كان قد سمع أن أستاذه الذي كان يعلمه علوم الطب موجودا في دلهي. فذهب لتحيته والترحيب به، فسأله الأستاذ: ما الذي أحضرته من الحجاز؟ فذكر المولوي نور الدين أسماء بعض الكتب التي جمعها وأحضرها معه. فقال له الأستاذ:

- هل لك أن تعطيني إياها؟
- سيدي، لقد قمت بشحنها إلى لاهور، وعندما أصل هناك سوف يكون من دواعي سروري أن أرسلها لك.
- إنني أود أن أشاهد لاهور، فهلم نذهب سويا اليوم إلى لاهور.

ورحّب المولوي نور الدين بصحبة أستاذه، وسافرا سويا إلى لاهور حيث اصطحبه المولوي نور الدين في جولة بأنحاء المدينة. ثم جاء ذكر الكتب، فذهبا لدفع مصاريف الشحن لاستلامها. وقد قام أستاذه الكريم بدفع جميع مصاريف الشحن من بومباي، وناول تلميذه السابق جميع صناديق الكتب قائلا:

- لقد أردت بهذا أن أساهم بنصيب في حصولك على هذه الكتب.

وفي الحقيقة، لم يكن المولوي نور الدين يملك في ذلك الوقت دفع مصاريف شحن الكتب. وبعد أن قام بتوديع أستاذه، التقى أحد الهندوس من بلدته "بهيرة"، وكان يملك عددا من وسائل النقل، فعرض عليه الرجل أن يقوم بنقل صناديق كتبه ومتاعه إلى "بهيرة"، قائلا إنه سوف يتقاضى منه أجر النقل عندما يصل إلى بلدته.

الفصل الخامس

طبيب في بهيرة

عندما وصل المولوي نور الدين إلى "بهيرة" استقبله جمع غفير من المسلمين والهندوس من أبناء بلدته. وسرعان ما تبين له أن الجو السائد هو روح التعصب والخداع وعدم الثقة. وكان هناك نزوع شديد بين المسلمين نحو الاهتمام بالأمور البسيطة والشكلية من الطقوس والشعائر مع الغياب الكامل لأي رغبة في الالتزام بالأخلاق النبيلة والمثل العليا ونشر القيم الروحية. وقد انجرّ عدة مرات في مناقشات عقيمة عن أمور دينية تافهة، وعندما عبر عن آرائه المتحررة من قيود التزمّت والتشدد، أثار عليه الاعتراض الشديد. وقد حذّروه أنه إن لم ينْزل إلى مستوى الاعتقادات الشائعة بين الناس في هذه الأمور، فإن حياته ستكون صعبة مليئة بالمشاكل. وكثيرا ما كان يتعرض لمواقف تسبب له خطرا شديدا، ولكنه كان ينجح في تخليص نفسه باستخدام ما وهبه الله تعالى من فطنة، وما أنعم عليه من ذكاء وشجاعة وحضور العقل. ورغم هذا فقد ظل العديد من الناس يأتون إليه لاستشارته في الدراسات الدينية، وكان يعطيهم بسخاء أحسن ما لديه من الآراء، غير أن حملة معارضته والكيد له ظلت على أشدها.

وأخيرا قرر أن يبدأ في ممارسة الطب. فطلب نصيحة أحد الأطباء القدامى الذين يمارسون الطب في المنطقة منذ زمن طويل، فقال له: إنني أتقاضى أجرا على عملي، ومع ذلك فإنني بالكاد أستطيع أن أعيش حياة

متواضعة. وأنا أعرف أنك لن تطلب أجرا من أحد، وما يتطوع المرضى بدفعه لا قيمة له. وبالإضافة، من المحتمل أنك سوف تصف الأدوية البسيطة والرخيصة، وأساليبك هذه لن تروق للجراحين وباعة الأدوية. وأرى أنك لست على وفاق مع رجال الدين، ولهذا فإني أرى أن المستقبل غير مشجع لك.

كان المولوي نور الدين قد تزوج حديثا، وشعر أنه ينبغي عليه أن يستقر ويختار مهنة له. وكانت خبرته في الأمور الطبية حتى ذاك الوقت، رغم قلتها وعشوائيتها، قد أثبتت جدارته وقدرته. وقد ثبتت صحة تشخيصاته الطبية، كما تبين أيضا سلامة وحسن تأثير الأدوية التي ابتكرها لعلاج الكثير من الأمراض. وقد أمدّه إيمانه القوي بالله تعالى بالعزم والتصميم، وساعده على ذلك شعوره بالاتكال الكامل على الله عزّ وجلّ والاستعانة به. وقد شجعه والده أيضا، واقترح عليه أن يقيم عيادته في منْزل كبير فسيح وضعه تحت تصرفه، وسرعان ما جذبت المرضى وسائله الناجحة في العلاج. وخلال طوال حياته التي مارس فيها الطب، لم يحدث له أبدا أن طلب أجرا من مريض، وكان شديد الرضا بما يوفره له الله تعالى من رزق. ولم يكن يُفرّق في المعاملة بين مرضاه، إذ كان كل واحد منهم يحظى بكامل انتباهه واهتمامه، وكان الفقير والمحروم يحظى أيضا بعنايته بشكل خاص، وحين كان الأمر يقتضي المساعدة، كان يقدم لهم المساعدات المالية.

وتوفي والده، وبعد ذلك بقليل أخبره أخوه الأكبر أن المنْزل الذي أقام فيه عيادته قد تم شراؤه وتجهيزه بأموال كان هو قد دفعها، وطلب

منه أن يكتب له إقرارا بذلك. وقد استجاب لطلب أخيه على الفور وبكل سرور، ولكي يطمئنه أكثر أمر مساعديه أن يقوموا بنقل جميع أدواته ومعداته إلى غرفة متصله بأحد المساجد، فقام هؤلاء بتنفيذ أوامره. ولما علمت والدته بانتقاله من المنْزل قالت له إن أخيه لم يكن يقصد أن يخلي المنْزل وينتقل منه، وحاولت أن تشرح له خلفية الموضوع، ولكنه كان قد أخلى المنْزل وانتقل بالفعل.

* * *

وعندما وجد قطعة من الأرض تصلح لعيادته، طلب من أحد البنائين أن يبني له بناء مناسبا، وسأل صديقا هندوسيا أن يمده بالمال اللازم للبناء. كانت قطعة الأرض هذه تخص بلدية "بهيرة"، فلما بدأ البناء عليها تلقى رسالة من الشخص المسؤول عن تحصيل رسوم البناء تُفيد أنه من غير المسموح به إقامة أي بناء على هذه الأرض التي تمتلكها البلدية، خاصة وأنه لم يقدم للبلدية طلبا للبناء، ولم تُصدر البلدية موافقتها على أي طلب. وأضاف المسؤول قائلا إنه احتراما لمكانة حضرة الحكيم لن يتقدم باعتراض رسمي، وكذلك لن يتقدم أعضاء المجلس البلدي باعتراض رسمي لنفس السبب، ولكن الأمر قد وصل إلى رئيس اللجنة، وكان أيضا نائبا لرئيس البلدية، وبهذه الصفة فإنه من المحتم أن يصدر أمرا بإزالة المبنى. وتوقع مقاول البناء نفس الشيء، ولكن حضرة الحكيم قال له أن يستمر في العمل. ولما قُدم التقرير لنائب رئيس البلدية أعرب عن أنه سوف ينتهز فرصة مناسبة ويزور الموقع بنفسه لتقدير ما ينبغي أن يُتخذ من إجراءات.

وجاء نائب رئيس البلدية، وأصدر أوامره بوقف البناء إلى حين البت في الأمر بقرار نهائي. وفي الوقت الذي جاء فيه المولوي نور الدين لمقابلة نائب رئيس البلدية، كان الأخير قد غادر الموقع، ولكنه عاد مرة أخرى عندما أخبروه بمقدم حكيم المحترم، فسأله قائلا:

- ألا تعلم أن هذه الأرض تعتبر مِلكا عاما؟
- نعم أعلم ذلك؛ ولكن المدينة بأكملها تعتبر ملكا عاما.
- كيف هذا؟
- إذا أرادت الحكومة أن تقيم ثكنات الجيش في أي مكان من المدينة، فهل يمكن لأحد أن يعترض على ذلك؟
- بالطبع لا.
- على هذا تكون المدينة بأكملها ملكا عاما.

وبدون أي تعليق آخر سأله نائب رئيس البلدية:

- ما هي مساحة الموقع الذي تريده لكي يفي بالغرض الذي تفكر فيه؟
- إنني أحتاج إلى هذا الموقع بأكمله الذي بين الطريق العام والشارع.

والتفت نائب رئيس البلدية إلى المسؤول عن تحصيل رسوم البناء وإلى أعضاء المجلس البلدي وسألهم قائلا: هل لديكم أي اعتراض؟

فقالوا: إن هذا المبنى سوف يُستخدم لنفع الجمهور بشكل عام، فلا اعتراض لدينا.

وأصدر نائب رئيس البلدية أوامره أن يتم تحديد تلك البقعة من الأرض بواسطة خوابير تُدق في الأرض، وبعد أن تم تنفيذ أوامره غادر الموقع.

وعلق المسؤول عن تحصيل الرسوم للمولوي نور الدين فقال:

- إن نائب رئيس البلدية ليس لديه سلطة التنازل عن الأرض العامة بهذا الشكل.

وعاد نائب رئيس البلدية بعد أن كان قد ابتعد لمسافة طويلة، وقال للمولوي نور الدين:

- لقد لاحظت أن هناك مياها من البالوعات تجري مكشوفة بجانب الشارع، وسوف تكون هذه مصدر إزعاج لك.
- إنك يا سيدي رجل حصيف، فربما تستطيع أن تقترح ما ينبغي عمله.
- إنني أرى أنه ينبغي على البلدية أن تبني حائطا مجاورا لبنائك على هذا الجانب.

ثم التفت إلى أعضاء المجلس البلدي وسألهم قائلا: هل لديكم اعتراض؟ ولما لم يبد أحد اعتراضا قال للمولوي نور الدين:

- إذن فقد تقرر الأمر، وتستطيع أن تستأنف العمل في بنائك.

وبعد مغادرته، تمتم أحد أعضاء المجلس البلدي قائلا:

- إن هذا إجراء غريب حقا، فإن المجلس البلدي لم يخسر فقط قطعة ثمينة من الأرض، وإنما تورّط أيضا في دفع نفقات بناء حائط سوف يتكلف ألف روبية.

فعلق المولوي نور الدين قائلا:

- إن هذه الأمور تفوق إدراككم.

* * *

بلغت تكاليف البناء ألفا ومئتي روبية، وكان يفكر في كيفية سداد هذا المبلغ حين جاءه صديقه "ملك فتح خان" في أحد الأيام، وأخبره أنه في طريقه إلى روالبندي لحضور ديوان حالكم المحافظة، وأن ديوان نائب الملك سوف يُعقد في دلهي في نفس الوقت. وقد أعرب المولوي نور الدين عن رغبته في أن يذهب بصحبته، فدعاه لكي يركب معه، وامتطى مهرا على الفور وذهب معه كما هو تاركا مرضاه وبدون أن يخبر زوجته. وفي مدينة "جهلم" استقل مالك فتح خان القطار إلى روالبندي، بينما قرر المولوي نور الدين أن يذهب إلى دلهي. وكان في حاجة إلى تغيير ملابسه، فاقترض معطفا وعمامة وشروالا من ملك حكيم خان المحصل، ثم يمم شطر محطة القطار وهو يمشي الهوينى ليستقل القطار إلى لاهور. وقد وجد أن تذكرة الدرجة الثالثة من جهلم إلى لاهور تكلف خمس عشرة آنة، ولما وضع يده في جيب المعطف الذي اقترضه اكتشف وجود خمس عشرة آنة بالضبط. وقد أخذه هذا إلى لاهور حيث كانت محطة القطار مكتظة بالركاب الذين يبتغون السفر إلى دلهي لحضور الداربار. ولم يكن معه نقود، وحتى لو كان يملك نقودا، فإن الجمهور الذي يزحم المحطة جعل من المستحيل عليه أن يقترب من مكتب حجز التذاكر. وفي تلك الأثناء دنا منه القس "جلوك ناث"، وكان يعرفه، ولما علم أنه ينوي الذهاب إلى دلهي، ذهب واشترى له تذكرة للسفر. ولما

رآه يضع يديه في جيبه ظن أنه يريد أن يدفع له ثمن التذكرة، غير أن الرجل الكريم اعترض وقال إنه لن يقبل ثمن التذكرة.

وصل إلى دلهي بعد ظهر ذلك اليوم، وقادته رغبته في الاستطلاع إلى خارج المدينة في اتجاه مكان إقامة الرؤساء الحكام. وبعد أن سار لعدة أميال لاحظ أن الشمس بدأت تميل للمغيب، ففكر أن يعود أدراجه إلى المدينة، وحينئذ جاءه أحد العاملين لدى مُنشي جمال الدين من بهوبال وهو يجري خلفه، وأخبره أن المنشي قد رآه وهو يمشي على الطريق فأرسله ليحضره إليه. فقال إن الوقت قد تأخر وأنه سيكون سعيدا أن يزور المنشي في الصباح؛ غير أن الرجل أصر قائلا إن مكان إقامة حضرة المنشي قريب للغاية، وأن عليه أن يقدم إليه اعتذاره بنفسه. وقد استقبله المنشي بالترحيب الكريم المعتاد، وقال له إن حفيده ابن بنته محمد عمر مريض، ورجاه أن يراه. فقال إنه سوف يعود في الصباح للكشف على المريض، ولكن لامنشي أصر عليه أن يقضي الليل عنده، وأمر أن تقام له خيمة قضى فيها ليلة مريحة. ولما كان اليوم التالي هو يوم الجمعة، فقد أمر المنشي أن تُعد له حُلة جديدة خلال الليل.

وفي اليوم التالي بعد أداء صلاة الجمعة، أخذه المنشي في عربته وعرض عليه أن يأخذه إلى مكان إقامته لإحضار متاعه، وسأله عن عنوان محل إقامته. فأشار إلى حارة ضيقة لا تستطيع العربة أن تدخلها. فأرسل معه المنشي اثنين من مساعديه لإحضار متاعه. ولما وجد نفسه في صحبة الرجلين دلف معهما في الحارة الضيقة، وظل ماشيا كأنه كان يقصد مكانا معينا، إلى أن وجد مبنى يدخل فيه الناس ويخرجون بحرية، فدخل هو أيضا. ولما وجد أن معظم الناس يصعدون إلى الطابق الأول، طلب

من صاحبيه أن ينتظراه أسفل المبنى، بينما صعد هو على الدرَج إلى الطابق الأول. و لم تكن لديه أي فكرة عن المكان الذي كان فيه، ولكنه كان يشعر بأنه مدفوع بإحساس ينبع من داخله، وكان هو يستجيب له. وبين الجموع الموجودة في ذلك الطابق تعرف على المولوي "عبيد الله" مؤلف كتاب "تحفة الهند". وقد بدا عليه السرور البالغ لرؤيته، فقال له:

- إن مجيئك قد أتاح فرصة طيبة، إذ يوجد لديّ هنا مجموعة من الشباب الذين دخلوا حديثا في الإسلام، وأنا شغوف أن أجد لهم مكانا للإقامة، فهل يمكن أن تأخذهم وتبحث لهم عن مكان مناسب لإقامتهم؟

فأجاب بأن سيكون سعيدا لأن يفعل هذا. وجاء مساعدا المنشي وحملا جميع متاعهم، وذهبوا جميعا إلى مكان إقامة حضرة المنشي.

وبعد الكشف على المريض محمد عمر، تبين أنه يعاني من ورم سوف يستغرف وقتا طويلا في العلاج. وقد حثّه المنشي على أن يذهب معه إلى بهوبال، ولكنه أخبره بأنه ترك بيته على حين فجأة وأنه لا يستطيع أن يظل بعيدا لمدة طويلة. فأعطاه المنشي خمسمئة روبية ليبعث بها إلى بيته، وأصر عليه أن يذهب معه إلى بهوبال. فأرسل المبلغ إلى صديقه الهندوسي الذي كان قد اقترض منه مبلغ البناء، وكتب إلى زوجته مطمئنا إياها بألا تقلق عليه. وبعد بضعة أيام أعطاه المنشي سبعمئة روبية أخرى، فبعث بها أيضا إلى دائنه الهندوسي. وبعد أن تم له سداد الديْن الذي

عليه، شعر براحة خلصته من جميع ما كان يشعر به من قلق لسداد ديْنه، ولذلك قبِل مُرحّبا أن يذهب إلى بهوبال مع المنشي.

وفي بهوبال أيضا كان عليه أن يواجه الغيرة والخداع، وفي وقت عصيب للغاية تلقى عونا من بير علي أحمد مجددي، الذي تلقى منه الكثير من الأيادي في الفترة الأولى من إقامته في بهوبال. وأخيرا تعافى محمد عمر واسترد صحته، وآن لطبيبه أن يعود إلى "بهيرة".

* * *

بدأ عمله في الطب يزدهر، وشاعت براعته ومهارته في العلاج، غير أن هذا تسبب أيضا في شعور الغيرة والحسد لدى بعض الأطباء الآخرين. وقد أصيب مريض على جانب كبير من الثراء بحمى التيفوئيد، فعالجه بمنتهى العناية، وبملاحظته لتطور الحمى، شعر في اليوم السابع من العلاج بأن تغييرا نحو الأفضل قد أصبح محتما. وظهرت أعراض التغيير نحو الأفضل في المساء مما جعله أكثر تفاؤلا، غير أن عائلة المريض وقد أصابها القلق البالغ، بعثت لاستدعاء أحد الأطباء من بلدة "بند دادان خان"، وقد وصل متأخرا في الليل. وعلى الفور قام بتقدير الموقف وأعلن أن المريض ليس في حاجة إلى أي علاج آخر لأنه قد أحضر معه العلاج المناسب له. وأخرج مسحوقا قدمه له مع محلول، وهو يبتسم بخبث كلما نظر إلى الحكيم نور الدين. وتحسن المريض في اليوم التالي كما كان يتوقع طبيبه نور الدين، غير أن الفضل في شفائه ذهب إلى الطبيب الخارجي، وتلقى نور الدين الخزي في عيون العائلة التي دفعت بكل ترحاب المبلغ الكبير من المال الذي طلبه الطبيب الخارجي.

كان "ملك فتح خان" الذي بلغ العقد التاسع من عمره صديقا للحكيم نور الدين، الذي كان يحبه كثيرا وتلقى منه الكثير من الخدمات والأفضال، غير أنه كان بلا ذرية. وقد حثّه الحكيم نور الدين على أن يتزوج، ولكنه اعترض محتجا بأنه قد تجاوز سن الزواج، فشجعه نور الدين وأعدّ له مُركّبا يتكون من الزرنيخ والزئبق والأفيون، وكان له تأثير فعّال حتى إنه بعد أن تزوج إذعانا لنصيحة صديقه رزقه الله تعالى بابنة في غضون عام من زواجه، وفي العام التالي رزقه الله بصبي. وقد توقع نور الدين أن يتلقى من صديقه هبة سخية. ورغم أن الأب السعيد كان شديد الامتنان لصديقه وزادت بينهما روابط الصداقة قوة، إلا أن توقعاته لم تتحقق. وقد أكدت هذه الأحداث إيمانه العميق بأن الله تعالى وحده هو مصدر كل فضل، وأن آمال المرء ينبغي ألا ترتكز على البشر الفانين. وكان على قناعة بأن الله عز وجل سوف يتولى بعد ذلك أن يرزقه من فضله، ولذلك فقد عزم على أنه في المستقبل لن يقدّم لأحد أي نصيحة، ولا يصف لأحد أي دواء مقابل أجر أو من أجل المال. وقد فتح هذا أبواب الازدهار واسعة أمامه.

في تلك الأيام كان شغوفا بقراءة كتاب ابن خلدون في التاريخ. وعرض عليه أحد باعة الكتب أن يبيعه الكتاب نظير سبعين روبية، فأخبره بأنه لا يستطيع أن يدفع له المبلغ بأكمله نقدا، ولكنه مستعد أن يدفعه له على دفعات، فلم يوافق بائع الكتب. وعندما عاد إلى عيادته بعد ظهر نفس ذلك اليوم، وجد الكتاب على مكتبه. ولم تفلح تحرياته التي قام بها عن كشف شخصية من وضع الكتاب على مكتبه. وفي أحد

الأيام أخبره واحد من مرضاه أنه رأى رجلا من السيخ يضع الكتاب على مكتبه، ولكنه قال إنه لا يعرف اسمه ولكنه يستطيع أن يتعرّف عليه. وبعد بضعة أيام أحضر مريضه إليه ذلك الرجل السيخي الذي قال بأنه قد سمع ما وقع مع بائع الكتب، فاشترى منه الكتاب على الفور ووضعه على مكتبه. وذكر أن صاحب العمل الذي يعمل لديه قد دفع له ثمن الكتاب، وأنه كان قد أوصاه أن يعمل على تلبية كل ما يطلبه المولوي نور الدين على حسابه الخاص. وفي ذلك الوقت كان قد توفر لديه مبلغ سبعون روبية، فأرسل المبلغ إلى ذلك الشخص المحسن. غير أنه شعر بالإهانة لذلك فاشتكى للشقيق الأكبر لنور الدين، وقد استرد الشقيق منه المال ووعد بأن يقوم بتوجيه العتاب لأخيه.

وحول ذلك الوقت، جاءته دعوة لعلاج حالة فريدة من الشلل لا يذكر أنه قد رأى لها مثيلا مسبقا. فاسترجع المبادئ الأساسية للعلاج وابتكر أسلوبا جديدا في علاج هذه الحالة حتى إن المريض بدأ يشعر بالتحسن، ومع مرور الوقت اكتمل له الشفاء التام. وقد شاعت هذه الواقعة وتكلم الناس كثيرا عن ذلك العلاج الفريد مما أدى إلى ازدهار عمله وتقدمه.

* * *

وقد حدث أنه علم عن أرملة كانت ظروفها متوافقة بشكل شعر معه أنها من الممكن أن تصلح لتكون زوجا له. وأبدى لها رغبته، فعبرت له عن موافقتها، ولكنها كانت متخوّفة لأنه لم يكن يُنظر بعين الرضا إلى زواج الأرامل، فكانت تخشى أن وليها لن يوافق على هذا الزواج وبالتالي يمتنع عن تأييده لها. واقترحت أن يُعقد الزواج الرسمي، فلعل هذا

يقنع وليها بالموافقة على زواجها. وقد اعتبر المولوي نور الدين أن الاعتراض على زواج الأرامل أمر يخالف تعاليم الإسلام، وعلى هذا تمت المراسم الرسمية للزواج بشرط أن يتحقق الزواج بعد أن يتغير موقف ولي الزوجة.

وقد حدث في تلك الأيام أن شاهد المولوي نور الدين رسول الله ﷺ في رؤيا، وكان حليقا ويبدو لونه شاحبا. وقد فسر هذه الرؤيا بأنها تعني أن إجراء المراسم الرسمية للزواج في هذه الحالة أمر يتعارض مع سنة الرسول ﷺ. ولكن لكي يتأكد من حقيقة الأمر، كتب إلى ميان نذير حسين في دلهي، والمولوي محمد حسين البطالوي، شارحا حقائق الأمر وطالبا الرأي والنصيحة. وقد تلقى ردا من أحدهما فقط، قائلا إن الأرملة تستطيع أن تستغني عن وليها وتتزوج بغير موافقته. وأضاف قائلا إن الحديث الذي ينص على أنه لا زواج إلا بوليّ حديث ضعيف. وقد اتفقت هذه الإجابة مع رغباته، فاتخذ الخطوات اللازمة لإحضار العروس إلى البيت. وخرج من بيته من أجل تحقيق هذا الغرض، وعند وصوله إلى بوابة البيت قابل شخصا يحمل في يده كتابا من كتب الحديث، فطلب منه ذلك الشخص أن يشرح له معنى الحديث الذي يشير إلى أن الأمر الذي يثير شبهة المرء يعتبر محرّما حتى ولو أفتى المفتون بصحته. وقد أصابه الذهول، فأرجأ الإجابة على سائله. واستولى عليه شعور يقيني بأن الله تعالى قد اختار هذه الطريقة ليحذره كي لا يعطي وزنا لرأي المفتين، فأغلق بوابة البيت وعاد أدراجه إلى غرفته وهو يتدبر الموقف برمته، وراح يفكر في الحديث المشكوك في صحته، الذي لا

يؤيد المفتون الأخذ به. وبعد برهة شعر برغبة في النوم، فاستلقى على سريره وسرعان ما غلبه النعاس، فشاهد الرسول ﷺ مرة أخرى، وكان يبدو وكأنه في حوالي الخامسة والعشرين من العمر، وكانت لحيته تبدو مقصوصة الشعر على الجانب الأيسر، بينما تبدو كثيفة وكاملة على الجانب الأيمن. وخطر على باله كم يكون شكل النبي ﷺ جميلا لو أن لحيته توافقت على الجانبين. وشعر أن الحالة التي رأى عليها لحية الرسول ﷺ تعبر عن شكه في صحة الحديث، وعلى الفور قرر في نفسه أن يقبل صحة هذا الحديث حتى ولو قال الناس جميعا إنه ضعيف ومشكوك في صحته. وفي الحال توافقت لحية الرسول ﷺ على الجانبين، وضحك وسأله قائلا: هل تريد أن ترى كشمير؟ فأجاب قائلا: نعم بالحق يا رسول الله؛ فبدآ رحلتهما معا إلى كشمير عن طريق بنّيهال. وكانت هذه الرؤيا إشارة على أنه سوف يترك بهيرة ويذهب إلى كشمير.

وقد حدث أن "لالا متهرا داس"، وكان جارا له في بهيرة ويعمل ضابطا في شرطة ولاية جامون وكشمير، بدأ يشتكي من مرض السل، وجاء إليه للعلاج. وقد تعافى بسرعة بعد العلاج. وحول ذلك الوقت كان ديوان كيربا رام، رئيس وزراء الولاية، يمر في بلدة "بند دادان خان"، فسمع عن الشهرة الواسعة للحكيم نور الدين، فذكر الأمر لمهراجا كشمير. وعلى هذا تم تعيينه ليكون الطبيب النائب للمهراجا.

الفصل السادس

طبيب المهراجا

كان رئيس الأطباء للمهراجا هو الحكيم "فدا محمد خان"، وقد تقاعد بعد فترة قصيرة، وتقلد الحكيم نور الدين منصبه كرئيس لأطباء المهراجا. وفي هذا المنصب أصبح كذلك المسؤول عن جميع المستشفيات في الولاية. كان عمره آنذاك خمسة وثلاثين عاما، وتقلد منصب رئيس أطباء المهراجا لمدة خمسة عشر عاما.

لم تكن تجاربه الأولى في الولاية تبعث على الارتياح، فقد وجد الجو مشبعا بالخداع، وشعر بأن عليه أن يخطو بحذر شديد. وكان هناك ضابطان كبيران لم يبذلا أي جهد في إخفاء حقدهما عليه.

وقد استأجر شقة متواضعة لسكناه كان موقعها مناسبا، وكانت من أملاك الولاية. وكان البعض قد حذّره بأن المسؤول عن عقارات الولاية كان رجلا متقدما في السن، وغير موثوق فيه، ولذلك يتحتم عليه أن يحصل منه على عقد مسجل. وبالفعل أخذ بالنصيحة وطلب عقدا مسجلا بإيجار العين لمدة عام، وبعدها انتقل للإقامة فيها. و لم تمض بضعة أيام حتى زاره المسؤول عن عقارات الولاية وطلب منه إخلاء العين لأن شخصا آخر عرض أن يدفع ضعف الإيجار الذي يدفعه هو. فذكّره الحكيم نور الدين بعقد الإيجار المسجل، ولكن الرجل نحّاه جانبا ضاحكا وأخبره بأنه غير ذي قيمة، وأصر على إخلاء العين. وهكذا اضطر صاحب العقد عديم القيمة أن يدفع ضعف القيمة المنصوص عليها في

العقد. غير أن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فسرعان ما عاد مسؤول العقارات طالبا إخلاء العين زاعما أن شخصا آخر عرض تأجير العين نظير أن يدفع أربعة أضعاف قيمة الإيجار المذكور في العقد. واستسلم الحكيم نور الدين لهذا الابتزاز، وأعرب عن استعداده لدفع المبلغ الإضافي. ولكن هذا لم ينجح سوى في إثارة شهية مسؤول العقارات الذي عاد بعد يوم أو يومين زاعما أنه قد عُرِض عليه مبلغا يصل إلى اثني عشر ضعفا لقيمة إيجار العين. وقد أصيب المستأجر بالإحباط وعزم على مغادرة ذلك المكان الذي تعاني فيه الأمانة والشرف أشد المعاناة. وأمر خادمه أن يجمع كل متاعه وينقل كل شيء إلى الأسفل استعدادا للرحيل.

وبينما كان متاعه في أكوام على قارعة الطريق، حدث أن مر أحد وجهاء البلدة واسمه الشيخ فتح محمد، فاستفسر الخادمَ عن صاحب هذا المتاع، وفي تلك اللحظة حضر صاحب المتاع وقال إنه سوف يغادر البلد.

- ولكنك لم تمكث هنا سوى فترة قصيرة، فلماذا تريد أن تغادر بهذه السرعة؟
- لأنني لا أريد أن أعيش في مكان لا قيمة فيه للشرف.

واستنتج الشيخ فتح محمد ما حدث فقال:

- إن مسؤول العقارات معروف بالتحايل والخداع. إنني أرجوك أن تأتي لتقيم معي.

- إنني ممنون لك يا سيدي، ولكني لا أرغب في البقاء في هذا المكان.

- لا لا، أنا لن أقبل رفضك هذا.

وأمر مساعديه أن يحملوا متاع الطبيب إلى منْزله، وحينئذ حاول الحكيم نور الدين أن يثنيه عن عزمه وأن يتركه ليرحل، مشيرا إلى أن حفاوته هذه سوف تؤدي به إلى الكثير من المتاعب، حيث يوجد ضابطان من ضباط الولاية من ذوي الرتب العليا يناصبانه العداء الشديد. ولكن الرجل لم يهتم بهذا أبدا كما لو أنه كان أمرا لا قيمة له. وهكذا اتخذ طبيب المهراجا مقامه مع الشيخ فتح محمد. وقد بقي معه لمدة عشر سنوات كان يتمتع فيها بالراحة الكاملة. ولم يكن مضيفه وحده يسهر على راحته، وإنما كان جميع أفراد العائلة يتسابقون مع بعضهم البعض على توفير الراحة له وتلبية جميع طلباته. ولم يشعر أبدا، لا هو ولا الطلبة الذين كانوا يتوافدون عليه، بأن شيئا ينقصهم أو أنهم يحتاجون إلى شيء. حقا لقد كان هذا القلب الكبير شيئا نادرا، وحقا كان ذلك المضيف النبيل جديرا بضيفه العظيم. وإن كان في المدينة بعض العيّنات التي تمثل الغدر والخيانة من أمثال مسؤول العقارات، فقد كان هناك أيضا الشيخ فتح محمد وأفراد عائلته.

كانت المهارة التي أبداها الحكيم نور الدين في علاج بعض الحالات المرَضية قد ذاع ذكرها مما أكسبه شهرة واسعة كطبيب. فقد مرضت ابنة ميان لال دين، وكان أحد الأثرياء ومن أشراف مدينة جامّون، وكانت تشكو من الدوسنطاريا، ورغم كل المجهودات التي بذلها الأطباء الذين استحضرهم والدها، فإن حالتها قد ساءت واستمرت في

تدهورها. وكان الوالد لا يوافق على بعض الآراء الدينية للحكيم نور الدين، ولذلك لم يستعن به ولم يستشره. ولكن لما تطورت حالة ابنته المرضية وأصبحت تنذر بالسوء، توسل إليه أن يأتي ويتولى علاجها. واسترجع الحكيم نور الدين معلوماته عن "الألوباثي"، وبناء على ذلك وصف لها دواء. وعلى الفور استجابت الفتاة بشكل حسن، وشُفيت تماما خلال يومين أو ثلاثة. وتعبيرا عن شكره وامتنانه قدم الأب رداء شرف للحكيم نور الدين، كما قدم له أيضا مُهرا يرقنديا بكامل سرجه.

وأرسل في طلبه أحد الموظفين الكبار في إدارة الرسوم الجمركية خلال الليل، لأنه كان يعاني من ألم شديد بسبب التهاب القولون، فأعطاه الحكيم مُركّبا أزال آلامه بسرعة.

وحدث أن تفشّت الكوليرا بشكل وبائي في الولاية. وانتقل مهراجا كشمير إلى قلعة باهو لتغيير الجو. وكان على الحكيم نور الدين أن يسهر على راحته العلاجية. وكان "راجا موتي سنغ" ينتمي بصلة قرابة للمهراجا، وكان أيضا ضمن قافلة المهراجا، وقد بدأ يعاني من دوسنطاريا حادة، فعالجه الطبيب الملكي بنجاح، مما أدى إلى تقوية أواصر الصداقة بينهما، فقدم له مبلغا كبيرا من المال، واستمر يكرر هذه العطية لعدة سنوات. ولم تكن العلاقة على أفضل ما يرام بين المهراجا وراجا موتي سنغ، ثم حدث أن اقترب موعد عقد زواج أحد الأمراء أبناء المهراجا، فاستشار راجا موطي سنغ صديقه الحكيم نور الدين فيما إذا كان ينبغي عليه أن يحضر حفل الزواج أو لا يحضر، فنصحه الطبيب أن يحضر الحفل، قائلا إن هذا قد يؤدي إلى تحسين العلاقات بينه وبين

المهراجا. كان من المقرر أن يكون حفل الزواج حدثا مشهودا، وعندما أعلن راجا موتي سنغ عن عزمه حضور الحفل، أبدى المهراجا سروره البالغ لذلك، وقد أدى هذا إلى عودة المياه إلى مجاريها بينهما.

* * *

كانت الرحلة لحضور حفل الزواج رحلة ملكية، وكان من المتوقع أن تستمر لمدة شهر. وكان من المقرر أن يسافر الحكيم نور الدين على ظهر أحد الأفيال يحمل هودجا يتسع لشخصين. ولكن زنبركا لم يكن قد تم تثبيته كان يحتك بجسمه مما جعله يقضي المرحلة الأولى من الرحلة في تعب شديد. وخلال المرحلة الثانية من الرحلة عانى بشدة، حتى إنه شعر بأنه لن يستطيع أن يستأنف الرحلة في اليوم التالي. كان الوقت قد تأخر في الليل، ولما كان قد أصيب بخرّاج من جرّاء ذلك فقد أرسل في طلب الجراح الذي كان يسافر مع القافلة الملكية، وطلب إليه أن يفتح الخراج وينظفه. وتردد الجراح باعتبار أنه كان قد جمع أدواته وأعاد تحزيمها ولن يستطيع أن يجري هذه الجراحة إلا في الصباح. ولكن إزاء إصرار الحكيم نور الدين، استعمل الجراح مطواة فتح بها الخراج بغلظة، ثم قام بتنظيف القيح. وفي الصباح بدأت أطراف الجرح تلتئم وبدا أن الجرح في طريقه للشفاء. وشعر الحكيم نور الدين أنه يستطيع أن يمتطي حصانا إذا حرص على ألا يضغط بشدة على الجزء المجروح؛ ولكنه لم يكد يقطع سوى بضعة أميال حتى عاد الألم بشكل غير محتمل. فترجّل من على الحصان، وانتظر أن يمر به أحد ممن يمكن لهم أن يساعدوه. وحدث أن مرّ عليه الأمير ولي العهد ممتطيا صهوة حصانه، فحياه وسأله عن سبب توقفه. فشرح له ما ألمّ به وأخبره أنه لا يستطيع أن يمتطي صهوة حصانه،

فأعرب الأمير عن أسفه، وقال إن عليه أن يحاول الوصول إلى المرحلة التالية التي تبعد حوالي ميلين أو ثلاثة حيث ستكون جميع الترتيبات قد أعدّت، ثم مضى في طريقه. وتكرر هذا المشهد مع أميرين آخرين، كان أحدهما صديقا حميما للحكيم نور الدين، كما تكرر مع راجا موتي سنغ الذي عبر عن حزنه وتأثره بما أصاب الحكيم نور الدين بكلمات رقيقة تفيض مودة ومحبة. وأخيرا مرّ عليه مدير المعسكر وتم تبادل نفس الحوار. وشعر الحكيم نور الدين أن هذه هي نهاية الإمكانات البشرية، وأنه كان من الخطأ أن يتوقع المساعدة من البشر، فالمعونة الحقيقية سوف تأتي فقط من لدن الله تعالى.

ولم ينتظر طويلا، إذ سرعان ما وصل ديوان لجهمن داس، وكان يشغل منصبا عسكريا، فلما رآه ترجل على الفور وسأله قائلا: ما الذي حدث؟

- إنني أصبت بخرّاج أعاقني عن الركوب، ولكن يمكنك أن تستمر في طريقك.
- وكيف أتركك هكذا وأنت في هذه الحالة؟

وجلس بجواره وانخرط الاثنان في حديث بينهما، ثم أقبلت محفته، فراح يتكلم مع رجاله، وأعطاهم التعليمات اللازمة، ثم ركب حصانه وانصرف. وأتى الرجال بالمحفة إلى الحكيم نور الدين وطلبوا منه أن يدلف فيها قائلين إنها سوف تكون تحت تصرفه إلى حين عودته إلى جامون. وقد وجد المحفة مجهزة بكافة اللوازم، واستلقى فيها بكل راحة. ولكي يتوجه بواجب الشكر لله تعالى بدأ يتلو القرآن المجيد. وقد شُفي

جرحه بسرعة، فأراد أن يستغني عن المحفة، ولكن الرجال أعادوا قولهم بأن التعليمات التي لديهم هي أن تظل المحفة تحت أمره إلى حين عودة القافلة كلها إلى جامون.

وخلال الشهر الذي استغرقته الرحلة، استطاع أن يحفظ نصف القرآن المجيد تقريبا. وحيث إنه بدأ عملية حفظ القرآن فقد استمر فيها إلى أن أتم حفظ القرآن بأكمله. وهكذا فإن المولوي، والحكيم، والحاج نور الدين، أصبح أيضا الحافظ نور الدين.

وعندما رجع إلى جامون عائدا من رحلة الزواج الملكي، شكر حاملي المحفة لعنايتهم به، وأراد أن يمنحهم مبلغا مناسبا من المال؛ ولكنهم رفضوا قبول شيء قائلين إن ديوان المحترم أعطاهم من المال ما يلزم لكل نفقاتهم ويزيد، ونبّه عليهم ألا يقبلوا أي أجر منه. وحاول أن يقنعهم بقبول ما يقدمه لهم قائلا إنه ليس هناك ما يستدعي أن يعرف ديوان المحترم شيئا عن الأمر، ولكنهم أحضروا مبلغا كبيرا من المال ووضعوه أمامه وقالوا له: لقد أنفقنا كل ما أنفقنا ومع هذا فكل هذا المال قد تبقى، ونحن نرجوك أن تأخذ هذا المبلغ لأننا لا نجرؤ على أن نرده إليه. وقد تأثر تأثيرا عميقا لإحساسهم بالإخلاص نحو سيدهم، وتفانيهم في أداء الواجب، مع شعورهم بالكرامة. وقد تلقى فيما بعد الكثير من الخدمات من ديوان لجهمن داس.

وحدث بعد ذلك أن تم تعيين ديوان لجهمن داس رئيسا للوزراء في الولاية. وكان شغوفا بلغة البشتو، فكان كل مساعديه من الباتهان الذين يتكلمون لغة البشتو. وأصدر أوامره بألا يزوره أحد في محل إقامته، وإن جاء أحد طالبا مقابلته في محل إقامته، فينبغي على الحراس البشتون أن

يمنعوه ويردوه بدون ترحيب. وفي إحدى الأمسيات كان الحكيم نور الدين في ضيافة الشيخ فتح محمد، فذكر له أن لديه بعض الأعمال الهامة مع رئيس الوزراء، فحثه ضيفه على أن يذهب على الفور لمقابلته في محل إقامته، فأعرب عن عدم تمكنه من فعل ذلك بسبب الحراس البشتون. فقال الحكيم نور الدين إنه سوف يكتب في الحال رسالة إلى رئيس الوزراء، فحاول المضيف أن يثنيه عن عزمه، ولكنه تناول قلما وورقة وكتب ما يلي:

> لقد سمعت أنك وضعت حرسا شديدا على محل إقامتك وكلفتهم برد من يأتي لمقابلتك. والناس في هذه الولاية معتادون على مقابلة كبار رجال الولاية في محال إقامتهم. فالرجاء أن تخصص حجرة واسعة وتفرشها ببساط إيراني لراحة زوارك، ثم تستقبل منهم من تشاء في الوقت الذي يناسبك، كما لك أن ترفض مقابلة من لا ترغب في مقابلته. ولكنه لا يليق بكرامتك أن يرد حراسك البشتون جميع زوارك بدون أي ترحيب.

وتم إرسال الرسالة على الفور، وبعد فترة قصيرة جاء السكرتير الخاص لدوان المحترم وهو يحمل مصباحا، وقال للحكيم نور الدين إن دوان المحترم قد أرسله لإحضاره. وتوقع الشيخ فتح محمد الخطر من هذا الاستدعاء المفاجئ، فنصحه بعدم الذهاب في تلك الساعة المتأخرة؛ ولكنه ذهب. ولم يجد أحدا من الحراس في الخارج. واستقبله دوان المحترم بترحاب كبير وقال:

- لعلك لاحظت عدم وجود حراس في الخارج، فقد صرفتهم جميعا. وقد أفردت هذه الغرفة وفرشتها ببساط إيراني وخصصتها لاستقبال الزوار.

وشكره زائره لهذه الاستجابة السريعة لاقتراحه، فرد عليه قائلا:

- هناك حاجة في هذه الولاية لوجود رجال مثلك يقولون ما يؤمنون به بشكل مباشر. إنني أحمل لك عظيم التقدير، وفيما بعد لن يُرَدّ أحد من الزوّار، وأما أنت فلا توجد بالنسبة لك أي قيود، وتستطيع أن تأتي إليّ في أي وقت تشاء.

* * *

لم تكن أنشطته في الولاية موقوفة على الحقل الطبي، فقد كان خادما مخلصا من خَدَمة الإسلام، وكان ينتهز كل فرصة ليزيل عن الإسلام بعض الأفكار الخاطئة التي كانت شائعة بين الوزراء وكبار رجال الولاية. وفي إحدى المناسبات أخبره حاكم جامون، البانديت راند كريشان، أن بعض الاعتراضات التي أثارها البانديت ليكهرام لا يمكن الرد عليها. فسأل الحاكم أن يذكر ما يظنه من أقوى هذه الاعتراضات. فذكر الحاكم أنه قد تم حرق مكتبة الإسكندرية الشهيرة بتعليمات من عمر بن الخطاب الخليفة الثاني للرسول ﷺ. فسأله الحكيم نور الدين أن يذكر أحسن مرجع تاريخي يؤرخ للفترة الأولى من الإسلام، فذكر الحاكم كتاب "جيبون" واسمه "انحطاط وسقوط الإمبراطورية الرومانية"، فأرسلوا في طلب الكتاب. ولفت الحكيم نور الدين نظر الحاكم إلى ما ذكره الكتاب عن كيفية تدمير مكتبة الإسكندرية، وكيف أن عمر بن الخطاب لم يكن له أي دخل بهذا الأمر. وقد شعر الحاكم بالحرج وعلق

على هذا قائلا: حيث إننا قد نشأنا في مجتمع يسوده العداء للإسلام، فإننا نميل دائما إلى قبول كل ما فيه نقد للإسلام.

كذلك كان الحكيم نور الدين يقوم بإعطاء دروس في القرآن الكريم للحرس الخاص للمهراجا، وقد عبروا عن امتنانهم الكبير لذلك. وقد تعلم شقيق المهراجا راجا أمر سنغ القرآن الكريم منه، وكان ينظر إليه باحترام بالغ. بل إن المهراجا نفسه تعلم منه ما يقرب من نصف ترجمة معاني القرآن الكريم.

وقد وصل في ممارسة مهنته إلى شهرة واسعة، وكانت الحالات التي عالجها وحقق فيها الشفاء للمرضى رائعة بحق، ولكنه لم يُرجع أبدا الفضل في ذلك إلى نفسه، فقد كان على وعي دائما بأن لا شيء يمكن أن يتحقق إلا من خلال فضل الله تعالى ورحمته، وأنه باعتباره مجرد مخلوق من مخلوقات الله تعالى ينبغي عليه أن يظل دائما على حذر كي لا يثير عليه غيرة الله تعالى، سواء كان ذلك بنطق كلمة أو بأداء عمل، فيجلب على نفسه غضب الله عز وجل.

ولم يقتصر في علاجه على ما كان معروفا بالنظام اليوناني في العلاج، وإنما استحضر العديد من الكتب باللغة العربية من مصر عن نظام الألوباثي في العلاج، ودرسها بعناية. كما أنه تلقى بعض الدروس في العلاج بالنظام الهندي على يد أحد الأطباء الهندوس، وكان طاعنا في السن، وهو بانديت هرنام داس، ودرس معه كتابيْ أمريت سغر، وساسرات. وكان يحترم أستاذه احتراما بالغا، وكان يخدمه بشتى الطرق، كما كان يلبي رغباته ويسمع لرأيه رغم أنه كان يشغل وظيفة

متواضعة في البلاط. وقد ذكر أحد الأشخاص للمهراجا أن نور الدين لا يُعتبر طبيبا ذا شأن لأنه لا يزال يتلقى دروسا في الطب على يد شخص لا قيمة له في مجال الطب وهو بانديت هرنام داس. وفي أحد الأيام سأله المهراجا: لماذا تقدم الكثير من الاحترام لبانديت هرنام داس؟ فأجاب قائلا: إنني أحترمه لأنه أستاذي. وقد تأثر المهراجا بهذه الإجابة، مما جعله يرتفع أكثر ويزداد احتراما في أعين المهراجا.

كان الحكيم نور الدين يحمل في قلبه محبة خاصة لفيروز الدين، ابن ميان لال دين، بسبب الصفات الكريمة التي كان يتصف بها، كما كان الشاب مخلصا له أيضا. وقد أصيب مرة بمرض الجديري، واستعان الحكيم نور الدين بكل خبرته في العلاج ليحقق شفاءه ولكن بدون جدوى، وتوفي المريض في حضور طبيبه الكبير الذي حزن كثيرا لهذه المأساة، وأدرك مرة أخرى أن كل شيء يعتمد فقط على فضل الله تعالى ورحمته.

وحدث أن توفي ابن شقيقته في "بهيرة" بعد إصابته بالدوسنطاريا، وكان الحكيم نور الدين قد وصل إلى بهيرة قادما من جامون بعد وفاة ابن شقيقته بزمن قصير. ولما كانت شقيقته تعلم أن شخصا آخر كان يعاني من الدوسنطاريا قد تم علاجه وشفي تماما على يده، قالت له: لو أنك كنت موجودا هنا لما مات ابني. وقد انزعج كثيرا لسماعه هذه الجملة وقال لها: إنك سوف تُرزقين بابن آخر سوف يصاب بالدوسنطاريا، ورغم علاجي له فسوف يموت. وقد حدث أنها بعد مدة أنجبت طفلا جميلا أصيب فعلا بالدوسنطاريا. وكان شقيقها في بهيرة وبذل جهده في علاج الصبي. وتذكرت الشقيقة جملته التي ذكرها سابقا

ورجته أن يدعو الله لشفاء ابنها. وقد فعل ما طلبته منه ودعا الله تعالى، ولكنه أخبرها بأن الصبي سوف يموت، ولكن الله تعالى سوف ينعم عليها بابن آخر سوف يكبر ويعيش حياة مزدهرة. وهكذا تم ما قال.

* * *

كان المهراجا يُقَدر الحكيم نور الدين تقديرا عظيما، وكان معجبا بأخلاقه النبيلة وروحانيته العالية، وكثيرا ما كان يعبر له عن تقديره هذا. وحدث في إحدى الليالي أن جاء مبعوث من لدن المهراجا يطلب الحكيم نور الدين على وجه السرعة، وعندما كان على وشك الخروج جاءته زوجة أحد الكناسين وهي في اضطراب شديد، ورجته أن يذهب ليفحص زوجها الذي كان يعاني من آلام شديدة. فقال لمبعوث المهراجا أن يذهب هو ويؤكد للمهراجا أنه سيكون تحت تصرفة بعد برهة قصيرة. وقد استاء مبعوث المهراجا وعبر عن غضبه قائلا: الكناس له الأولوية على المهراجا! وأيقن الحكيم نور الدين أن مبعوث المهراجا سوف يُضخّم للمهراجا ما يعتبره قباحة مشينة، غير أن إنسانيته لم تسمح له بأن يتجاهل معاناة كناس بسيط. وقد شخّص حالته بأنه يعاني من عسر هضم حاد في الأمعاء، فأعطاه حقنة شرجية شعر بعدها بالراحة التامة. وقد أطلق الرجل تنهيدة عميقة ثم عبّر عن امتنانه للحكيم نور الدين بهذه الكلمات: عسى أن يباركك الله تعالى ببركاته الواسعة، ويبارك أيضا من كان السبب في مجيئك إلينا هنا. وقد خرج الدعاء بحرقة من أعماق قلب الرجل، حتى إن الحكيم نور الدين أصبح على قناعة بأن

المهراجا، الذي شمله هذا الدعاء، لا بد وأن يكون قد تعافى من كل متاعبه مهما كانت.

وعندما وصل إلى القصر وجد أن هذا ما حدث للمهراجا بالفعل، وأنه لم يعد في حاجة إلى عناية الحكيم نور الدين. غير أن المهراجا سأله عن سبب تأخره، فأخبره عما حدث، وأنه كان على يقين أيضا بأن دعاء ذلك الرجل كان السبب في زوال ما كان المهراجا يشتكي منه. وقد أثنى المهراجا على مسلكه هذا الذي يليق بطبيب عظيم مثله، وأنعم عليه بسوارين ثقيلين من الذهب. وقبل أن يغادر الحكيم نور الدين القصر نادى مبعوث المهراجا وأعطاه سوارا من السوارين. وقد أصابت الرجل الدهشة البالغة، وأراد أن يعرف ما الذي دعاه لهذا الكرم. فأجابه قائلا:

- لو لم تشتكي لدى المهراجا، لما أنعم علي بهذين السوارين، وعلى هذا فأنت تستحق أن تشاركني هذه العطية.

وحدث ذات مرة أن أمر المهراجا جميع الموظفين الكبار أن يرتدوا حلة رسمية لا يقل ثمنها عن مرتب شهر. وقد استجاب كل واحد منهم عدا رئيس الأطباء الذي لم يغير ملابسه البسيطة المعتادة. وقد ذكر هذا أحد الأشخاص أمام المهراجا الذي علّق على ذلك قائلا:

- إنه على حق. فإن الحلة الرسمية سوف تعوقه عن تأدية واجباته. وبالإضافه، إنه يضطر كثيرا إلى الذهاب إلى جناح السيدات داخل القصر، والرداء البسيط هو الرداء المناسب لشخص مثله.

وفي إحدى الاجتماعات الشعبية، كان على كل مسؤول من الموظفين الكبار أن يُعبّر عن ولائه للمهراجا بتقديم عملة فضية كي

يلمسها المهراجا بإصبعيه تعبيرا عن رضاه. وشعر رئيس الأطباء بالحرج من اضطراره لأن يعبر عن ولائه، ولكنه لم يستطع أن يفكر في طريقة يخرج بها من هذا المأزق. وحين اقترب دوره لاحظ المهراجا أنه كان يتأمل في العملة النقدية التي كان يحملها في راحة يده. وحين اقترب منه سأله المهراجا:

- هل تفكر في الولاء أم تفكر في القطعة النقدية؟ فأجاب قائلا:
- سيدي، إنني أفكر في القطعة النقدية التي من المفروض أن تكون رمزا للتعبير عن الولاء.

فابتسم المهراجا وقال: إنك غير ملزم بالتعبير عن ولائك.

وحدث أن شخصا ما أبلغ المهراجا أن الحكيم نور الدين من سلالة عمر بن الخطاب الذي اغتصب سلطة خلافة رسول الله ﷺ. وفي أحد الأيام سأله المهراجا قائلا: لماذا لم يخلف الرسول ﷺ واحدٌ من أبنائه؟ وقد شرح له الحكيم نور الدين أن خلافة الرسول ﷺ ليست أمرا دنيويا. كما أن الرسول لم يترك من بعده ابنا من الذكور، وأبناء ابنته كانا ما زالا صغيرين. غير أن المهراجا اعترض عليه قائلا: ولكن "مولى مرتضى" (يقصد علي بن أبي طالب) كان ابنه، وعمر اغتصب السلطة منه. فرد عليه قائلا: إن عليّا لم يكن ابنه، وإنما كان زوج ابنته فقط. وعمر لم يخلف الرسول ﷺ مباشرة، وإنما كان خليفته الثاني.

- إذن حضرة علي لم يكن ابنه؟
- كلا، بل كان زوج ابنته، كما أن راجا هذا زوج ابنتك.

- آه، أنني أستطيع أن أرى الوضع الآن على حقيقته. ونحن لا نزوّج بناتنا لأي أحد، كما لا نعين أحدا في الوزارة يكون له مطامع ليخلفنا على العرش. إن عائلة زوج ابنتنا هذا اتخذت موقفا معارضا للإنجليز في ثورة عام ١٨٥٧، وصدر الأمر بنفيهم إلى جزر آندمان. أما نحن فقد ساعدنا الإنجليز، وتقديرا لما قدمناه من المساعدات الملكية، عرض علينا الإنجليز أن يمنحونا المزيد من الأراضي، ولكننا تنازلنا عن عرض الأراضي وطلبنا بدلا من ذلك عودة راجا هذا ووالده من بورت بلير، وإرجاع ممتلكاتهم إليهم، وزوّجنا ابنتنا إلى هذا الراجا. والآن، إذا اقترفوا أي عمل ضدنا فإن بورت بلير ما زالت موجودة. أما بالنسبة لرئيس الوزراء، فإني إذا أحلته للتقاعد فإنه سوف يضطر أن يكسب عيشه بإدارة محل للبقالة.

* * *

وفي إحدى المناسبات شعر الحكيم نور الدين بدافع قوي يحثه على دراسة تفسير الحديث: "من كنت مولاه فعليّ مولاه" ودراسة كتاب "طبقات الأنوار"، الذي امتد على مدى أكثر من سبعمئة صفحة، وهو من تأليف مير حامد حسين. وعلم أن مير نواب من "لكناو"، وهو شيعي وكان طبيبا أيضا في جامون، كان يمتلك نسخة من هذا الكتاب. فطلب منه أن يُقرضه الكتاب، فوافق على إقراضه الكتاب بشرط أن يأخذه الساعة العاشرة مساءً ويردّه بعد ست ساعات، وليس بعد الساعة الرابعة صباحا. ودرس الحكيم نور الدين جزءا من الكتاب خلال الليل، وكتب بعض الملاحظات، ثم أعاده في الساعة المتفق عليها. وفيما بعد

درس الحكيم نور الدين الملاحظات التي دوّنها وراح يتأمل فيها؛ رغم أنه لم يكن يدري لماذا شرع في هذه الدراسة المضنية بهذا الشكل.

وبعد عدة أيام أخبره الشيخ فتح محمد بأنهما سوف يتناولان العشاء في تلك الليلة عند ميان إلهي بخش، وهو من أشراف البلد. وحين كانا في طريقهما إلى بيت المضيف، ذكر له الشيخ فتح محمد أن مضيفهما في تلك الليلة شيعي متحمس، وقد دعا أحد المجتهدين كي يناظر الحكيم نور الدين في العقائد الشيعية، بشرط أنه إن لم يستطع أن يرد على المجتهد الشيعي، فإن جميع الحاضرين من أهل السنّة سوف يقبلون العقائد الشيعية. ولم يكن الحكيم نور الدين على علم بهذا الترتيب، وشعر كما لو كان المطلوب أن تتم المناظرة بشكل عفوي لتكون أكثر إثارة. وقد أنّب الحكيم نور الدين الشيخ فتح محمد على الشرط السخيف الذي وافقوا عليه، غير أن الشيخ فتح محمد لم يحمل تأنيبه محمل الجد.

وعند وصولهما إلى بيت ميان إلهي بخش، طلب الشيخ فتح محمد بأسلوب صارم من المناظر الشيعي أن يتقدم. ولكنه قدّم كتابا للحكيم نور الدين، أدهشه أن يكون كتاب "طبقات الأنوار"، مما أثار سروره. وراح يقلب صفحات الكتاب بسرعة ثم وضع الكتاب أمام ميان إلهي بخش وسأل عن المطلوب. فقيل له إن عليه أن يدرس الكتاب بشكل شامل. فقال إنه قد درسه، وهو على استعداد أن يذكر لهم فحواه باختصار، وأن يفنده أيضا. وكان بين الحضور مجموعة من علماء الشيعة، أرادوا جميعا أن يستمعوا لشرحه، وبعد استماعهم انتحوا جانبا واتفقوا فيما بينهم على أنهم لن يكونوا كفئا لمناظرة الحكيم نور الدين.

فأمر ميان إلهي بخش الخدم بتقديم العَشاء للضيوف، ولكن الشيخ فتح محمد ظل يصيح: إننا لا نريد الطعام، وإنما نريد أن نسمع المناظرة؛ فقدموا مجتهدكم. ولكن لم يتقدم أحد، ولم تتم المناظرة.

وكما سبق ذكره، كان ميان لال دين رجلا من كبار الأثرياء ومن أشراف مدينة جامون، رغم أنه لم يحصل على قدر كبير من التعليم، ولم يكن على علاقة حميمة مع الحكيم نور الدين. ومع ذلك فإن الحكيم نور الدين كان حريصا على أن يبذل كل ما في وسعه من أجل أن يزوره في محل إقامته. وقد وجده مرة جالسا على كرسي كبير بجوار نافذة واسعة في غرفة فسيحة، كانت تغصّ بالناس الذين لهم علاقات عمل معه. وقد استمع إلى كل واحد منهم في دوره ثم أملى توجيهاته إلى أحد الكتبة. وانتظر الحكيم نور الدين بصبر طويل حتى انتهى كل واحد من قضاء حاجته التي أتى من أجلها وانصرف. وظن الكاتب أن الحكيم نور الدين قد انتظر طويلا لكي يتحدث على حدة مع سيده، فانصرف هو أيضا. وحينئذ قال الحكيم نور الدين لميان لال دين: إنك تشغل مقاما عاليا ومرموقا، حتى إن رجل الدين العادي لا يجرؤ على أن يوجه لك أي نصيحة، ومع ذلك فإن كل إنسان في حاجة إلى ناصح أمين، وقد جئت كي أستفسر منك عمن يكون ناصحك. فأجاب قائلا:

- يا حضرة المولوي المحترم، إنك تعلم أنني لست على درجة عالية من التعليم، ولا أستطيع أن أفهم إشاراتك التي تقصدها.
- حسنا، ولشرح ما أقصده بوضوح، أقول إن في جوار كل مدينة توجد بعض الخرائب من بقايا المدن القديمة، وبجوار منْزل كل

غني يوجد أيضا منْزل لشخص فقير كان غنيا في وقت من الأوقات، وهو ما يمكن أن يكون بمثابة ناصح له.

- الآن وبعد أن ذكرت ما ذكرت، فأرجوك أن تأتي وتنظر خلال هذه النافذة. وهناك ترى طريقا له مدخل مقوس، ويمكن أن يكون هذا بمثابة الناصح لي. وأنا أجلس بجوار هذه النافذة كي يكون هذا المنظر أمام نظري. فإن صاحب ذلك البيت كان ثريّا، وبلغ درجة عالية من الشرف حتى إنه كان له الحق أن يرفع على رأسه شمسية حمراء في حضور المهراجا، بينما لا أستطيع أنا أن أرفع ولا حتى شمسية سوداء. والآن، لقد أصابه الفقر بدرجة كبيرة، حتى إن زوجته تضطر إلى المساعدة في غسل الصحون بمطبخنا.
- إذن فأنت حقا لست في حاجة إلى ناصح أكثر من هذا.

وقد قص الحكيم نور الدين هذه الواقعة على المهراجا الذي علّق عليها قائلا:

- إن لي الكثير من الناصحين. فإن المكان الذي يقام فيه الاحتفال الديني بتنصيب المهراجا محاط ببيوت متواضعة لأقوام من سلالة الحكام السابقين لهذه الأرض. وليس عليهم ما يجبرهم على تقديم الولاء لنا. وهناك مدينة مشهورة اسمها "دارانغار" بالقرب من المنطقة التي أعقد فيها اجتماع البلاط، وقد تحولت الآن إلى خراب. وأيضا "قلعة باهو" كانت في يوم من الأيام مركزا لحكام أقوياء. ولا يمكن أن يكون لديّ ناصحون أفضل من هؤلاء. وفي

الحقيقة، إن أولئك الذين سبقونا في الحكم، هم لنا أيضا خير الناصحين.

الفصل السابع

الطالب والمطلوب

كان المولوي الحكيم نور الدين قد اكتسب شهرة واسعة كطبيب يشار له بالبنان، وكعالم دين على جانب كبير من العلوم والمعارف، وكعابد صالح من عُبّاد الله الأتقياء، وكمثال طيب للمؤمن الحقيقي. وقد ظل لزمن طويل يبحث عن شخص يكون له بمثابة المرشد الروحي الكامل والمعلم الروحي. وقد تشرف بمقابلة العديد من الشخصيات التي أحرزت أوسع العلوم وأدق المعارف، وتميزت بالتقوى والصلاح، واتصفت بالحكمة والفضل، ولكن جميع هؤلاء لم يهتموا كثيرا بالدفاع عن الإسلام الذي كان يتعرض للكثير من المطاعن في ذلك الوقت، ولا كانوا معنيين بتحقيق أفضلية الإسلام وإظهاره على الدين كله. فكان كثيرا ما يدعو الله تعالى بكبد منفطر في جوف الليالي أن يظهر مثل هذا الشخص، لينتشل الإسلام والمسلمين مما تردوا فيه. وقد وصف بنفسه هذه المرحلة من حياته في بحث كتبه باللغة العربية قال فيه:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين. والصلاة والسلام على سيد وُلد آدم سيد الرسل والأنبياء، أصفى الأصفياء، محمد خاتم النبيين، وآله وأصحابه أجمعين.
أما بعد.. فيقول العبد الضعيف المُفتقر إلى الله القوي الأمين، نور الدين.. عصمه الله من الآفات، وأدخله في زمرة الآمنين،

وجعله كاسمه: نور الدين.. إني كنت لهجتُ مُذ رأيت المفاسد من أهل الزمان، وشاهدت تغير الأديان، أن أُرزَق رؤية رجل يجدد هذا الدين، ويرجم الشياطين. وكنت أرجو هذه المُنية لأن الله بشَّر المؤمنين في كتاب مبين، وقال وهو أصدق القائلين: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَملُوا الصَّالحَات لَيَسْتَخْلفَنَّهُمْ في الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذينَ من قَبْلهمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دينَهُمُ الَّذي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ من بَعْد خَوْفهمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَني لا يُشْرِكُونَ بي شَيْئًا﴾ (النور:٥٦)، إلى آخر ما قال رب العالمين. وكذا قال الذي ما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحيٌ يوحَى وهو الصدوق الأمين ﷺ: "إن الله يبعث في هذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها"، فكنتُ لرحمته من المنتظرين.

فقصدت لهذه البغية بيت الله مهبط أنوار الحق واليقين. فكنتُ أجوبُ البراري، وأقطع الصحاري، وأستقري عبدًا من العباد الربّانيـــين. فتوسَّمت في البقعة المباركة المكرّمة شيخي الشيخ السيد حسين المهاجر الورع الزاهد التقي، وشيخي الشيخ محمد الخزرجي الأنصاري، وفي طابة الطيّبة تشرفت بلقاء شيخي وسيدي ومولائي الشيخ عبد الغني المجددي الأحمدي، وكلهم كانوا كما أظن من المتّقين. جزاهم الله عنّي أحسن الجزاء، آمين يا رب العالمين. وهؤلاء الشيوخ رحمهم الله كانوا على أعلى المراتب من التقوى والعلم، ولكن لم يكونوا على

أعداءِ الدين من القائمين، ولا لشبهاتهم مستأصلين، بل في الزوايا متعبدين، وبمناجاة ربهم مُتخلّين.

وما رأيت في العلماء من توجّه إلى دعوة النصارى، والآرية، والبراهمة، والدهرية، والفلاسفة، والمعتزلة، وأمثالهم من الفرق المضلّين. بل رأيتُ في الهند ما ينيف على تسع مئة ألف من الطلبة رفضوا العلوم الدينية، واختاروا عليها العلوم الإنكليزية، والألسنة الأوروبية، واتخذوا بطانة من دون المؤمنين.

وأزْيَد من ستين ألف ألف رسالة طُبعت في مقابلة الإسلام والمسلمين، ونسمع المشائخ وأتباعهم يقولون عن هذه المصيبة إن الدعوة والمناظرات خلاف ديدن أهل الكمال وأصحاب اليقين. وعُلماؤنا.. إلا ما شاء الله.. ما يعلمون ما يُفعَلَ بالدين وأهل الدين. والمتكلمون منتهى تدقيقاتهم مسألة إمكان كذب البارئ (نعوذ بالله) وامتناعه، لا لتبكيت الكافرين، ورد مكائد المعاندين. ومع هذه الشكوى فنشكر مساعي الشيخ الأجلّ وأستاذي الأكمل: رحمة الله الهندي المكّي، والدكتور وزير خان، رحمهما الله تعالى، والسيد الإمام أبي المنصور الدهلوي، والزكي الفطن السيد محمد على الكانفوري، والسيد اللبيب مصنف: "تنْزيه القرآن"، وأمثالهم سلّمهم الله، فشكر الله سعيهم وهو خير الشاكرين. لكن جهادهم مع شعبة واحدة من مخالفي الإسلام، ثم ما كان بالآيات السماوية والبشارات الإلهية.

وكنت حريصا على رؤية رَجُلٍ.. أيْ رَجُلٍ واحدٍ من أفراد الدهر قائم في المضمار لتأييد الدين، وإفحام المخاصمين. فرجعت إلى الوطن وأنا كالهائم الولهان، أخبط ورق نهاري، بعصا تسياري، ومن المتعطشين الطالبين.

فبينما أنتظر النداء من الصادقين.. إذ جاءتني بشارة من جناب السيد الأجَلِّ، والعالِم الحبر الأبلِّ، مجدد المئة، ومهدي الزمان، ومسيح الدوران، مؤلف البراهين. فجئتُه لأنظر حقيقة الحال، فتفرّستُ أنه هو الموعود الحكم العدل، وأنه الذي انتدبه الله لتجديد الدين، فقال لَبَّيْك يا إله العالمين. فسجدت لله شكرا على هذه المِنّة العظيمة، لك الحمد والشكر والنعمة يا أرحم الراحمين.

ثم اخترت محبته، واستحسنت بيعته، حتى غمرتني رأفته، وغشيتني مودته، وصرت في حُبه من المشغوفين. فآثرته على طارفي وتالدي، بل على نفسي وأهلي ووالدي وأعزتي الأقربين. أصبى قلبي علمه وعرفانه، فشكرا لمن أتاح لي لقيانه، ومن سعادة جَدّي أني آثرته على العالمين، فشمّرت في خدمته تشمير من لا يألو في ميدانٍ من الميادين، فالحمد لله الذي أحسن إليَّ وهو خير المحسنين.

* * *

كان ما حدث على النحو التالي.. كان أحد المسلمين من ذوي الثقافة الغربية الذين يشغلون مركزا مرموقا في الولاية، قد انخرط في

مباحثة مع المولوي نور الدين عن موضوع النبوة، وهو موضوع كان ينكره ذلك الشخص بازدراء. وفي نهاية يوم من الأيام أعلن أنه على قناعة بأن النبي ﷺ هو في الحقيقة خاتم النبيين، ولذلك فهو لا يرى ضرورة لاستمرار المباحثة. وقد شعر المولوي نور الدين بأن إعلانه هذا جاء سريعا بغير اقتناع كامل، فسأله أن يأتي بدليل على رأيه هذا، فأجابه قائلا: إن الرسول ﷺ كان رجلا ذكيا ذا بصيرة بعيدة، وقد رأى بنظرته الثاقبة أن الفكر الإنساني كان يتقدم بخطى سريعة، وأنه فيما بعد لن يكون لموضوع الوحي والنبوة أي قيمة، ولهذا أعلن أنه خاتم النبيين. وقد أصيب المولوي نور الدين بالاستياء الشديد لهذه الإجابة البلهاء، والحمق الفاضح. وحدث بعد ذلك بزمن يسير أن أعطاه رئيس وزراء الولاية منشورا لحضرة مرزا غلام أحمد القادياني، كان يحتوي على تفنيد للآراء الخاطئة التي كان يعتقد بها ذلك الشخص ذو المركز المرموق، والتي سببت له استياءً شديدا. فذهب إليه على الفور وهو يحمل ذلك المنشور وقال له: هذا مثال لشخص يعلن أنه يتلقى الوحي من الله تعالى ويؤكد أن الله تعالى يتحدث إليه. و لم يكن تعليق ذلك الشخص سوى أنه قال: إن الأمر يحتاج إلى إثبات.

لقد تأثر المولوي نور الدين تأثرا عميقا بهذا المنشور الذي كتبه حضرة المرزا المحترم، حتى إنه قرر أن يذهب على الفور إلى قاديان ليقابله ويحكم بنفسه. وقد شغل نفسه طوال الرحلة بالدعاء المتواصل طلبا للهداية. ووصف مشاعره في اللحظة التي التقاه فيها بالكلمات التالية:

بمجرد أن وقعت عيناي عليه شهد قلبي بأن ذلك هو المرزا، وبأنني سوف أقدم حياتي فداء له.

كانت تلك اللحظة هي نهاية لبحثه واستقصائه الطويل، فقد وجد ما كان يبحث عنه، وكان عند ذلك قد بلغ من عمره الثالثة والأربعين.

وقد عرض أن يبايع حضرة المرزا المحترم، الذي كان جوابه:

- إنني لم أتلق أمرا بقبول البيعة من أحد، ولا أستطيع أن أقرر شيئا بغير أمر الله تعالى.

- إذًا، هل أطمئن إلى أن أكون أنا أول المبايعين حين يأتي ذلك الأمر من الله تعالى؟

- لك أن تطمئن إلى ذلك.

- هل هناك ما ينبغي أن أقوم به من أجل أن أنال حب الله عز وجل؟

- اكتب كتابا تفند فيه النقد الذي توجّهه المسيحية للإسلام.

وقد قرر المولوي نور الدين أن يعمل على الفور لتنفيذ التوجيه الذي تلقاه، رغم أنه لم يكن يعلم الكثير عن المسيحية، كما أنه لم يكن على دراية كبيرة بطبيعة النقد الذي يوجهه دعاة المسيحية للإسلام. كذلك كانت مشاغله الكثيرة في جامون تستنفذ كل وقته، ولم يكن يعرف من أين يأتي بالوقت اللازم للدراسة والبحث والكتابة.

* * *

وعند رحيله من قاديان وقبل عودته إلى جامون، قام بزيارة بلدته "بهيرة". وهناك في المسجد، تصادف أن كان إمام المسجد زميلا له في الدراسة، وكان حافظا للقرآن الكريم. وقد بدأت بينهما مناقشة عما إذا كان الإنسان مُخيّرا أم مُسيّرا. وقد لاحظ المولوي نور الدين أن إمام المسجد يناقش الموضوع بعصبية، ويستخدم ألفاظا تنم عن تأثره

بالأفكار المسيحية. ولما انصرف بقية الناس وأصبح وحده مع إمام المسجد، قال له: حضرة الحافظ، يخامرني شعور بأنك قد تأثرت بعض الشيء بالأفكار المسيحية. فكان رده عليه: وما هو الضرر في المسيحية؟ واقترح المولوي نور الدين أن يقوما سويا بزيارة المبشر المسيحي الذي كان إمام المسجد على صلة به ليشترك الجميع في المناقشة. وقد وافق الإمام وأخذه إلى المبشر المسيحي الأوروبي الذي كان يقيم في "بيند دادان خان". واستقبلهما الرجل بترحاب وكرم، ولكنهما لم يستطيعا أن يقنعاه بالانخراط معهما في المناقشة. وفي النهاية قال لهما إنه سوف يبعث إليهما بنقده للإسلام مكتوبا. فقال المولوي نور الدين للإمام: يا حافظ المحترم، هل لك أن تنتظر قليلا إلى أن تقرأ هذا النقد وتقرأ أيضا الرد عليه وتفنيده قبل أن تُقْدم على قبول التعميد؟ وأعرب الإمام عن موافقته قائلا إن هذا يتفق مع ما هو معقول، وأبدى الرجل الأوروبي موافقته على ذلك أيضا.

وبعد مغادرتهما لبيت ذلك المبشر المسيحي، سأل المولوي نور الدين صديقه الإمام عما إذا كان يعرف أحدا في نفس هذا الموقف الذي هو فيه، فأخبره الإمام بأن ناظر المحطة يشاطره نفس الرأي. وعلى هذا توجها شطر ناظر المحطة الذي أكد أن أي دين لا يستطيع أن يقف في مواجهة المسيحية. غير أنه أبدى دهشته حين علم أن المبشر المسيحي قد امتنع عن المناقشة الشفهية، وأبدى كذلك موافقته على الانتظار إلى أن تتم دراسة الاعتراضات التي سوف يقدمها المبشر المسيحي والرد عليها. وقد تبين أن الاعتراضات التي قدمها ذلك المبشر عديدة وكثيرة وضخمة، وأن دراستها والرد عليها سوف يستغرق عاما على الأقل.

كانت بعض الزلازل قد وقعت متتابعة في المنطقة الجبلية في ذلك العام، مما أثار الذعر في نفوس الناس، حتى إن الأمير ابن راجا بونك قد أصيب بالجنون. وقد التمس الراجا من مهراجا جامون أن يخصص له خدمات أحد الأطباء المعروفين بمهارتهم الفائقة كي يتولى علاج الأمير، فرأى المهراجا أن يبعث إليه بالحكيم نور الدين، الذي انتقل إلى بونك. وهناك خصصوا له مقاما مريحا خارج نطاق البلدة. و لم يكن عليه سوى العناية بمريض واحد فقط، مما أتاح له الكثير من الوقت كي يقوم بدراسة مستفيضة للكتاب المقدس والقرآن المجيد، وكتابة الملاحظات والتعليقات التي سوف يستخدمها في إعداد الرد على الاعتراضات التي قدمها المبشر الأوروبي. وبعد أن قام بالإعداد اللازم والشامل، دوّن كتابا من أربعة أجزاء في رده وتفنيده للاعتراضات، وأطلق عليه اسم "فصل الخطاب". وفي الوقت الذي اكتملت فيه كتابة ذلك النص، كان الأمير قد تماثل تماما للشفاء. وقدّم له راجا بونك صرّة تحتوي على بضع ألوف من الروبيات كرمز يعبّر عن عرفانه. وعندما عاد إلى جامون سأله المهراجا كم دفع له الراجا، فوضع الصرّة أمامه. وقد استاء المهراجا لقلة ما دُفع له، وأصدر أوامره بأن يُدفع له من خزينة ولاية جامون ما يوازي مخصصاته المالية لمدة عام كامل. فأرسل النقود وجزأين من كتابه إلى المطبعة في دلهي. وعندما تم طبع وإعداد الكتاب، قام بإرسال عدة نسخ إلى بعض الأشخاص، وأيضا إلى ناظر المحطة وإمام المسجد في "بهيرة". وقد كتب إليه الإمام قائلا إن الدراسة المتأنية لهذا الكتاب قد أزالت

جميع الشكوك التي كانت تساورهما، وأنهما الآن يؤمنان إيمانا صادقا بالإسلام، وليسا في حاجة إلى شيء آخر.

* * *

ظل المولوي نور الدين على اتصال دائم بحضرة مرزا غلام أحمد، كما استمر أيضا يستلهم الهداية من خطاباته وكتاباته. وكان يسترشد برأيه في كل ما يُقْدم عليه وما يقوم به من أعمال. وقد حدث أن مات بعض أبنائه الواحد تلو الآخر، وهم لا يزالون في طفولتهم المبكرة، وفي كل مرة كان حضرة مرزا المحترم يكتب إليه مواسيا ومعزّيا، لتثبيته على الإيمان وليرفع من معنوياته الروحية كي يزيد من اتكاله على الله والاستعانة به. وفي إحدى رسائله الأولى كان يحثه على أن يدعو الله تعالى في صلاته التي يقوم بها في الثلث الأخير من الليل بهذه الكلمات:

> يا ربي يا مُحسني، إنني مخلوق ضعيف من مخلوقاتك، كثير الخطايا ومن الغافلين. إنك ترى مني خطأ بعد خطأ، وتتفضل عليّ بنعمة بعد نعمة. إنك رأيتني أرتكب الذنب بعد الذنب، ومع ذلك تشملني بالفضل بعد الفضل. لقد سترتني دوما وسترت ذنوبي وأغنيتني بنعمك التي لا تُحصى. إنني أتوسل إليك أن ترحم عبدك الضعيف هذا مرة أخرى، وتتغاضى عن ذنوب هذا المخلوق الذي لا قيمة له بين مخلوقاتك، وأن تغفر عقوقه وجحوده. وخلصني يا رب بخالص فضلك من حزني وغمي، فلا مخلّص إلا أنت.

ومن ناحيته كان المولوي نور الدين على قدم الإخلاص الكامل والصدق التام مع حضرة المرزا المحترم ولم يخف عنه شيئا. وفي أحد الأيام تلقى منه توجيها جاء فيه:

إن الBانديت ليكهرام قد نشر لتوه كتابا يرد فيه على كتابي "البراهين الأحمدية"، ذكر فيه الكثير من الأمور الباطلة، وقد سماه "تكذيب البراهين الأحمدية". ومن الضروري أن يُكشف الستار عن جميع هذه الأباطيل والادعاءات الكاذبة في أقرب وقت ممكن. وأنا منشغل الآن تماما بتدوين كتاب "السراج المنير"، وليس لديّ وقت لكتابة شيء آخر. وأنا لا أبالغ، كما أني لا أتصرف بدافع كيل المديح لك، عندما أقول إن الله تعالى قد وضع في ذهني أنه ليس من شخص آخر سواك قد ملأته روح الحماسة لخدمة الدين ويستطيع أن يعاونني في هذا الأمر. ولذلك فإني أطلب إليك أن تتحمل مشقة قراءة ذلك الكتاب من بدايته إلى نهايته، وأن تقوم بتدوين قائمة بجميع الاعتراضات التي قدمها مؤلف الكتاب ضد الإسلام، ثم تتفكر في أفضل الوسائل والكيفيات التي ترد بها على كلّ من هذه الاعتراضات. وبعد ذلك عليك أن تقوم بتدوين الرد على كل اعتراض على حدة حسبما يوجهك الله تعالى، ثم تقوم بإرسال هذه الردود إليّ. أما الاعتراضات التي تتناولني شخصيا فسوف أقوم بالرد عليها عندما يتاح لي الوقت اللازم لذلك. إن هذا عمل على جانب كبير من الأهمية، وإني أطلب إليك أن تقوم

به بالتركيز اللازم، وبالحماسة المعهودة منك، والإخلاص الذي تتميّز به؛ وكما أنك قد عاونتني بمالك بأقصى حد ممكن، فعليك الآن أن تقوم بمعاونتي بنفس الشكل باستخدام مواهبك التي أنعم الله بها عليك.

إن معارضينا اتحدوا جميعا ضدنا، وهم يبذلون أقصى جهدهم للإساءة إلى الإسلام. وفي رأيي، إن من ينْزل إلى الساحة في هذا الوقت للجهاد من أجل نصرة الإسلام، فإنه يتولى أمرا يختص به الأنبياء. أرجو أن أسمع منك قريبا. كان الله معك وفي عونك.

وقد قام المولوي نور الدين بتنفيذ هذه المهمة بأحسن حال، وذلك بتدوينه كتابه "تصديق البراهين الأحمدية".

وحدث ذات مرة أن مرض المولوي نور الدين فأصيب بالحمى والصداع الشديد، وطال مرضه لبعض الوقت. وعندما علم حضرة مرزا المحترم بمرضه كتب إليه قائلا إنه قادم إلى جامون لزيارته. وأضاف قائلا إنه استجابة لأدعيته له بالشفاء، أخبره الله تعالى أنه عند وصوله إلى جامون سوف يجده قد تعافى وتماثل للشفاء، وهذا ما تحقق تماما. وقد مكث حضرة مرزا المحترم في جامون لمدة ثلاثة أيام.

* * *

بعد أن قضى المولوي نور الدين في جامون عدّة سنوات، تأصلت أواصر المودة بينه وبين مهراجا جامون وراجا "بونجهــ"، كما أنه تعلم بعض الأمور عن مكائد القصر، واستطاع بحرص شديد أن يبقى خارج نطاقها. وقد قاوم بحسم كل محاولة من أي شخص للحصول منه على

معلومات عن المهراجا، فكان يعبر عن ولائه له بقوله: إنه يثق فيّ، ولن أخون هذه الثقة أبدا.

وقد خصص له راجا "بونجهــ" عطاءً سنويا، وكان يتولى أمور رعايته الطبية عند قدومه إلى جامون. وقد حدث في إحدى تلك المرات أن كان الراجا متوعكا، فزاره المولوي نور الدين وكتب له الدواء اللازم. وعندما كان على أهبة الانصراف، أخبره أحد الأشخاص أن أحد مستخدمي الراجا يريد منه أن يتولى إجراء الكشف الطبي عليه، فقال: إن بيتي يقع في طريق عودته إلى منْزله، ويمكن له أن يتوقف عندي في طريقه كي أقوم بالكشف عليه. وعندما أُبلغ المستخدم بهذه الرسالة أصابه الضيق والاستياء، وعلق على ذلك بقوله: يبدو أن نور الدين قد أصيب بالعجرفة، ولن أسمح له بالكشف على الراجا بعد الآن. وبالفعل لم يطلب منه أحد أن يقوم بالكشف على الراجا بعد ذلك لمدة عدة شهور.

ثم حدث بعد ذلك أن اضطر المهراجا أن يذهب إلى لاهور وكان راجا بونك في صحبته، فأصابه المرض في لاهور. ولما لم يكن هناك من طبيب في قافلة المهراجا سوى المولوي نور الدين، فقد أرسل الراجا في طلبه كي يراه في فترة الظهيرة حيث لم يكن أحد من مستخدمي الراجا موجودا. وعند وصوله قال له الراجا: إن مخصصاتك المالية لهذه السنة لم تصلك، وسوف أصدر أمري بأن يدفعوا لك على الفور مخصصاتك لمدة سنتين. وقد علّق المولوي نور الدين على ذلك بقوله: لعلك أرسلت إليّ في هذه الساعة غير العادية حتى لا يعلم بذلك المستخدم الذي استاء مني

بسبب امتناعي عن زيارته. فإن كان الأمر كذلك، فإنه سوف يستنكر معالجتي إياك، وربما يدفعه ذلك إلى الإضرار بك. فاعترف الراجا بقوله: إن علينا أن نكون على حرص شديد من هؤلاء الأوغاد، فإنهم لا يتورعون عن القيام بدس السم.

وقد استمر في القيام بأمر علاج الراجا، غير أن صحته استمرت في التدهور. وبعد أن عاد إلى "بونجهـــ" بوقت قصير أصابته المنيّة وتوفاه الله تعالى. وقد حذره بعض الأشخاص بأن ابن الراجا الذي خلف والده، والذي قام بعلاجه خلال مرضه الطويل، والذي كان يظهر له دائما أواصر المودة، كان يريد أن يقدمه للمحاكمة بتهمة تسببه في وفاة والده بسبب إساءته المتعمدة بتقديم العلاج غير المناسب، وربما بدس السم له. وقد شعر المولوي نور الدين بأن الأمير قد وقع ضحية تحريض المستخدم الذي أصابه السخط عليه، غير أن الأمر لم يصل إلى أبعد من ذلك.

كان المولوي نور الدين في غاية الكرم عند قيامه بمساعدة التلاميذ الذين كانوا في حاجة إلى المساعدة على تطوير مواهبهم العلمية والفكرية. وفي إحدى المرات قام بتنظيم منهج لتدريب العديد من التلاميذ على خدمة الإسلام، ورتب أمر وصولهم إلى درجة عالية في تعلم لغتين من بين اللغات الهامة مثل اللغة العربية والعبرية واليونانية والسنسكريتية والإنجليزية. وقد أنفق مبلغا كبيرا على ذلك المشروع. ولكن بعد أن انتهى التلاميذ الذين انتقاهم بحرص من دراسة مناهجهم وأتموا تدريبهم، لم يكن من بينهم ولا واحد على استعداد للقيام بما كان يخطط له المولوي نور الدين في ذهنه. وقد أصيب بخيبة أمل فيهم، غير

أنه لم يحمل لأحدهم أي حقد أو ضغينة؛ ولم يفتّ هذا الفشل في عضده أو يثنيه عن عزمه.

* * *

في العشرين من شهر فبراير (شباط) عام ١٨٨٦، نشر حضرة مرزا المحترم إعلانا عن نبوءة عظمى تتعلق بمولد ابن له، سوف يتمتع بفضل الله تعالى بشكل غير عادي بخصال عظيمة ومواهب كريمة، وجاء جزء من وصفها في كلمات أوحى الله تعالى بها إليه حيث قال:

"ولدٌ صالح كريم ذكي مبارك، مظهَرُ الأول والآخر، مظهر الحق والعلاء، كأن الله نزل من السماء".

وقد وُلد ذلك الإبن في اليوم الثاني عشر من شهر يناير (كانون الثاني) عام ١٨٨٩. وكانت تلك السنة علامة مميزة في تاريخ الدين والإسلام، وفي حياة المولوي نور الدين. فقد تأسست الجماعة الإسلامية الأحمدية في تلك السنة، كما وقعت فيها أيضا بعض الأحداث الهامة التي أثرت على المولوي نور الدين. ولعله من الجدير ذكر بعض منها في هذا السياق.

لقد تزوج المولوي نور الدين مرتين، ولكن جميع أبنائه من الذكور كانوا يموتون في طفولتهم المبكرة. وكان حضرة مرزا المحترم يريد له أن يتزوج للمرة الثالثة، ودعا الله تعالى لذلك، وقام ببعض التحريات بحثا عن زوج تناسبه. وأخيرا، في خطاب بتاريخ ٢٣ يناير (كانون الثاني) ١٨٨٩، اقترح أن يتقدم المولوي نور الدين لطلب يد السيدة "صغرى" ابنة الشيخ الراحل "صوفي أحمد جان"، الذي كان أحد الشخصيات

الصالحة في لدهيانة، وكان في الأصل من دلهي. وقد تقدم المولوي نور الدين بطلب الزواج، وتم القبول، وعُقد حفل القران في شهر فبراير (شباط)، وتم الزواج في شهر مارس (آذار) ١٨٨٩. وكان ذلك الزواج زواجا سعيدا ومباركا، بفضل الله تعالى ورحمته. ومن بين الأبناء الذكور التي رُزق بهم الزوجان عاش أربعة منهم إلى سن الرجولة، وتزوج منهم ثلاثة على مر الزمن، ورزقوا هم أيضا بالذرية. وعندما وصلت ابنته "أمة الحي" إلى سن الزواج، عُقد قرانها على الإبن الموعود لحضرة مرزا المحترم الذي وُلد في ١٢ يناير (كانون الثاني) عام ١٨٨٩.

وبتوجيه من الله تعالى، أعلن حضرة مرزا غلام أحمد في ١٢ يناير ١٨٨٩ عن تأسيس جماعته، ووضع لهذا شروط البيعة. وفيما بعد حدد يوم ٢٣ مارس (آذار) ١٨٨٩ لكي يقدم حواريوه بيعتهم في لدهيانة، وكان المولوي نور الدين هو أول من قام بتقديم بيعته لحضرة مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية. وكان هذا يعني الالتزام الكامل والدائم بالعهد الذي تعهد به في البيعة، وقد قام بتنفيذه بأدق تفاصيله وبشكل مثالي. وكانت حياته كلها بعد ذلك مظهرا نبيلا لمعنى العهد الصادق الحقيقي. وبعد أدائه عهد البيعة المقدس عاد إلى جامون، ولكنه كان على اتصال مستمر بمعلمه الروحي خلال المراسلة المنتظمة والزيارات المتعددة لقاديان، حيث أقام مسكنا مؤقتا من الطوب المحروق.

وفي شهر مايو (أيار) ١٨٨٩ توفيت والدته في "بهيرة" أثناء غيابه. وقبل ذلك بثمانية عشر عاما، حينما كانت الصحف تنشر خبر مصرع أرقام كبيرة من الرجال في الحرب الدائرة آنذاك بين روسيا وتركيا، اقترح على والدته أن تسمح له بتقديم حياته لخدمة الإسلام، خاصة وأن

الله تعالى قد أنعم عليها بثمانية من الأبناء وابنتين، كلهم كانوا متزوجين إلا هو. غير أنها أصيبت بالذعر عند سماعها ذلك منه وقالت له: كيف يمكن أن يتم هذا وأنا على قيد الحياة! فلم يُصرّ على تنفيذ رغبته. وحدث فيما بعد أن توفي أخوته الواحد تلو الآخر بعد فترة وجيزة بين كل وفاة. وكانت أرملة كل من يتوفى من الأبناء تجمع حاجياتها وتغادر بيت العائلة الذي أصبح مهجورا بسبب ذلك. وقد حدث ذات مرة أنه جاء من جامون لزيارة والدته في منتصف شهور الصيف. وبعد وجبة الظهيرة حين كان في قيلولته، حدث أنه استيقظ فجأة على صوت والدته الحزين القادم من الحجرة المجاورة وهي تقول: ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (البقرة:١٥٧). فذهب إليها وقال معترضا إن الجملة التي تدل على الإذعان والصبر على قضاء الله تعالى ينبغي ألا تُقال بنبرة حزينة. ثم سألها قائلا: هل تعلمين لماذا أصبح هذا البيت الكبير يبدو الآن مهجورا؟ فأجابت قائلة: نعم. إنني أتذكر ما قلته أنت منذ زمن طويل، وكنت أتذكره في كل مرة يموت فيها أحد أبنائي. فقال لها: وهل علمت شيئا آخر؟ فقالت: نعم. إنني أعلم أنه رغم رغبتي أن تكون بجواري عندما يحين موعد وفاتي لتتولى أنت أمر كل شيء، فإني سوف أغادر الحياة أثناء غيابك. وهذا ما كان. فقد كان في جامون ولم يستطع أن يصل إليها في الوقت المناسب.

الفصل الثامن

الهجـــــــرة

استمر المولوي نور الدين في الإشراف الطبي على المهراجا لمدة ثلاثة سنوات بعد ذلك، وكان قانعا بمركزه ولم يفكر في أي خطوة لتغيير وضعه. وكان هناك الكثير من الأحداث والأحداث المضادة بسبب المكائد، ولكنه طالما كان يتمتع بثقة المهراجا لم يشعر بأي خطر لشيء آخر.

وفي عام ١٨٩٢ كان راجا "سورج كَوْل" عضوا ذا منْزلة عالية في مجلس الولاية. وكان قد اشتكى لبعض الوقت من آلام في الكلى، فرغب أن يقوم المولوي نور الدين بعلاجه. وبعد أن قام بفحصه فحصا دقيقا أخبر مريضه بأنه يعاني من وجود حصوة في كليته، غير أن المريض أصيب بحالة من الذعر والغضب فانفجر قائلا: ألا تعلم أن سبعة من الأطباء الأوروبيين كانوا يخدمون تحت إمرتي؟

- إن هذا لا علاقة له بالحصوة في الكلية.
- وأيضا أحد أبنائي طبيب؟
- إن والد الطبيب ليس محصّنا ضد الإصابة بحصوة في الكلية.

وقد استاء الراجا بسبب ذلك أشد الاستياء وصرف الطبيب. ثم حدث بعد ذلك أن جاء الكولونيل بيري من الكلية الطبية في لاهور، وفي صحبته جرّاح بريطاني آخر، لزيارة جامون. فطلب إليهما المهراجا أن يقوما بفحص راجا سورج كَوْل، وأن يصفا له العلاج المناسب.

وخلال عملية الفحص الطبي ذكر الراجا أن حكيما أخبره بأنه يعاني من وجود حصوة في كليته. وحينئذ وجّه الكولونيل بيري زميله الجراح أن يقوم بعمل فتحة صغيرة ليرى ما إذا كانت توجد بالفعل حصوة في الكلية؛ ولكن لم يظهر أثر لوجود الحصوة. وحينئذ أخذ الكولونيل بيري المشرط بيده وقام بتوسيع الفتحة بنفسه، فاكتشف وجود الحصوة واستخرجها. وقد شعر كل من الجراحيْن بالراحة وأثنيا على مهارة وحذق ذلك الحكيم الذي استطاع أن يكتشف وجود الحصوة.

وبعد أن تماثل راجا سورج كَوْل للشفاء، أرسل مرة أخرى في طلب المولوي نور الدين، ولكنه امتنع عن زيارته. فقد شعر أن الراجا ليس على ما يرام تجاهه، وأن زيارته لن تصلح الأمور بينهما. ويبدو أن الراجا قد حث المهراجا على أن يستغني عن خدمات المولوي نور الدين، ولعله ذكر ذلك لبعض زملائه في المجلس، فقد جاء أحدهم لزيارته، وهو باج رام، واقترح عليه أنه من الحكمة أن يقوم بتقديم استقالته للمهراجا، فأخبره بأن الإسلام يمنع أن يقوم الإنسان باختياره بقطع مصدر رزقه. وبالإضافة فقد شعر أن تقديم استقالته قد تُفسر بأنها تعبير عن عدم تقدير الجميل للمهراجا. وبعد ذلك بفترة قصيرة، تسلم مذكرة تقرر الاستغناء عن خدماته.

وعلى الفور أخبر معلمه الروحي عن هذه التطورات، فكتب إليه قائلا:

> إن إحدى الوسائل التي يُظهر بها الله محبته لعبده هي أن يبتليه، والابتلاء الذي أصابك من هذا النوع فلا خوف منه. ويعلم

الله كم دعوته كثيرا بكل إخلاص من أجلك، وسوف أستمر في الابتهال إلى الله تعالى لعلي أتلقى بعض البشارات منه سبحانه وتعالى. إن أدعيتي من أجلك تتميز بأنها أدعية خاصة لصديق مخلص، ومن غير الممكن أن نجد الكلمات التي تصف درجة إيماننا وثقتنا في قدرة الله وفضله عز وجلّ، فهو الإله الحي، والملك العظيم، والرب الذي نسجد دوما على عتبته.

وقد تسلم المولوي نور الدين أجرا كبيرا من الولاية، وكان من وقت لآخر ينال أيضا بعض الهدايا القيّمة في أشكال متعددة، حتى إنه كان يملك دخلا ماليا كبيرا، ولكنه قام باستخدامه كله في الإنفاق على الأغراض النبيلة والطيبة، بما في ذلك رعاية الأيتام، والأرامل، والتلاميذ، والمحتاجين. وكان أحد الإسكافيين الهندوس يملك متجرا لبيع الأحذية، فكان ينصحه دائما أن يقتصد جزءا من ماله لليوم العصيب الذي لا بد أن يأتي في زمن ما؛ ولكنه كان يقول له إن هذا لا يتفق مع كامل ثقته في الله تعالى وتوكله التام عليه، وأنه سبحانه سوف يقدم له من فضله تعالى كل ما يحتاج إليه. وفي اليوم الذي تلقى فيه مذكرة الاستغناء عن خدماته، جاء إليه الإسكافي وقال له: يا حضرة المولوي المحترم. هل تذكر الآن نصيحتي إليك؟ فأجابه قائلا إنه يستنكر نصيحته الآن تماما كما كان يستنكرها من قبل.

وبينما كان لا يزال يتحدث مع الإسكافي صاحب متجر الأحذية، جاءه رسول من خزانة الولاية، وأحضر له رسالة من الخزانة تحمل مبلغا يبلغ أربعمئة وثمانين روبية، تمثل أجره عن الأيام التي قضاها في الخدمة خلال ذلك الشهر. وقد أغضب هذا الإجراء صاحب المتجر، واعتبره

عملا مشينا من جانب موظفي الخزانة. و لم يكد الرجل يلتقط أنفاسه حتى جاء رسول من "ملكة" يحمل مبلغا كبيرا من المال أرسلتها الملكة، كما يحمل أيضا اعتذارا منها بأنها لم تستطع أن تدبر له مبلغا أكبر من ذلك. وقد أذهل ذلك صاحب المتجر. ومن أجل أن يواري خجله تمتم قائلا: إن هذا كله عظيم، ولكنك مدين بما يقرب من مائتي ألف روبية، وبطبيعة الحال فإن دائنك لن يتركك ترحل دون أن تقوم بعمل الترتيبات اللازمة لسداد هذا الديْن. وفي تلك اللحظة وصل وكيل الدائن، ووقف أمام المولوي نور الدين بمنتهى الاحترام، وقال له بأسلوب في غاية الأدب والتقدير: لقد جاءتني تعليمات من سيدي أن أقوم بعمل الترتيبات اللازمة لإتمام رحيلك، ونقل جميع حقائبك وأمتعتك، كما أمرني أيضا بتقديم مبلغ ماليّ لك ليعاونك على نفقات السفر، وترك لك تحديد المبلغ الذي تحتاجه. وقد طلب منه المولوي نور الدين أن يبلغ سيده شكره وامتنانه له، وأضاف قائلا: لقد وصلني من الخزانة ومن مصدر آخر مبلغا يزيد عن حاجتي، وسوف آخذ معي جميع حقائبي بغير أي صعوبة.

وقد هب الإسكافي صاحب المتجر واقفا، وهز رأسه يمينا وشمالا وعلّق على ذلك قائلا: يبدو أن هناك محاباة مع الله أيضا. إننا نعمل بجهد وكد وتعب من الصباح حتى المساء لنكسب بضع روبيات، وهنا نجد أن هذا الدائن الغبي يعرض أن يدفع لمدينه المزيد من المال، بدلا من أن يطالبه بسداد دينه.

وابتسم المولوي نور الدين قائلا: إن الله تعالى عليم بما في قلوب عباده. وسوف أقوم إن شاء الله بسداد كل هذا الدين في وقت قريب. إن هذه أمور أبعد من أن تفهمها.

* * *

انتقل المولوي نور الدين من جامون إلى "بهيرة" حيث قام بتصميم مبنى كبير يصلح أن يكون مسكنا له ويستطيع أن يمارس فيه أيضا عيادة مرضاه. وبينما كانت عملية البناء تجري على قدم وساق، كان عليه أن يسافر إلى لاهور لشراء بعض المواد واللوازم الضرورية المطلوبة لاستكمال البناء. وبعد أن أتم مهمته في لاهور، خطر بباله أن يؤخر عودته إلى "بهيرة" لمدة يوم واحد ليذهب في زيارة سريعة إلى قاديان للقاء حضرة المرزا. وأثناء اللقاء بينهما سأله قائلا: هل أصبحت حرا الآن؟ فأجاب المولوي نور الدين بالإيجاب. وشعر بأنه لن يكون من اللائق أن يطلب الإذن بالمغادرة والسفر في نفس اليوم، ففكر أن يؤجل سفره ليوم أو يومين. وفي اليوم التالي قال له حضرة المرزا المحترم: إنك تحتاج إلى من يرعى أمورك، فارسل لاستدعاء زوجك. وكتب المولوي نور الدين إلى زوجه أن تحضر إلى قاديان. وحيث إنه كان من المتوقع أن يبقى في قاديان لبعض الوقت، أشار عليها بتأجيل العمل في مشروع البناء. وبعد وصول زوج المولوي نور الدين إلى قاديان، قال حضرة المرزا المحترم في أحد الأيام: يا حضرة المولوي المحترم، إنك مغرم بالكتب، ولعله من الأفضل أن تبعث لإحضار مكتبتك من "بهيرة". وقد قام على الفور بعمل الترتيبات اللازمة لاحضار الكتب. وبعد عدة أيام، قال له حضرة المرزا إن عليه ألا يفكر في "بهيرة" ولا يعتبرها موطنه بعد ذلك.

وقد شعر بشيء من القلق لذلك، فهو يستطيع أن لا يزور "بهيرة" بعد الآن، ولكن ربما يكون من المستحيل عليه ألا يفكر في "بهيرة" باعتبارها موطنه. وكان فيما بعد يذكر دائما أن الله تعالى، بخالص فضله، قد وجّه فكره بحيث إنه لم يخطر بباله قط أن "بهيرة" هي موطنه.

كانت قاديان بلدة صغيرة يقطنها بضع مئات من الناس، وتقع على بعد ١١ ميلا (١٧ كيلومتر) من أقرب محطة للقطار ومكتب للتلغراف. وكان الطريق الوحيد الذي يصل إليها رمليا مليئا بالحفر والنتوءات، والوسيلة الوحيدة للاتصال بالعالم الخارجي كانت عن طريق مكتب صغير للبريد. وكانت قاديان تفتقر تماما إلى جميع الوسائل الضرورية للحياة الموجودة في المدن الكبيرة، حتى التزوّد بماء الشرب كان يتم بوسائل عتيقة غير منتظمة. وقد اتخذ المولوي نور الدين مسكنه في بيته المتواضع من الطوب المحروق، ومع ذلك فقد كان سعيدا بتحقق حلم حياته. فإن هدفه الوحيد كان الحصول على رضا الله تعالى من خلال الإخلاص التام والكامل لمعلّمه الروحي، الذي أمره الله تعالى بإحياء الدين وتجديده.

وقد كتب إليه أحد المواطنين البارزين من سكان مدينة "بهيرة" وأخبره بأنه مريض، ولما كان المولوي نور الدين هو طبيب العائلة، فقد طلب إليه المريض أن يأتي إلى "بهيرة" ليتولى علاجه. فكتب إليه المولوي نور الدين بأنه قد هاجر من "بهيرة" وأنه قد استقر بصفة مستمرة في قاديان، وأنه لا يستطيع أن يتحرك خارج قاديان بغير إذن من سيده حضرة المرزا المحترم. وحينئذ كتب المريض إلى حضرة المرزا، وتوسل إليه

أن يسمح للمولوي نور الدين أن يعوده ويتولى أمر علاجه. وذهب المولوي نور الدين إلى "بهيرة" بعد أن تم السماح له بذلك، فقام بعيادة المريض في بيته الذي يقع على أطراف مدينة "بهيرة"، وكتب له الدواء اللازم، ثم غادر المكان دون أن يدخل المدينة، وبغير أن يقابل أحدا من أصحابه، وحتى بدون أن يلقي بنظرة على بيت الأسرة القديم، أو على منْزله الذي بدأ في بنائه وتركه دون أن يكتمل. وعاد المولوي نور الدين إلى قاديان، كما لو أن "بهيرة" لم تكن موطنه في يوم من الأيام.

* * *

وحدث كذلك أن جاء إلى قاديان أحد المواطنين الأثرياء من "روالبندي"، وتوسل إلى حضرة المرزا المحترم أن يسمح لمولوي نور الدين أن يذهب إلى روالبندي لمعالجة أحد أقاربه المرضى. فقال له حضرته: إنني على يقين بأني إذا قلت للمولوي نور الدين أن يلقي بنفسه في المحيط أو يقفز داخل النيران المتأججة، فإنه سوف يفعل ذلك دون أدنى تردد، ولكن ينبغي عليّ أن أراعي أيضا ما يناسبه وأعمل على راحته. إن زوجه تنتظر أن تضع مولودا، ولا أستطيع أن أطلب منه في هذه الظروف أن يغادر قاديان. ولما سمع المولوي نور الدين بذلك، غلبته مشاعر الامتنان حتى إنه لم يستطع أن يجد الكلمات المناسبة للتعبير عن سعادته وفرحه بأن سيده كان شديد الثقة فيه إلى هذه الدرجة.

وجاء أحد الرؤساء المعروفين إلى قاديان وتولى المولوي نور الدين علاجه، وفي أحد الأيام جاءه اثنان من مستخدميه وقالا له إن الحاكم العام للولاية كان على أهبة الاستعداد لزيارة الجزء الخاص من الولاية الذي يرأسه ذلك الرئيس. فطلب الرئيس من المولوي نور الدين أن

يصحبه ليكون موجودا خلال هذه المناسبة. فأخبره بأنه لا يستطيع أن يتحرك قيد أنملة خارج قاديان بغير إذن من سيده. فذهب الموظفان للقاء حضرة المرزا المحترم وقدما له التماس الرئيس بالإذن للمولوي نور الدين. فقال لهما: إن أنشطة حضرة المولوي هنا تشكل مصدرا لمنفعة الكثيرين من الناحية المادية والروحية؛ ولا أرى أنه من المناسب أن يعلق أنشطته هذه من أجل غرض دنيوي.

ثم حدث أن طلب إليه أحد الهندوس من مدينة بطالا أن يفحص زوجه التي تعاني من المرض، وأن يتولى تحديد الدواء المناسب لها. وقد منحه حضرة المرزا المحترم الإذن بالذهاب إلى بطالا لهذا الغرض، وعبر عن أمله أن يتمكن من العودة في نفس الليلة. فذهب إلى بطالا، وتولى فحص السيدة وكتب لها العلاج الذي ينبغي عليها أن تتبعه. وعندما حان وقت رجوعه في رحلة العودة، كان الظلام قد خيّم وبدأت السماء تمطر بغزارة. وحاول الجميع أن يثنوه عن محاولة العودة إلى قاديان في تلك الليلة؛ ولكنه لم يكن ليذعن لرأي أحد. إن سيده يريده أن يعود في تلك الليلة وهو لن يخيّب أمله فيه. وقد جاهد مجاهدة شديدة للعودة خلال العاصفة، وتغلب على جميع الصعوبات في الطريق، وتمكن أخيرا من الوصول إلى قاديان في الجزء الأخير من الليل. وقد قضى حضرة المرزا المحترم ليله في قلق، ثم أخيرا عند أداء صلاة الفجر سأل عما إذا كان حضرة المولوي قد وصل بسلامة الله إلى قاديان، فتقدم المولوي نور الدين وطمأنه على أنه قد وصل سالما بفضل الله.

* * *

وبعد مرور ما يقرب من عام على استيطانه في قاديان، جاء رجل من جامون وقدّم للمولوي نور الدين مئة وخمسة وتسعين ألف روبية نقدا. وكان هذا القدر من المال مساويا تماما للديْن الذي كان مدينا به لدائنه في جامون. وقد استفسر من الرجل عن سبب تقديم هذا المبلغ إليه، فشرح الرجل أن المهراجا قد وضع شرطا في العام السابق يختص بالعقد المتعلق بالغابات في الولاية، وينص ذلك الشرط على أن المتعاقد يدفع نصف ما يحققه من أرباح للمولوي نور الدين. وقد قُدّمت العطاءات على هذا الأساس، ووقع عليه الاختيار للتعاقد، ولذلك فقد أحضر نصف ما حققه من الأرباح ليعطيها للمولوي نور الدين. فطلب منه المولوي نور الدين أن يأخذ المال معه إلى جامون ويتولى دفعه لدائنه هناك. وفي العام التالي جاء الرجل مرة أخرى بنصف ما حققه من الأرباح، ولكن المولوي المحترم رفض قبوله. فأكد له الرجل أنه ملزم بدفع هذا المبلغ إليه حسب شروط العقد، ولكن حضرة المولوي لم يقبل أن يأخذ شيئا منه. فقال له الرجل:

- ولكنك قبلته العام السابق.
- كان ذلك فضل من الله تعالى أكرمني الله به من أجل أن يزيل عن كاهلي ثقل الديْن. وأما الآن، فأنا لست في حاجة إليه.

الفصل التاسع

الحواري المثالي

قام المولوي نور الدين بمبايعة حضرة مرزا غلام أحمد مؤمنا بصدق دعواه بأنه يتلقى الوحي من الله تعالى، وبأنه مأمور بالقيام بمهمة إحياء الإسلام. ولما تلقى حضرته وحيا من الله تعالى يبين أنه هو المسيح الموعود والإمام المهدي، قامت ضده عاصفة عاتية من المعارضة والتكذيب، حتى إن بعض الذين أثنوا عليه من قبل وأكبروه باعتباره أعظم المدافعين عن الإسلام خلال أكثر من ألف عام، تحوّلوا ضده وأدانوه، ووصموه بالكفر، وأفتوا بخروجه من الإسلام، وراحوا يصفونه بأقذع الألفاظ وأحط المعاني. غير أن المولوي نور الدين وقف كالصخر الصامد في تأييده، وبذل أقصى جهده في الدفاع عنه والذوْد عن أهدافه، مؤمنا بصدق وإخلاص أنها الأهداف الحقيقية للإسلام الصحيح.

ومن جانبه، كان المسيح الموعود.. كما سوف نصف حضرة مرزا غلام أحمد من الآن فصاعدا.. يُقدّر أول حوارييه تقديرا عظيما. وعبّر عن هذا التقدير بألفاظ كريمة، كما يتبين من المقطع التالي الذي كتبه باللغة العربية:

> ما زلت مذ أُمِرتُ من حضرة الرب، وأُحييت من الحيّ ذي العجب، أحن إلى عيان أنصار الدين، ولا حنين العطشان إلى الماء المعين. وكنت أصرخ في ليلي ونهاري، وأقول يا رب من أنصاري؟ يا رب من أنصاري؟ إني فرد مهين.

فلما تواتر رفع يد الدعوات، وامتلأ منه جو السماوات، أجيب تضَرُّعي وفارت رحمة رب العالمين. فأعطاني ربي صديقا صدوقا، هو عين أعواني، وخالصة خلصاني، وسلالة أحبّائي في الدين المتين. اسمه كصفاته النورانية: **نور الدين**. هو بهيروي مولدا، وقرشي فاروقي نسبا، من سادة الإسلام ومن ذرّية النجيبين الطيبين. فوصلت بوصوله إلى الجذل المفروق، واستبشرت به كاستبشار السيد ﷺ بالفاروق.° ولقد نسيت أحزاني، مذ جاءني ولقاني، ووجدته في سبيل نصرة الدين من السابقين. وما نفعني مال أحد كماله الذي آتاه لوجه الله ويؤتي من سنين. قد سبق الأقرانَ في البراعة والتبرع والجدوى، ومع ذلك حلمُه أرسخُ من رَضْوى، نبذ العُلق لله تعالى وجعل كل اهتشاشه في كلام رب العالمين. رأيت البذلَ شرْعتَه، والعلم نُجْعته، والحلم سيرته، والتوكل قوّته، وما رأيت مثله عالمًا في العالمين، ولا في خلق مملاق من المنعمين، ولا في الله ولله من الْمُنفقين. وما رأيت عبقريا مثله مذ كنت من المبصرين.

ولَمَّا جاءني ولاقاني ووقع نظري عليه رأيته آية من آيات ربي، وأيقنت أنه دُعائي الذي كنت أداوم عليه، وأُشرِبَ في حسّي، ونبأني حدسي، أنه من عباد الله المنتخبين. وكنت أكره مدح الناس وحمدهم، وبثَّ شمائلهم، خوفا من أنه يضر أنفسهم،

° يجدر التنويه إلى أن العبارة التي تحتها خط لا توجد في الكتاب الأصلي وإنما أقتبسه المترجم من كتاب سيدنا المسيح الموعود عليه السلام. (الناشر)

ولكنني أرى أنه من الذين انكسرت جذباتهم النفسية، وأُزيلت شهواتهم الطبعية، وكان من الآمنين.

ومن آيات كماله أنه لما رأى جروح الإسلام، ووجده كالغريب الْمُستهام، أو كشجر أُزعِج من المقام، إشعَرَّ هَمًّا، وانكدر عيشه غمًّا، وقام لنصرة الدين كالمضطرين. وصنّف كتبًا احتوت على إفادة المعاني الوافرة، وانطوت على الدقائق المتكاثرة، ولم يُسمَع مثلها في كتب الأولين. عباراتها مع رعاية الإيجاز مملوءة من الفصاحة، وألفاظها في نهاية الرشاقة والملاحة، تسقي شرابا طهورا للناظرين. ومثل كتبه كحرير يُضمّخ بعبير، ثم يُلف فيه من درر ويواقيت ومِسْك كثير، ثم يُرتن فيه العنبر ويُجعل كالعجين.

ولا شك إنها جامعة ما تفرق في غيرها من الفوائد، فاقت ما عداها لكثرة ما حواها من الشوارد والزوائد، ولجذب القلوب بحبال الأدلّة والبراهين. طوبَى لمن حصّلها وعرفها وقرأها بإمعان النظر، فلا يجد مثلها من مُعين. ومن أراد حلّ غوامض التنْزيل، واستعلام أسرار كتاب الرب الجليل، فعليه بالانشغال بهذه الكتب وبالعكوف عليها، فإنها كافلة بما يبغيه الطالب الذهين. يُصبي القلوب ريحانها، والثمرات مستكثرة في أغصانها، ولا شك أنها جنَّـــة قطوفها دانية، لا يُسمع فيها لاغية، نُزُلٌ للطيبين. منها: "فصل الخطاب لقضايا أهل الكتاب"، ومنها: "تصديق البراهين". تناسق فيها جزيل المعاني، مع متانة الألفاظ ولطافة المعاني، حتى صارت أسوة للمؤلفين.

ويتمنى المتكلّمون أن ينسجوا على منوالها، وترنّمت عليها ألسنة النحريرين. جواهرها تفوق جواهر النحور، وددرها فاقت درر البحور، وإنها أحسم دليل على كمالاته، وأقطع برهان على رَيَّـــا نفحاته، وستعلمون نبأها بعد حين.

قد شمّر المؤلف الفاضل فيها لتفسير نكات القرآن عن ساق الجد والعناية، واعتنى في تحقيقه باتفاق الرواية والدراية، فواها لهممه العالية، وأفكاره الوقّادة الْمُرضية، فهو فخر المسلمين. وله ملكة عجيبة في استخراج دقائق القرآن، وبث كنوز الفرقان، ولا شك أنه يُنَوَّرُ من أنوار النبوّة، ويأخذ نورًا من نور النبي ﷺ بمناسبة شأن الفتوة، وطهارة الطين. وامرؤ عجيب، وفتًى غريب، تتفجر أنهار أنوار الأسرار بلمحة من لمحاته، وتتدفق مناهل الأفكار برشحة من رشحاته، وهذا فضل الله يهب لمن يشاء وهو خير الواهبين.

لا ريب في أنه نُخبة المتكلّمين، وزبدة المؤلفين، يشرب الناس من عُباب زُلاله، ويُشتَرى كشراب طهور قوارير مقاله، هو فخر البررة والخيرة وفخر المؤمنين. في قلبه أنوار ساطعة من اللطائف والدقائق، إذا تكلم بكلماته النظيفة الطيبة، وملفوظاته البديعة المرتجلة المبتكرة، فكأنه يُصبي القلوب والأرواح بالأغاني اللطيفة، والمزامير الداودية الذفيفة، ويجيء بخارق مبين. يُخرج الحكمة من فمه عند سرد الحديث وسوْق الكلام، كأنها عبب مندفقة متوالية متصاعدة إلى أفواه السامعين.

وإني قد أطلقت أجرد فكري إلى كمالاته، فوجدته وحيد
الدهر في علومه وأعماله وبرّه وصدقاته، وأنه ألمعيٌّ نُخبة
البررة، وزبدة الخيرة، أُعطَى له السخاء والمال، وعُلّقت به
الآمال، فهو سيد خدم الدين، وإني عليه من الغابطين. ينْزل
أهل الآمال بساحته، ويستنْزلون الراحة من راحته، فلا يلوي
عذاره، عمّن ازداره، وأمَّ داره، وينفع بعرفه من وافاه من
المملقين. وهو يجِدُّ للقياني بكمال ميل الجنان، كوَجْدِ المثري
بالعقيان، يأتي من بلاد نازحة على أقدام المحبّة واليقين.

فتًى طيب القلب يُحبنا ونُحبّه، ويسعى إلينا بجهد طاقة، ولو
وجد فواق ناقة، انثال الله عليه من جوائز المجازات، ووصائل
الصلات، وأيّدَ ببقائه الإسلام والمسلمين. له بقلبي عُلَقٌ عجيبة،
وقلبه نفوحٌ غريبة، يختار في حُبّي أنواع الملامة والتعنيف،
ومفارقة الْمَألف والأليف، ويتسنى له هجر الوطن لسماع
كلامي، ويدع التذكر للمعاهد لِحُبّ مقامي، ويتبعني في كل
أمري كما يتبع حركة النبض حركة النفس، وأراه في رضائي
كالفانين.

إذا سُئل أَعطَى ولم يتباطى، وإذا دُعِيَ إلى خطة فهو أول
الملبّين. قلبه سليم، وخلقه عظيم، وكرمه كغزارة السحب،
وصحبته يُصلح قلوب المتقشفين. ووثبه على أعداء الدين وثبة
شبل مثار، قد أمطر الأحجار على الكفار، ونقر عن مسائل
الويديين، ونقب ونزل في بقعة النوكى، وعاقب فجعل سافل
أرضهم عاليها، وثقف كتبه تثقيف العوالي لإفضاح المكذبين.

فأخزى الله الويديين على يده فكأن وجوههم أسفت رمادا، وأُشرِبت سوادًا، وصاروا كالْميّتين. ثم أرادوا الكرّةَ ولكن كيف يَحيَى الأموات بعد موتهم فرجعوا كالمخفقين. ولو كان لهم نصيب من الحياءِ لما عادوا، ولكن صار الوقاحة كالتحجيل في حلية هذا الجيل، فهم يصولون كمذبوحين.

والفاضل النبيل الموصوف من أحب أحبّائي، وهو من الذين بايعوني وأخلصوا معي نية العقد، وأعطوني صفقة العهد، على أن لا يؤثروا شيئًا على الله الأحد، فوجدته من الذين يُراعون عهودهم ويخافون رب العالمين. وهو في هذا الزمن الذي تتطاير فيه الشرور كالماء المعين، الذي ينْزل من السماء ومن المغتنمين. ما آنست في قلب أحدٍ محبة القرآن، كما أرى قلبه مملوءا بمودة الفرقان، شغفه الفرقان حُبًّا، وفي مَيْسَمه يبرق حُبّ آيات مبين. يُقذَفُ في قلبه أنوارٌ من الله الرحمن، فيرى بها ما كان بعيدً محتجبا من دقائق القرآن، ويغبطني أكثر مآثره، وهذا رزق من الله، يرزق عباده كيف يشاء وهو خير الرازقين.

قد جعله الله من الذين ذوي الأيدي والأبصار، وأودع كلامه من حلاوة وطلاوة لا يوجد في غيره من الأسفار، ولفطرته مناسبة تامة بكلام الرب الجليل، وكم من خزائن فيه أُودِعَت لهذا الفتى النبيل، وهذا فضل الله لا منازع له في أرزاقه، فمن عباده رجال ما أعطى لهم بلالة، ورجال آخرون أعطى لهم

غمر، وما هم به من المتعللين. ولعمري إنه امرؤ مواطن عظيمة، صدق فيه قول من قال: "لكل عِلمٍ رجال، ولكل ميدان أبطال"، وصدق فيه قول قائل: "إن في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا"، عافاه الله ورعاه، وأطال عمره في طاعته ورضاه، وجعله من المقبولين.

إني أرى الحكمة قد فاضت على شفتيه، وأنوار السماء قد نزلت لديه، وأرى تواتر نزولها عليه كالمتضيّفين. كلما توجّه إلى تأويل كتاب الله بجمع الأفكار، فتح ينابيع الأسرار، وفجّر عيون اللطائف، وأظهر بدائع المعارف، التي كانت تحت الأستار، ودقّق ذرات الدقائق، ووصل إلى عروق الحقائق، وأتى بنور مبين. يمد العقلاء أعناقهم في وقت تقارير متسلمين لإعجاز كلامه وعجائب تأثيره، يُرِي الحق كسبيكة الذهب ويُزيح شبهات المخالفين.

إن الوقت كان وقت صراصر الفلسفة بل فسد وخبث، وململ كل حدث ما حدث، وكان العلماء معروق العظم صفر الرائحة من دولة العلوم الروحانية، وجواهر الأسرار الرحمانية، فقام هذا الفتى وسقط على أعداء الرسول ﷺ كسقوط الشُهُب على الشياطين. فهو كحدقة العيون في العلماء، وفي فلك الحكمة كالشمس البيضاء، لا يخاف إلاّ الله، ولا يرضى بالآراء السطحية التي منبتها النجد غير خور، بل يبلغ فهمه إلى أسرار دقيقة المآخذ المخفية في أرض غور، فلله درّه، وعلى الله أجره. قد أعاد الله إليه دولة منهوبة، وهو من

الموفقين. والحمد لله الذي وهب لنا هذا الحِبَّ في حينه ووقته وأيام ضرورته، فنسأل الله تعالى أن يُبارك في عمره وصحته وثروته، ويعطينا أوقات مستجابة للأدعية له ولعشيرته، ويشهد فراستي أن هذه الاستجابة أمر محقوق لا مظنون، ونحن في كل يوم من الآملين.

والله إني أرى في كلامه شأنا جديدا، وأراه في كشف أسرار التنْزيل وفهم منطوقه ومفهومه من السابقين. وإني أرى علمه وحلمه كالْجَبَلَيْن الْمُتَنَاوِحَيْن.. ما أدري أيهما فاق الآخر، إنما هو بستان من بساتين الدين المتين. رب أنزل عليه بركات من السماء، واحفظه من شرور الأعداء، وكن معه حيثما كان، وارحم عليه في الدنيا والآخرة، وأنت أرحم الراحمين. آمين ثم آمين.

* * *

وفي إحدى المناسبات كانت كل من زوج المولوي عبد الكريم وزوج المولوي نور الدين تدّعي أن زوجها أقرب صحابة المسيح الموعود إليه. وذهبت كل منهما إلى زوج المسيح الموعود، حضرة أم المؤمنين، لتكون حكما بينهما. فقالت إن الأمر بسيط للغاية ويمكن معرفة الحل في لمح البصر. وذهبت إلى المسيح الموعود وقالت له: إن أحب صحابتك إليك ... فقاطعها بصوت قلق قائلا: هل أصاب المولوي نور الدين شيء؟

وحدث بعد أن توفي المولوي عبد الكريم أن أصاب المرض المولوي نور الدين، فكان المسيح الموعود يزوره يوميا. وذات مرة كان منشغلا

بتحضير دواء له، فشعرت السيدة أم المؤمنين بمدى قلقه وأرادت أن تُسرّي عنه، فقالت: لقد مات المولوي برهان الدين، وانتقل المولوي عبد الكريم إلى رحمة الله، فلعل الله بخالص فضله ورحمته ينعم بالشفاء العاجل على المولوي المحترم. فقال لها المسيح الموعود مؤكدا: إن هذا الرجل يساوي ألفا مثل عبد الكريم.

ووقع أمر بسيط استدعى أن يتوجه المسيح الموعود ببعض نصائحه إلى أصحابه، فقال: إن البعض منكم رأى في كثير من الأحيان العديد من الآيات، ومع ذلك فإن إيمانهم لا يزال يفتقد اليقين الكامل، بينما هناك الآخرون الذين لم يجدوا ضرورة لرؤية أي آية. فهناك المولوي نور الدين الذي آمن على الفور، وهو من نسل الفاروق عمر بن الخطاب، واتبع أسوة حضرة أبي بكر. فلما سمع المولوي نور الدين هذا الكلام هب واقفا وقال: إن حضرة عمر أكد إيمانه بقوله: رضينا بالله ربا وبمحمد نبيا ورسولا. إنني لم يخالجني أي شك في صدق دعواك، ولذلك فإني أؤكد أيضا أني رضيت بالله ربا وبك مسيحا ومهديا. وقد سُر المسيح الموعود بهذا حتى أضاء وجهه تهللا، واستمر في توجيه النصائح لصحابته وأتباعه.

كتب أحد المخالفين للمسيح الموعود عليه السلام يقول إن حضرة المرزا قد نجح في تكوين جماعة لأنه استطاع أن يخدع عددا قليلا من المسلمين، ولو كان قد نجح في إقناع غير المسلمين بالدخول في الإسلام، لاستحق منا أن ننظر في دعواه بعين الاعتبار. فلما بلغ ذلك مسامع المسيح الموعود عليه السلام، أمر المولوي نور الدين أن يعد قائمة بأسماء غير المسلمين الذين دخلوا الإسلام على يد المسيح الموعود عليه السلام. وعند تنفيذ هذا

التوجيه، كتب المولوي نور الدين اسمه على رأس هذه القائمة. فلما أبدى أحد الأصحاب دهشته لهذا الإجراء، شرح المولوي نور الدين وجهة نظره فقال: لقد كان لي الشرف أن أتعلم الإسلام الصحيح فقط على يد المسيح الموعود عليه السلام.

طلب أحد أفراد الجماعة من المسيح الموعود عليه السلام أن يرشح زوجا لابنته، فلما قام بذلك تردد الرجل في العمل بمشورته. وعندما علم المولوي نور الدين بمسلك ذلك الرجل غضب كثيرا وقال له: لو أن حضرة المرزا المحترم أمرني أن أزوّج ابنتي "أَمَة الحي" لابن "نيحالي" (المرأة التي تتولى الكنس وإزالة القاذورات) لما ترددت لحظة في العمل بتوجيهاته.

إن الشخص الذي ينتمي إلى أهل الدنيا قد يعتبر مثل هذا الإخلاص مجرد غباء أو إيمان أعمى، ولكن إيمان المولوي نور الدين كان ينبع من صميم أعماق قلبه، كما كان على بصيرة تامة في قناعته، ولذلك فقد كان على بيّنة كاملة في إيمانه. ومن مقومات هذا الإيمان الاقتناع بأن أولئك الذين يختارهم الله تعالى، فإنه سبحانه يزودهم بشفافية عالية وبصيرة خاصة تمكنهم من رؤية الحق، والتفرقة دائما بين ما هو صحيح وما هو خطأ، والقدرة على معرفة ما يفيد وما يضر. ومن أجل هذا، إذا حدث أن أمَره المسيح الموعود عليه السلام أن يقوم بعمل يتساوى مع إلقاء نفسه في المحيط أو الخوض في النيران المتأججة، فإنه سوف يطيع أمره بغير تردد وهو على قناعة كاملة بأن ما أُمر أن يقوم به يحقق المصلحة. ويتفق هذا مع تعليم القرآن المجيد حيث يقول تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ

تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢١٧)، ﴿فَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء:٢٠).

ولعله مما يجدر ذكره أن "أمَةَ الحي"، ابنة المولوي نور الدين، عندما كبرت تزوجت حضرة صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد، الابن الموعود والخليفة الثاني للمسيح الموعود عليه السلام.

* * *

كان المولوي نور الدين ذات مرة منشغلا بأداء الصلاة عندما سمع المسيح الموعود عليه السلام ينادي عليه، وعلى الفور قطع صلاته وذهب يلبي نداء المسيح الموعود عليه السلام. ولعل أولئك الذين يتمسكون بضرورة أداء الصلاة كما ينبغي أن تؤدى يرون في عمله هذا تصرفا غير لائق، ولكن تصرفا مشابها من جانب صحابي آخر نال رضا المسيح الموعود عليه السلام. فقد حدث أن المولوي سيد سرور شاه، وهو واحد من كبار الفضلاء، تأخر قليلا عن أداء صلاة الجماعة في المسجد، وعند وصوله إلى المسجد أثناء أداء الصلاة، اتخذ مكانه في أقصى الطرف الأيمن من الصف الأخير للمصلين. وبعد تسليم الإمام وقف هو ليكمل ما فاته من ركعات الصلاة، وظل بقية المصلين باقين في مكانهم انتظارا لمغادرة المسيح الموعود عليه السلام قبل أن ينصرفوا من المسجد. وكان طريق المسيح الموعود إلى داره يمر أمام المكان الذي كان سيد سرور شاه يؤدي فيه الصلاة، فتوقف المسيح الموعود عليه السلام حتى لا يمر بين يديه. ولما شعر سيد سرور شاه أنه يسد طريق المسيح الموعود عليه السلام خرج من صلاته على الفور ليمكنه من المرور. فهمس أحد المصلين في أذنه متسائلا: لماذا خرجت

من صلاتك؟ وسمع المسيح الموعود عليه السلام صوت المتكلم الهامس، فعلّق على ذلك قائلا: إن المولوي المحترم تصرّف على الوجه الصحيح. إن الحسنات يذهبن السيئات.

كان من عادة المولوي نور الدين أنه كلما علم أن المسيح الموعود عليه السلام مستعد لاستقباله، فإنه كان يترك كل عمل يقوم به، بل إنه كان يتوقف أثناء نطقه لجملة من الجمل، ويحمل نعليه ويسوّي من عمامته وينطلق للقائه.

وذات مرة أثناء زيارة المسيح الموعود عليه السلام لدلهي، حدث أن مرض حموه حضرة مير ناصر نواب، وكان من رفقاء المسيح الموعود في سفره، فقرر أن يرسل في طلب المولوي نور الدين من قاديان. وأمر بإرسال برقية مختصرة تحمل كلمتين اثنين فقط هما: "احضُرْ حالا". وكان حضرة المولوي في عيادته عندما تسلم البرقية، فنهض على الفور وأرسل رسالة عاجلة إلى زوجه بأن المسيح الموعود عليه السلام. قد استدعاه إلى دلهي. وارتحل إلى "بطالا" كما هو دون أن يكون معه أي نقود في جيبه. وبينما كان ينتظر القطار في محطة بطالا، جاءه أحد الهندوس الأثرياء وطلب منه أن يذهب معه إلى بيته ليقوم بالكشف الطبي على زوجه المريضة. فأخبره بأن عليه أن يستقل القطار القادم إلى "أمرتسر" في طريقه إلى دلهي، ولذلك لن يتمكن من الذهاب إلى البلدة. غير أن الزوج الذي استبد به القلق على زوجه عرض أن يقوم بإحضارها إلى محطة القطار. وبالفعل جاءت الزوجة في صحبة زوجها، فقام المولوي نور الدين بفحصها وكتب لها الدواء اللازم. وقد أراد الزوج أن يعبر

عن شكره وامتنانه لمولوي المحترم، فذهب واشترى له تذكرة القطار للسفر إلى دلهي، كما منحه مبلغا كبيرا من المال. وفي صباح اليوم التالي كان المولوي نور الدين يقدم نفسه أمام سيده عليه السلام في دلهي.

* * *

كان موضوع ولادة المسيح عليه السلام بغير أب من المواضيع التي يثور حولها الخلاف. وكان من وجهة نظر المولوي نور الدين أن المسيح كان له أب. غير أن المسيح الموعود عليه السلام ذكر في كتابه "مواهب الرحمن" أنه يعتقد بأن عيسى عليه السلام قد وُلد بغير أب. فلما قرأ المولوي المحترم هذا الكلام، تخلى عن رأيه فورا ووافق الرأي الذي ذكره المسيح الموعود عليه السلام. وقد اعترف بصراحة بتغيير وجهة نظره هذه في كتابه "نور الدين".

كذلك كان من رأيه أن النار المذكورة في الآية ٢١ من سورة الأنبياء، وهي النار التي أُلقي فيها حضرة إبراهيم عليه السلام، كانت نار المعارضة؛ ولكن المسيح الموعود عليه السلام قال: ليس هناك ما يستدعي التأويل في هذا الموقف، فإن الله تعالى سمّاني أيضا إبراهيم. وعلى أولئك الذين لا يتصورون كيف جعل الله تعالى النار بردا وسلاما على إبراهيم أن يلقوني في النار، ثم يرون ما إذا كنت سوف أخرج من النار سالما أم لا. وعلى هذا، عندما أراد المولوي المحترم أن يفنّد اعتراض "دهرمبال" كتب في كتابه "نور الدين" قائلا: إنك تستطيع أن تلقي إمامنا عليه السلام في النار، وسوف ترى أن الله العلي العظيم سوف ينجيه من النار حسب وعده، تماما كما نجّى إبراهيم عليه السلام.

وعندما شرح المسيح الموعود عليه السلام دعواه بأنه على مقام النبوة الظلية التابعة لنبوة الرسول ﷺ، سأل أحد الأشخاص المولوي نور الدين:

- هل يمكن أن يكون هناك نبي بعد الرسول ﷺ؟
- كلا
- فماذا تقول عن شخص يدّعي أنه نبي؟
- سوف أنظر ما إذا كان صادقا وصالحا، فإن كان كذلك فسوف أنظر في دعواه على هذا الأساس.

هكذا كان نور الدين. ولهذا فإن المسيح الموعود عليه السلام وصفه في أحد أبياته باللغة الفارسية فقال ما تعريبه:

ما أروعَ لو أصبح كل واحد من الأُمة مثل نور الدين
وهذا لا يمكن إلا إذا فــاض كل قلب بنــور اليقين

الفصل العاشر

العالِم البارز

أصبح المولوي نور الدين معروفا بأنه أمهر أطباء زمانه. وفي أمور تشخيص الأمراض وعلاجها، لم يكن هناك من يماثله. والحالات التي كان يبتكر فيها طريقة العلاج، كانت تثبت دائما صدق حدسه وصواب رأيه. ولم يكن لديه أي تفرقة على الإطلاق في العناية بمرضاه؛ فكان كل من الغني والفقير من مرضاه يتلقى أفضل ما يمكن أن يقدمه من عناية واهتمام، كما كان كل مريض ينال أيضا أخلص أدعيته وابتهالاته. وقد حدث في إحدى الليالي أن جاءه شخص استبد به القلق بسبب الآلام المبرحة التي كانت تشعر بها زوجه وهي على وشك الولادة، إذ كان يخشى أن تموت قبل أن يطلع الصبح عليها. وكتب له المولوي نور الدين الدواء اللازم وشرح له كيفية العلاج، وقال له إنه سوف يدعو الله تعالى من أجلها، وطلب منه أن يوالي إخباره عن حالتها. ولكنه لم يسمع شيئا عنها طوال تلك الليلة. فلما أرسل يستفسر عن حالتها في فجر اليوم التالي، جاءه الزوج فرحا سعيدا وأخبره بأن زوجه قد وضعت مولودها بسلام بعد ساعة واحدة من عودته إلى بيته، وأنها قضت ليلة هادئة في راحة تامة.

- فلماذا لم تخبرني بحالتها كما طلبت منك؟
- سيدي، حيث إنه لم يكن هناك ما يستدعي القلق، شعرت بأنه ليس هناك ما يدعو إلى إزعاجك خلال الليل.

- إزعاجي! هل تعلم أنه في الوقت الذي نعمتم فيه جميعا بالراحة والنوم طوال الليل، فإن نور الدين قضى جميع ساعات الليل في ابتهال متواصل دون أن يغمض له جفن؟

* * *

وحدث أنه كان في لاهور ذات مرة، فطُلب منه أن يشير برأيه في حالة سيدة هندوسية تنتمي إلى عائلة من كرام العائلات، إذ حدث أثناء مراسم العزاء التي كانت تشترك فيها لتأبين وفاة أحد أفراد العائلة، وفي ذروة التعبير عن الحزن، أنها وقفت مع بعض النسوة وكانت ترفع ذراعيها فوق رأسها وتخفضها. ويبدو أنها في إحدى المرات رفعت ذراعيها بقوة مما تسبب في تصلب عضلاتها حتى إنها لم تستطع إنزالهما. واحتار الأطباء في هذه الحالة، ولم يعرفوا السبيل لإعادة المرونة إلى عضلات ذراعيها. فلما أخبروه عن حالتها، لم يطلب أن يراها، وحتى بدون أن يدخل الغرفة الكبيرة التي كانت واقفة فيها بغير حراك، أشار عليهم أن يبعثوا لاستدعاء أجمل رجال الحي من ذوي الفتوة والشباب. وعند وصوله أمره أن يدخل إلى الغرفة، ويذهب مباشرة ويقف أمام السيدة، ويتصرف كأنه يريد أن يخلع عنها ثوبها. وعند تنفيذ هذه التعليمات، وحين شعرت السيدة بما ينوي الشاب أن يفعله، أطلقت صرخة وسقطت ذراعيها إلى جانبها. فإن المفاجأة أصابتها بصدمة عصبية نبّهت جهازها العصبي ليعود إلى العمل بصورة طبيعية مرة أخرى.

* * *

غير أن العلاج الجسدي والعصبي لم يكن وحده هو سر تفوقه، فإن اهتمامه البالغ كان هو العمل على علاج الروح، فقد كان يكرّس جهده في الاهتمام بدراسة نفوس البشر والعمل على شفائها. ومن أجل تحقيق هذا الغرض، كانت جميع أدواته الطبية، وكل أدويته، ومرجعه الوحيد في ذلك، هو القرآن المجيد. لقد حفظ النص بأكمله، وكانت معرفته بالكتاب العزيز عميقة وأصيلة. ولم يدع فرصة بغير أن ينهل من ينابيعه، أو بغير أن يعطي بسخاء من كنوز الحكمة التي يحتويها والتي لا نهاية لها، وظل يقوم بتعليم الكتاب الكريم إلى أن لفظ آخر أنفاسه. وكان يقول دائما:

> إن القرآن المجيد هو الغذاء الروحي الذي يقوم به أَوَدي وتعيش به روحي. إنني أقرأه كل يوم، ولكن روحي لا تشبع منه أبدا. إنه شفاء ورحمة ونور وهدى.

> وحين سُئل عن كيف ينبغي أن يُدرس القرآن المجيد، أجاب قائلا:

> إن القرآن الكريم هو أسهل الكتب قراءة في العالم، لمن هو حريص على دراسته. والشرط الأول، والأهم من كل شيء آخر لتحقيق دراسته، هو التحلي بالتقوى. فقد وعد الله تعالى بأنه من يتق الله يعلمه الله. ومن يقْدم على دراسة القرآن المجيد ينبغي أن يتحرر من الحاجة إلى صرف الوقت في كسب عيشه، وإذا تمسك المرء بأساليب التقوى، فإن الله تعالى يتولى توفير الرزق له من حيث لا يحتسب ولا يتصور أو يتوقع، ويكون سبحانه وليه وحافظه ورازقه.

والشرط الثاني الذي ينبغي توفره لدراسة القرآن المجيد هو بذل الجهد اللازم مع وجود الإخلاص الكامل لله تعالى، وذلك من أجل أن يزيل سبحانه جميع العقبات ويذلل كل الصعوبات لفهم الكتاب.

أما أسلوب دراسة القرآن المجيد فهو أن يبدأ الدارس أولا بقراءته من بدايته إلى نهايته كما لو أنه قد أوحي إليه شخصيا، وأن كل آية كانت تخاطبه. فمثلا، عندما يأتي ذكر آدم وإبليس، عليه أن يختبر نفسه ويسأل نفسه ما إذا كان يماثل آدم أو إبليس، وهكذا الحال خلال المتن بأكمله. وعندما تقابله صعوبة ينبغي عليه أن يدونها. وفي القراءة الثانية، ينبغي عليه أن يُشرك معه زوجه وأولاده، وسوف يجد أن معظم الصعوبات التي واجهته في المرة الأولى قد ذُللت. وفي القراءة الثالثة ينبغي عليه أن يُشرك أصحابه، وفي القراءة الرابعة عليه أن يُوَسّع من دائرة المستمعين، وينبغي أن يدعو الله دوما لمعرفة الحلول للصعوبات التي يصادفها.

* * *

إن شرحه للقرآن المجيد كان رائعا. وكان قد دُعي ليتحدث في المؤتمر السنوي لجمعية أنجمن حماية الإسلام في لاهور عام ١٨٩٣، فاختار موضوع حديثه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا

يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور:٣٦). وافتتح خطابه بقوله:

إن بعض المستمعين يتبعون التقاليد الشرقية، والبعض من الأجيال الشابة معجبون بالثقافة والحضارة الغربية، وما أريد أن أتحدث عنه اليوم هو كما يصفه القرآن المجيد بأنه لا شرقي ولا غربي. إن القرآن المجيد يقدم ما يلزم لخير الإنسانية جمعاء.

وبعد ذلك راح يتحدث عن الموضوع الذي اختاره على أساس نص الآية التي تلاها، فسحر المستمعين بأسلوبه وشرحه طوال كل حديثه.

ومن بين الحضور الذين استمعوا لخطابه، كان الداعية الإسلامي المعروف المولوي حسن علي من "بهاغلبور" في "بيهار". وقد سجل انطباعاته عن المحاضرة في الكلمات التالية:

"في عام ١٨٩٣، أتيحت لي فرصة حضور المؤتمر السنوي لأنجمن حماية الإسلام، حيث التقيتُ ذلك المفسر البارز للقرآن الكريم، المولوي الحكيم نور الدين، الذي لا مثيل له، ليس في الهند فقط، بل في المناطق المجاورة والبعيدة كذلك. وكنت قد سمعت عنه أيضا ثناء عظيما عندما زرت البنجاب في عام ١٨٨٧. وفي هذه المناسبة تلا بعض آيات القرآن المجيد ثم راح يشرح معانيها، ولا أستطيع أن أجد الكلمات التي يمكن أن أصف بها مدى تأثُّري العميق بتفسيره للقرآن الكريم. وعندما انتهى من محاضرته، وقفتُ وقلت: إنني فخور بأن عيني قد

رأت مثل هذا العالم العظيم والمفسر القدير. وحق للمسلمين أن يفخروا بأن بينهم مثل هذه الشخصية البارزة.

لقد كنت في شوق للقاء المولوي الحكيم نور الدين، ولكنه أضفى عليّ شرفا عظيما بأن جاء هو للقائي. وخلال تبادلنا الحديث، سألته قائلا: إنك بايعت حضرة المرزا، فهل لك أن تخبرني ماذا استفدت من ذلك؟ فأجابني قائلا: لقد حاولت كثيرا أن أتخلص من أحد الذنوب ولكني لم أنجح في ذلك، وبعد أن بايعتُ حضرته، فإني لم أتخلص من تلك المعصية فحسب، بل بدأتْ نفسي تعافها وتكرهها.

ولو أنه كان قد ذكر لي بعض المعجزات أو بعض الأنباء الغيبية التي ذكرها حضرة مرزا غلام أحمد، فلعلي ما كنت أعطي لكلامه أهمية كبيرة. وإنما الإجابة التي سمعتها منه أثرت في نفسي تأثيرا عميقا.

وفيما بعد، زار المولوي حسن علي قاديان، والتقى المسيح الموعود عليه السلام، وقضى بعض الوقت في صحبته، ودخل في بيعته. وقد أثبت أنه عضو صادق ومخلص من أعضاء الجماعة الإسلامية الأحمدية. وقد دخل في الجماعة أعداد غفيرة من الناس استجابة لدعوته لهم.

* * *

وأثناء مرور المولوي نور الدين بلاهور في إحدى المناسبات خلال شهر فبراير (شباط) من عام ١٩٠١، دُعي لإلقاء محاضرة في جمع كبير، فتحدث عن وجود الله تعالى على أساس الحقائق التي ذكرها القرآن

المجيد. واصطحب أحد أفراد الجماعة الإسلامية الأحمدية صديقا له اسمه جلال الدين ليستمعا إلى المحاضرة، وكان صديقه هذا يعمل كاتبا في مكتب السكك الحديدية، وكان أيضا ملحدا متعصبا. وانتهت المحاضرة في الساعة الواحدة والنصف، فانصرف المستمعون. وفي عصر اليوم التالي اعترف جلال الدين بعد عودته من عمله لصديقه أنه بعد سماعه محاضرة المولوي نور الدين، قد تاب إلى الله من إلحاده، وأنه يؤمن الآن إيمانا صادقا بالله عز وجل. وكان على ثقة قوية بأن أحدا لا يستطيع أن يدحض الدلائل والبراهين التي قدمها المولوي نور الدين.

وفي شهر يونيو (حزيران) عام ١٩٠٢، جاء إلى قاديان شاب هندوسي ودخل في الإسلام. وقد أمر المسيح الموعود عليه السلام المولوي نور الدين أن يتولى تعليمه مبادئ الإسلام الأساسية، فقال له ما يلي:

الإسلام يعني ثلاثة أمور. الأول، الإيمان بأن الخالق الذي يدبر أمر كل شيء في الكون هو واحد، ولا يوجد أحد سواه يستحق أن يسجد له المرء، ولا يصوم من أجله، ولا أن يذبح حيوانا باسمه (لأنه وحده رب كل مخلوق حي)، ولا يطوف من أجله. وكل خوف وكل أمل ينبغي أن يكون له ومن أجله. وهذا معنى: لا إله إلا الله. إن كل ألم، وكل راحة، وتلبية كل حاجة تتم بأمره، فينبغي أن تتوجه إليه كل الأدعية. والإيمان المخلص بكل هذا يعني أن يكون المرء مسلما. ولا يوجد أي طقوس معينة لتحقيق ذلك.

الخطوة التالية هي الإيمان بأن محمدا صلى الله عليه وسلم هو نبي الله ورسوله. لقد بُعث في العالم من أجل إعلان عظمة وقدسية وحمد الله

تعالى، ولتعليم الناس هذه الأمور. وعلى هذا فإن العنصر الثاني في الإسلام هو: محمد رسول الله.

والعنصر الثالث في الإسلام هو العمل من أجل خير جميع خلق الله.

وبالإضافة، فإنه ينبغي على المسلم أن يؤمن بالملائكة والرسل والكتب المقدسة، وأيضا بأن هناك ثوابا وعقابا لكل عمل. وهذه هو الحساب الأخير.

هذه هي دعائم الإيمان. وينبغي أيضا على المسلم أن يقوم بأداء الصلاة وأن يصوم في شهر رمضان، وأن يؤدي حق الزكاة من أجل رفع مستوى الفقراء، وأن يؤدي فريضة الحج إلى مكة إن استطاع إلى ذلك سبيلا.

وباختصار، فإن الإسلام يعني الإيمان الصادق؛ والإنسان الذي يؤمن بصدق وإخلاص، وتتوافق أعماله مع إيمانه، يكون مسلما. ولهذا ينبغي عليك أن تؤمن بأنه: لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وليس هناك من طقوس لهذا. غير أنه من الضروري لك أن تغتسل لكي يمكن لك أن تدعو الله تعالى فتقول: يا الله! إنني أغسل جسدي ليكون نظيفا من كل قذر. وأيضا عليك أن تغير ملابسك كرمز يشير إلى أنك قد تخليت عن كسلك.

وقد أطلق المسيح الموعود عليه السلام على ذلك الشاب اسم "عبد الله". وعمل لعدة سنوات بنشاط وحماسة في مستشفى نور، وأصبح معروفا

باسم الدكتور عبد الله. وقدّم مثالا رائعا للحياة الصالحة الفاضلة، وكان من الشخصيات المحبوبة.

* * *

وبتوجيه من المسيح الموعود عليه السلام، قام المولوي نور الدين بتسجيل تفسير مختصر لسورة العصر من القرآن المجيد على آلة الفونوجراف، وكان ذلك في شهر أكتوبر عام ١٩٠٢. وقد قال فيه ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم. والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر. إن الله تعالى رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، قد وضع بخالص فضله في هذه السورة القصيرة الطرق المختلفة للوصول إلى قربه وتحقيق الراحة ونوال الشرف والحصول على التقدم. أولا بيّن سبحانه أن زمن مبعوث الله وزمن حصول الإنسان على المعرفة الكاملة والعلم النافع، هو مثل الوقت الأخير من النهار عند زوال الشمس. ولما كان الوقت الذي يلي ذلك خاليا من أداء الصلاة في جماعة، التي هي مصدر للرفعة الروحية للمؤمنين والقرب من الله تعالى، والتي هي فرصة متاحة للدعاء والابتهال إليه؛ لذلك بعد زمن المبعوث الإلهي، الذي هو زمن المعرفة الكاملة للإنسان والعلم النافع، لا يوجد أي وقت للإنسان يستطيع خلاله أن يعوّض ما خسره أو يصحح من نقائصه. ولهذا، ينبغي على الإنسان في زمن المبعوث السماوي حينما يتمتع بالفهم الكامل، ينبغي عليه أن ينشغل بما يلي: (أ) الحصول على المعرفة الحقيقية والصحيحة عن وجود الله تعالى

ووحدانيته وتفرّده وأنه بلا شريك في صفاته وفي عظمته، وأن يعمل بحسب الوحي المقدس الذي تتنَزل به ملائكة الله، وأن يؤمن بكتبه المقدسة، ورسله الكرام، ويوم الحساب، وجميع الحقائق الأخرى. (ب) أن يعمل بحسب هذه الحقائق بكل صدق وإخلاص. (ج) يستمر إلى أن يلفظ أنفاسه في العمل على نشر الحق. (د) يعمل على حث الآخرين وإقناعهم بالعمل حسب كل هذه الحقائق حتى ينال الثبات على الحق بنبذ جميع أنواع الذنوب واتباع جميع أنواع الفضائل.

ويصف أحد الوافدين الجدد إلى قاديان في شهر فبراير (شباط) ١٩٠٣ انطباعاته فيقول:

وصلت أنا ورفيقي إلى قاديان عند وقت صلاة العصر، فأخبرونا أن نذهب إلى المسجد الأقصى لأداء الصلاة. وبعد أداء الصلاة انتظم المصلون في حلقة وفي أيديهم المصحف الشريف ليستمعوا إلى درس القرآن الذي قدمه شخص كان يبدو عليه أنه شخصية عظيمة ذات وقار مهيب ومكانة عالية. وقد بدأ الدرس فتلى بعض الآيات من القرآن المجيد بأسلوب أخّاذ فتن قلوب مستمعيه وحرك مشاعرهم وأخذ بألبابهم. وبعد ذلك راح يشرح ويفسر معاني الآيات التي تلاها، وأوضح الفلسفة التي تتضمنها والحكمة التي تحتويها. إنني لم أسمع في حياتي شيئا مثيلا لهذا من قبل، حتى إن قلبي تحرك من أعماقه وفاضت مشاعري، فسألت جاري الذي كنت جالسا

بجواره: هل هذا هو المسيح الموعود عليه السلام؟ فقال: لا، هذا هو المولوي نور الدين. وقد أخذتني الدهشة واستبد بي العجب. فإذا كانت هذه اللؤلؤة النادرة هي مجرد تلميذ للمسيح الموعود عليه السلام، فما أعظم وأعلى وأرفع مقام المعلم!

كان رئيس تحرير جريدة "بدر" عالما نحريرا متميزا في صفاته، وقد وصف انطباعاته عن الدرس اليومي للقرآن الكريم الذي كان يقدمه المولوي نور الدين، فقال:

إنه لم يبدأ هذا الدرس في قاديان، وإنما كان يقوم بهذا العمل الجليل منذ زمن طويل. لقد كنت صغير السن عندما بدأت حضور درس القرآن الذي كان يقدمه في جامون وفي كشمير. وكان درس القرآن هذا هو الذي جعلني مسلما حقيقيا، وكان هذا الدرس أيضا هو الذي جعلني أحمديا فيما بعد. لقد كانت هذه الدروس مفيدة للغاية، ورغم أني كنت أحضرها يوميا على مدى عدة سنوات، إلا أني ما زلت أحقق منها كل يوم الكثير من الفوائد الجديدة. وقد وجدت أن الصغير والشاب والكبير يستطيع أن يستخلص من هذه الدروس الكثير من الفوائد والعبر، كلّ واحد منهم بحسب قدراته الخاصة. فالجاهل يتعلم منها الكثير، والعالم يجد فيها ما يضيفه إلى علومه ومعارفه. وإحدى النعم التي كان يتمتع بها أولئك الذين اتخذوا من قاديان مقاما لهم كان درس القرآن هذا. فعسى الله أن يحفظه لنا دوما حتى نكون من أولئك الذين ينالون فضل الله تعالى وينعمون برحمته من خلاله.

كان المولوي نور الدين يردد دائما إنه لو أن الله تعالى سأله عن أحب شيء إليه لسأله أن ينعم عليه بالقرآن المجيد.

وكان والد كاتب هذه السطور قد استكمل حفظ القرآن المجيد خلال السنوات الأخيرة من ممارسته العمل في سلك المحاماة. وعندما ذكر ذلك للمولوي نور الدين سُر كثيرا، وعلّق على ذلك أمام الحضور فقال:

> إن نصر الله يحب نور الدين حبا جمّا، حتى إنه لحرصه على نوال حبه حفظ في ذاكرته أعظم شيء يحبه نور الدين، وبهذا فقد ضمن لنفسه حب نور الدين.

كذلك ذكر الحافظ روشن علي، الذي كان أحد تلاميذه البارزين:

> عندما كنت أتعلم كيفية حفظ القرآن المجيد في "وزيرأباد" تحت إشراف خالي الحافظ غلام رسول، رأيت في رؤيا شخصا جليلا ذا وقار وفضل يعطيني كأسا مليئا بالحليب ويقول: اشرب هذا. فشربت الجزء الأكبر من الحليب، فقال: اشرب أكثر. فشربت أكثر. و لم أفهم معنى هذه الرؤيا في ذلك الوقت، ولكني عندما جئت إلى قاديان تبينت أن الرجل الجليل الذي رأيته في رؤياي كان هو المولوي نور الدين. لقد كنت أجلس إليه خلال الليل أتعلم منه، ولكنه لم يكن يشعر أبدا بالتعب أو الملل.

* * *

من بين أولئك الذين حضروا درس القرآن اليومي للمولوي نور الدين، كان البعض منهم يسجل الكثير من التفاسير التي يقدمها، وقد تم نشر مختارات منها. ولكن المولوي نور الدين نفسه لم ينشر أي تفسير. وكان رأيه في هذا الموضوع: إن القرآن المجيد هو كلام الله تعالى، وكما أنه سبحانه غير محدود، فكذلك معاني كلامه غير محدودة. ولهذا لا نستطيع أن نحصر معاني القرآن الكريم في تفسير معين أو في بعض الأفكار المحدودة. وقد أضاف إلى هذا قائلا:

بما أن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، كان من الطبيعي أن يتولى سبحانه تفسيره وبيان معانيه، ولكنه لم يفعل، وكذلك فإن رسول الله ﷺ لم يقدم تفسيرا للكتاب العزيز. ثم خلفه أربعة من الخلفاء الراشدين، ولم يكتب واحد منهم تفسيرا للقرآن الكريم. ولم يفعل هذا واحد من أصحاب المذاهب الأربعة، أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل، رغم أن أولهم لم يكن بعيدا عن زمن رسول الله ﷺ، والتقى بعضا من صحابته. وأيضا من بين الأئمة الذين جمعوا الأحاديث الشريفة، كان البخاري والترمذي وأبو داود من أفاضل العلماء البارزين، ولكن لم يكتب واحد منهم تفسيرا للقرآن الكريم. وكذلك من بين المتصوفين، من أمثال معين الدين التشتي، وشاه النقشبندي، وسيد عبد القادر الجيلاني وآخرين، كانوا من عظماء الرجال الذين وهبهم الله تعالى من المعارف ما يفيد العامة والخاصة، ومع ذلك لم يكتبوا أي تفسير. لقد

كتب شهاب الدين السهروردي تفسيرا ولكنه لم يحتو على شيء أصيل.

والمسيح الموعود عليه السلام، وهو المبعوث الإلهي لخدمة القرآن الكريم، لم ينشر أي ترجمة ولا تفسير له. إن الناس تجني الكثير من الفوائد من ترجمات القرآن المجيد والتفاسير التي نُشرت له، ولكن معظم الناس يميلون إلى اعتبار تلك التفاسير هي الكلمة الأخيرة، ويتوقفون عن التفكر والتدبر في القرآن الكريم اعتمادا عليها، مما يتسبب في الكثير من الضرر.

لقد كتبت تفسيرا للقرآن المجيد، وحثّني بعض الأصدقاء على طبعه ونشره. ثم تفكرت في أن أولئك الذين سوف يأتون من بعدي قد يعتبرونه الكلمة الأخيرة في التفسير، فيغلقون على أنفسهم باب الحق والحكمة التي يحتويها القرآن المجيد. إنه كتاب الله العزيز، وهو يقدم الإجابات والحلول لمشاكل كل عصر، وفيه الشفاء لجميع العلل وأمراض الروح في جميع الظروف. ولذلك ينبغي ألا تنحصر معارفه وفوائده. ومن أجل هذا فقد تخليت عن فكرة أن أحاول وضع مياه المحيط في إبريق.

* * *

كان شغفه بالمعرفة لا يعرف حدودا ولا نهاية. وقد كوّن مكتبة كبيرة تضم العديد من الكتب النادرة في مخطوطات جُمعت أو نُسخت من قريب أو من بعيد. وذات مرة أرسل واحدا من تلاميذه إلى بهوبال،

وهو المولوي غلام نبي، كي يكتب نسخة من تفسير الشوكاني، الذي كان محفوظا في مكتبة "نور الحسن خان"، ابن نواب صديق حسن خان، وكان في ستة أجزاء. وقد استغرق المولوي غلام نبي عاما كاملا ليستكمل نسخه.

وعند عودته من بهوبال، طلب منه أن يتوجه إلى مصر ويكتب نسخة من كتاب "شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والتعليل" لابن القيّم، وذلك من مكتبة جامعة الأزهر ومكتبة الحكومة المصرية. وكان حجمه حوالي ٨٠٠ صفحة، مما أبقى المولوي غلام نبي مشغولا بنسخة لمدة ١٨ شهرا. والكتاب الآخر الذي نسخة أيضا كان كتاب جلال الدين السيوطي "حمائل الهوام ومعه شرح جامع الجوامع" الذي كان يقع في ٧٠٠ صفحة.

كذلك فقد شملت قراءات المولوي نور الدين مجالات واسعة من الأدب، فقد قرأ كل أعمال شكسبير باللغة العربية.

ويذكر كاتب هذه السطور أنه استمع إلى محاضرة للمرحوم سماحة القاضي "شاه دين" القاضي في المحكمة العليا بالبنجاب، قدمها في "أبوت أباد" عن موضوع التعليم، وكان ذلك في شهر سبتمبر من عام ١٩١٠. وقال في نهاية المحاضرة:

> وعلى أساس المعايير التي قدمتها أمامكم، فإنه من بين الدائرة الواسعة التي تضم أصدقائي ومعارفي، يكون الوحيد الذي يُعتبر بحق الشخص المتعلم على الوجه الأكمل هو المولوي الحكيم نور الدين من قاديان.

* * *

في شهر أغسطس (آب) من عام ١٨٩٤، حدث أن مرض نواب "بهاولبور"، وقد نصحه معلمه الروحي الخوجة غلام فريد أن يبعث في طلب المولوي الحكيم نور الدين من قاديان. وكتب النواب إلى المسيح الموعود عليه السلام يرجوه أن يرسل المولوي المحترم إلى بهاولبور لبضعة أيام كي يقوم بفحصه وعلاجه. فلما وصل وقام بالمهمة المنوط بها الخاصة بالنواب، بدأ يعد العدة للرحيل والعودة إلى قاديان. وحينذاك استطاع الخوجة غلام فريد أن يحصل له على إذن من المسيح الموعود عليه السلام بالبقاء في بهاولبور وقتا أطول. وقال للمولوي المحترم إن الهدف الحقيقي لطلبه هو التعرف على شخصه والإنصات لشرحه عن حقائق القرآن المجيد، وقد كان مرض النواب هو الذي أتاح الفرصة كي يرسلوا في طلبه. وحيث إنه موجود الآن في بهاولبور، فإنهم في شوق وشغف أن يتعلموا منه شيئا من تفسير القرآن الكريم. وعلى هذا بدأ المولوي نور الدين في تقديم سلسلة من دروس القرآن في بهاولبور. وعندما اقترب موعد انتهاء فترة بقائه هناك، اقترح الخوجة غلام فريد على النواب أن يعمل على إقناعه بالاستقرار الدائم في بهاولبور. فلما عرض النواب الأمر عليه، ورغم أن الفكرة كانت مرفوضة تماما، إلا أنه أراد أن يبين عدم جدواها، فسأل النواب:

- إذا حدث أن قبلت اقتراحك هذا، فما هي الإجراءات التي سوف تتخذها لإقامتي هنا.
- سوف أمنحك ستين ألف فدان من الأراضي المزروعة.
- وماذا أفعل بها؟

- تستطيع أن تشرف على زراعتها وتصبح من كبار الأثرياء.
- لقد جئتَ إليّ وأنا على ما أنا عليه طالبا مني النصح والهدى، فإذا صرتُ من كبار الأغنياء، هل ستأتي إليّ طالبا النصح والهدى؟
- كلا بالطبع.
- إذاً، فما الذي استفيده؟

وبطبيعة الحال، لم يكن النواب يدري أهمية ومدى تأثير القيم العليا التي تحكم حياة المولوي نور الدين.

* * *

وفي عام ١٨٩٦، كتب نواب محمد علي خان إلى المسيح الموعود عليه السلام يخبره بأنه شغوف لتعلم القرآن المجيد، وتوجه إليه برجاء أن يتفضل بتكليف المولوي نور الدين أن يذهب إلى "ماليركوتلا" ويقوم بتعليمه الكتاب العزيز. وعندما تلقى المولوي المحترم توجيه المسيح الموعود عليه السلام، ذهب إلى ماليركوتلا وبقي هناك لعدة شهور. وقد أقام في أول الأمر في المدينة، ثم انتقل بعد ذلك إلى منْزل نواب المحترم في "شيروان كوت". كان نواب المحترم يزوره يوميا لتلقي الدرس، وكان يتناول معه وجبة غداء الظهيرة. وتبعه إلى شيروان كوت بعض تلاميذه من قاديان، فأعد نواب المحترم جميع ترتيبات إقامتهم ومعيشتهم. وقد اكتمل تعليمه القرآن المجيد في ستة أشهر. وفي ذلك الوقت كان هناك طبيب يمارس الطب في ماليركوتلا، واسمه "باجات رام صاني"، وكان أصلا من "بهيرة" وخدم في كشمير. كان ينظر إلى المولوي نور الدين بعين التقدير والاحترام، وقام بزيارته من وقت لآخر. وفي أحد الأيام ذكر أنه استطاع أن يكسب ألف روبية في الشهر بغير أن يضطر إلى الانتقال خارج

ماليركوتلا، وقد أخبره المولوي المحترم بأنه أيضا كسب مبلغا مشابها بغير أن ينتقل إلى أي مكان.

وفيما بعد، وفي خطاب كان موجها إلى نواب محمد علي خان، كتب يقول:

> تذكر دائما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللّٰهَ يَجْعَلْ لَّهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق:٣-٤). إن هذا العبد الخطّاء لم يتق الله كما ينبغي له، ومع ذلك فإن الله تعالى يرزقه من حيث لا يحتسب. وأثناء إقامتي في ماليركوتلا كانت هناك بعض النفقات التي بلغت حوالي ألفين وخمسمئة روبية، ولا يمكن لك أن تتصور من أين جاءت تلك النفقات، فالله وحده يعلم من أين جاءت، وحتى زوجتي نفسها لا تعرف ذلك.

* * *

لم يكن المولوي نور الدين حريصا على الدخول في أي مناظرة مع أحد، ولكن إذا اضطره أحد لذلك ولم يجد أي خيار آخر، كان يدعو الله تعالى كي ينير بصيرته، فكان سبحانه يهديه دائما إلى الحق. وحدث خلال إحدى زياراته إلى لاهور أن جاء محامي هندوسي لرؤيته، وكان قد أخبر أصدقاءه أنه سوف يواجه المولوي نور الدين، وسوف يُلجمه فلا يستطيع الرد عليه، وذلك في موضوع تناسخ الأرواح. وكانت حجته أن الاختلاف في أحوال الإنسان وظروفه، من غنى وحاجة، وثراء وفاقة، وعلو المقام واتضاعه، وفي الصحة والمرض، إلى آخر ذلك، لا

يمكن شرحه وتبريره إلا على أساس أنه نتيجة سلوك الإنسان في دورة وجوده السابقة، وأن الله لا يستطيع أن يغير شيئا في هذا الخصوص. وقبل أن يطرق الموضوع أخرج المولوي نور الدين من جيبه روبيتين من الفضة ووضعهما أمام المحامي، ودعاه أن يلتقط واحدة منهما. وجلس المحامي صامتا وهو يفكر في الروبيتين، و لم يتحرك و لم تبد منه أي حركة لتناول إحداهما لمدة تقرب من نصف الساعة. وتعجب الحاضرون في حيرة من هذه الدراما الصامتة، وسأل أحدهم المحامي عما يمنعه من تناول إحدى العُملتين؟

فأجاب قائلا:

- إنني في مشكلة عويصة. ففي اللحظة التي ألتقط فيها إحدى العملتين، سوف يسألني عن السبب في التقاط هذه الروبية وليست الأخرى. وحينئذ سوف تواجهني مشكلة، وهي إن كان لي الحرية في تفضيل واحدة من العملتين على الأخرى، أفلا يكون لله الحرية في أن يجعل بين خلائقه تنوعا على أوسع نطاق في الحالات والظروف؟ ولا أستطيع الآن أن أفكر في حل لهذه المشكلة، ولذلك سوف أعود مرة أخرى بعد أن يتوفر لديّ الوقت الكافي في التفكير اللازم.

ولكنه لم يعد بعد ذلك أبدا.

وحدث كذلك لأحد دعاة المسيحية أن وجد نفسه في وضع حرج فيما يختص بعقيدة التثليث، فحاول الخروج من المأزق من خلال الادّعاء المهين بأن العقل الآسيوي ليس لديه القدرة على فهم أسرار عقيدة الثالوث. وقد أثار هذا ردا سريعا من المولوي المحترم حيث قال:

– فعلا! وهذا يشرح الأمر برُمته. فهذا هو السبب الذي من أجله لم يستطع يسوع ولا بطرس ولا بولس أن يفهموا هذه العقيدة أيضا، وكلهم لهم عقل آسيوي.

وحدث أن قدّم أحد المبشرين المسيحيين للمولوي نور الدين كتابا ألفه باسم "القرآن يمكن الاستغناء عنه"، وطلب منه أن يدرسه بعناية كاملة. وكان الأساس الذي يرتكز عليه الكتاب هو أن القرآن ليس كلام الله تعالى، وإنما هو مجموعة من العقائد والتعاليم مكتوبة باللغة العربية، ولكنها منتقاة من الكتب المقدسة السابقة مثل التوراة والإنجيل والفيدا والزندافستا وغيرها. وقد اختار المؤلف عددا من الآيات القرآنية، وسعى لتقصي آثار كل واحدة منها ليربطها مع ما يماثلها في الكتب الأخرى. ولم يستغرق المولوي نور الدين وقتا طويلا في دراسة الكتاب وأعاده للمؤلف مع التعليق التالي:

– إنني أشعر بعظيم الامتنان لك لإعطائي فرصة قراءة كتابك. فإن التمعن في دراسة الكتاب قد زاد قوة إيماني وأعاد تثبيت قناعتي بأن القرآن المجيد هو بحق كلام الله تعالى. فإن جمْع ودراسة الكتب المقدسة المختلفة والمكتوبة بلغات متباينة مثل اللغة السنسكريتية والبهلوية والعبرية والأرامية والباليّة وغيرها (ويقال إن دراسة الفيدا وحدها تحتاج إلى أربعين عاما)، ثم ترتيب وجمع الحقائق التي تحتويها هذه الكتب، كان بلا أدنى شك أكبر من قدرات ومصادر عربي أمّي كان يعيش في الجزء الأول من القرن السابع الميلادي. كما أن القرآن المجيد وحده يقدم الفلسفة

والحكمة من وراء تقديم هذه الحقائق، ويؤكد العلاقة بين العقل والقانون الطبيعي. فقبل أن يأتي القرآن المجيد، كان الملوك والحكام يفرضون أفكارهم الدينية وعقائدهم على أقوامهم عن طريق الإكراه والإلزام؛ ولم يسمح رجال الدين بأي تساؤل أو اعتراض على شرحهم وتفسيرهم للمسائل الدينية. والمعلمون الذين كانوا يتولون تعليم الأمور الدينية لم يسمحوا بأي حرية في التفكير من جانب تلاميذهم. أما القرآن المجيد فقد جاء معلنا لبداية زمن الحرية الفكرية، ويحمل التوجيهات التالية: أفلا يعقلون.. أفلا يتفكرون.. ألا يتدبرون القرآن؟

* * *

كان هناك أحد الفلاسفة من كبار السن، وكان من عادته أن يسأل كل واحد أن يقوم بتعريف هذا الأمر أو ذاك، ثم يقوم هو بتحليل الإجابة التي يتلقاها ويُظهر ما فيها من أخطاء أو عيوب، ويهدف بذلك إلى أن يتأثر الناس بمدى علمه الواسع ويثنوا على عبقريته. وفي إحدى المناسبات سأل المولوي نورَ الدين: ما هي الحكمة؟ فأجاب قائلا: الحكمة هي أن تتجنب كل معصية وذنب، من اتخاذ شركاء لله تعالى إلى أقلّ أمر من أمور عدم الكياسة. وقد فوجئ الفيلسوف بهذه الإجابة، فسأله قائلا: ما الذي يؤيد رأيك هذا؟ فالتفتَ المولوي نور الدين إلى أحد الحفّاظ الذين تصادف وجودهم، وقال له: من فضلك اقرأْ وترجِمْ للفيلسوف المقطعَ الرابع والخامس من سورة الإسراء في القرآن المجيد، وقد قام الحافظ بذلك. وكان ذلك الجزء هو ما يلي:

﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِـدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ۞ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۞ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ۞ وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۞ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۞ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُورًا ۞ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ۞ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ۞ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلاً ۞ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ۞ وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ۞ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ۞ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ۞ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ

طُولاً ۞ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ۞ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ (الإسراء:٢٤-٤٠).

وقد صمت الفيلسوف هذه المرة و لم ينبس ببنت شفة.

الفصل الحادي عشر
المستشار الحكيم

كان التمرّد الذي وقع في الهند، وسُمّي فيما بعد بحرب الاستقلال، قد ترك مسلمي الهند يئنّون بلا معين تحت وطأة البؤس واليأس. وكانت شركة الهند الشرقية هي الحاكم الحقيقي للهند، وقد اعتبرت بطريق الخطأ أن المسلمين كانوا هم المسئولين بوجه عام عن فظائع ذلك التمرّد، فاتخذت منهم مسلكا انتقاميا. وكان آخر أباطرة المغول – ولا شك أنه كان أقلهم شأنا أيضا – يتقاضى معاشه من الشركة الإنجليزية، ولم يكن سوى مجرد ألعوبة في يدها، ولم يكن يتمتع بأي سُلطة على الإطلاق. وكان المتمردون قد أجبروه على أن يبدي تعاطفا مع أهدافهم، ولم يكن له أي اختيار في الموقف الصعب الذي وجد نفسه فيه. وقد دفع هو ومن حوله الثمن غاليا ومأساويا لحظه السيّئ، فقد تم نفيه إلى بورما، وانتهى وجوده البائس في رانجون حيث تم دفنه هناك.

وعندما كان موجودا في دلهي، كان على الأقل يُعتبر مجرد رمز يُذكّر المسلمين بمجدهم الغابر، وساعد على بقاء خيال الأمل في وجود مركز ثقافي واجتماعي للتجمع حوله. وبرحيله، لم يبق للمسلمين شيء سوى الحقيقة المأساوية الصارخة. وكانت أحوال الدين والثقافة في انحدار واضمحلال، وكان رجال الدين المسلمون بوجه عام متخلفين ويسودهم الجهل.

ومع تقلد التاج البريطاني لشؤون الإدارة للهند البريطانية، بدأت الأمور في التحسن بعض الشيء، ببطء وبتردد. غير أن المسلمين ظلوا في عجز شديد، ولم يستطيعوا أن يستفيدوا من تحسن الظروف الجديدة. وبناء على نصيحة اللورد ماكولي، تقرر اعتبار اللغة الإنجليزية هي لغة التعليم العالي في الهند. ومما يؤسف له أن رجال الدين المسلمين أعلنوا أن تعلم اللغة الإنجليزية يعتبر أمرا منافيا للإسلام، وقد أضاف هذا إلى عجز المسلمين. وفي الوقت الذي استفاد فيه غير المسلمين كل الفائدة من الإمكانيات التي أصبحت متاحة للحصول على التعليم العالي، فإن المسلمين كانوا دوما يزدادون تأخرا. فكان جهلهم باللغة الإنجليزية يقف سدا منيعا أمامهم يحرمهم من تقلد الوظائف في مكاتب الحكومة ودواوينها، والتي احتكرها غير المسلمين.

كذلك كان النقص الكامل في وجود قيادة مستنيرة هو أكبر وأخطر ما يفتقدونه. وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر، حاول السير "سيد أحمد خان"، الذي صار معروفا فيما بعد باسم "سير سيد"، أن يكرّس نفسه لملأ الفراغ القيادي بأقصى ما يستطيع، بعدما أدرك أن التعليم الحديث هو الاحتياج العاجل للمسلمين. فجمع حوله مجموعة من الزملاء الذين كرّسوا أنفسهم مثله، وكانوا يؤمنون أيضا بالمبادئ التي يؤمن هو بها، وأسسوا كلية للتعليم العالي في "عليكرة" سميت "الكلية المحمّدية البريطانية الشرقية". وقد اجتذبت التلاميذ من جميع أنحاء الهند، وأصبحت المعهد الإسلامي الأول في البلاد. وكانت في أول الأمر تابعة لجامعة "الله أباد"، ثم أصبحت فيما بعد جامعة قائمة بذاتها،

وعُرفت باسم "جامعة عليغره الإسلامية". وقد لاقى ذلك الحافز الذي قدّمه السير سيد انتشارا في الأجزاء الأخرى من البلاد، وبدأ التلاميذ المسلمون يتوافدون بشغف إلى المعاهد المحلية من أجل الحصول على التعليم العالي.

وقد أعرب المولوي نور الدين عن تقديره للمجهودات المخلصة التي كان يبذلها السير سيد من أجل إتاحة فرص التعليم العالي للمسلمين، وساهم فيها بسخاء. ومن جانبه كان السير سيد يحمل له كل تقدير واحترام، كما كان يقدّر تعاونه بامتنان. وذات مرة كتب أحد الأشخاص إلى السير سيد يسأله: عندما يتعلم الأمّي القراءة والكتابة يصير متعلما؛ وعندما يتقدم المتعلم في تحصيل العلوم والمعارف يصير فيلسوفا؛ وعندما يتفوق الفيلسوف في العمل بالقيم الأخلاقية والروحية يصير صوفيا، فماذا يصير الصوفي بعد أن يعلو ويسمو عن ذلك؟ فكتب السير سيد إليه يقول: يصير نور الدين.

كان المولوي "عناية الرسول الشيرياكوتي" عالما بارزا، وكان بارعا في اللغة العبرية واليونانية، كما أنه قام بدراسة عميقة للأسفار المقدسة اليهودية والمسيحية. وقد اقترح على السير سيد أن هناك حاجة لوجود تفسير للتوراة من وجهة النظر الإسلامية، وذلك من أجل تحقيق دراسة مقارنة بين التوراة والقرآن المجيد، وعرض أن يكتب هو هذا التفسير. ووافق السير سيد على المشروع، وكتب إلى المولوي نور الدين يطلب منه التعاون في تنفيذ هذا المشروع، فوافق بترحاب. غير أنه مما يؤسف له أن المولوي عناية الرسول لم يستطع أن يبدأ في إدارة عجلة المشروع، وظل الموضوع مجرد فكرة.

كان السير سيد إلى حد ما مفكرا متحررا، وكان يؤمن بأن الدعاء من أجل تحقيق أمر ذي شأن ليس إلا عملا من أعمال العبادة، ولا تأثير له في تحقق أو عدم تحقق الأمر الذي يدعو المرء من أجله. كذلك لم يكن يؤمن بإمكانية الوحي الكلامي بين الله والإنسان، وكان من رأيه أن ما يُقال عنه إنه وحي كلامي لم يكن سوى تعبير عن خطرات فكر الإنسان. وبناء على اقتراح من المولوي نور الدين، كتب المسيح الموعود عليه السلام كتابا سماه "بركات الدعاء"، وفنّد فيه كلا من هذين المفهومين باعتبار أنهما خطأ محض. وقد ذكر في الكتاب أن السير سيد، بتقديمه هذه الأفكار، قد أراد تعطيل العلاقة بشكل عام بين الخالق ومخلوقاته. وعرض عليه أن يبين له بطريقة عملية أثر استجابة الدعاء. ولفت أنظاره إلى النبوءة الخاصة بالبانديت "ليكهرام"، التي كانت تعتمد على الدعاء، وقد أثبت تحققها كل مِن استجابة الدعاء وحقيقة الوحي الكلامي، كما ذكر أيضا تجاربه الشخصية في كل من الأمرين. وقد أرسل نسخة من كتاب بركات الدعاء، ونسخة من كتابه الآخر "إزالة الأوهام" إلى السير سيد، فكتب إليه السير سيد يشكره، وطلب منه أن يدعو الله له.

وعند نهاية عمره، أصاب السير سيد قلقا وانزعاجا مريعا بسبب عدم أمانة أحد الموظفين غير المسلمين وعدم ولائه، حيث خان ثقته واختلس مبلغا كبيرا كان السير سيد قد جمعه من أجل تحقيق بعض مشاريعه الخيرية. وحسب ما يقوله ابنه، القاضي محمود، قاضي المحكمة العليا في "الله أباد"، إن الصدمة قد تكون هي التي عجّلت بوفاته. وقبل أن توافيه

المنيّة، كتب إلى المولوي نور الدين يقول إنه شعر بأن شيئا لا يمكن أن يتحقق بغير الدعاء.

* * *

كان المؤتمر الكبير للأديان، الذي تم تنظيمه بواسطة بعض غير المسلمين قد عُقد بلاهور في الأيام ٢٦ إلى ٢٩ من شهر ديسمبر (كانون الأول) عام ١٨٩٦، وقُدمت فيه خمسة أسئلة لتكون إجاباتها موضوع حديث المتكلمين. وقد دُعي المسيح الموعود عليه السلام أيضا لإلقاء كلمة في ذلك المؤتمر تتناول إجابة هذه الأسئلة. ولم يحضر المسيح الموعود بنفسه، ولكنه كتب خطابا تولى المولوي عبد الكريم إلقاءه في المؤتمر. وكان المولوي نور الدين من بين الحكام الستة الذين كانوا يتولون إدارة وتنظيم الأحاديث في المؤتمر. وقد طُلب إليه أن يرأس جلسة المؤتمر في اليوم الثاني، فافتتح الجلسة بالكلمات التالية:

إن كانت رحمة الله تعالى، وفضله، وعنايته التي تعم الجميع، وإحسانه الخاص الذي يهبه لعباده المختارين، لم تكن تكفي لدعم الإنسان، لكان قد اختفى من الوجود. ومن بين إحساناته التي وهبها لنا في هذا العصر، العديد من وسائل تحصيل المعارف، وكنوز المعارف الواسعة التي أصبحت متاحة لنا. إن وفرة وجود الورق، وتعدّد وجود المطابع، وتنظيم مكاتب البريد التي يمكن بواسطتها نقل أفكارنا إلى البلاد النائية بثمن زهيد، وآلة التلغراف، والسكك الحديدية، والمراكب البخارية، وبقية وسائل المواصلات الأخرى؛ كلها من آثار فضل الله تعالى. وإن لم يستخدم الإنسان هذه النعم استخداما

صالحا، أو إذا أساء استخدامها، فسوف يُحاسَب عليها ويعاني من العقاب. وإذا أحسن استعمالها فإنها سوف تزيد وتتضاعف له. لقد كان من الصعوبة بمكان الحصول على الكتب في أيام صباي؛ وكان أولئك الذين يمتلكونها يترددون في إقراضها. والآن أصبح من السهل الحصول على أجود الكتب من القسطنطينية، ومن مصر، وطرابلس، وتونس، ومراكش، بغير أي صعوبة. ولذا أصبح لزاما على كل واحد أن يستفيد من هذه النعم الإلهية في زمن السلام هذا.

إن الحاجة إلى الدين تؤكدها حقيقة أن الحياة الإنسانية تتطلب القوانين التي تنظمها. والغرض من القوانين هو حماية حقوق الإنسان. ومن عيوب القوانين الوضعية أنها محدودة، إذ لا تستطيع توقيع العقاب إلا بعد ارتكاب الجرم؛ وليس لديها القدرة على استئصال أسبابه. فمثلا، يمكن للقانون الوضعي أن يعاقب جريمة الاغتصاب، ولكن يبعد عن دائرة اختصاصه أن يقمع الرغبات الشريرة، أو يستبعد الصحبة السيئة، أو يتحكم فيما تراه العين مما يثير في النفس ارتكاب هذه الجريمة. إنه الدين الذي يكبح جماحنا من كل هذا، ويستنكر الشر. ومن وجهة نظر الدين، لا يتساوى الإنسان الصالح مع الإنسان الطالح. وهما لا يتساويان من ناحية معتقداتهما ولا من ناحية سلوكهما؛ كما أن أعمالهما لا تنتج نتائج متماثلة. إنه الدين وحده الذي يكبح جماح المرء ويمنعه من ارتكاب الأمور التي

هي أبعد من دائرة اختصاص القوانين الوضعية، وذلك بإعلانه أنها مُحرّمة. وهناك بعض الشرور التي يستنكرها كل من العقل والشعور العام، وتعتبرها الحكومة والمجتمع من الأخلاق الفاسدة، ولكن لا الحكومة ولا المجتمع يستطيعان أن يعملا على فرض إزالتها بالقوة، مثل شرب الخمور وارتكاب الزنى بين شخصين بالغين، يُقْدمان على هذا العمل باختيارهما. إنه الدين وحده الذي يستطيع المساعدة على إزالة هذه الشرور، ليس فقط بإدانتها واستنكارها، وإنما بالسيطرة على الميول التي توجه الأفكار والخيالات التي تدفع إلى ارتكاب هذه الشرور. وعلى هذا، كما أن الإنسان حيوان اجتماعي بطبعه يحتاج إلى القانون، فإن القانون الذي يحقق أهدافه بشكل كامل هو القانون الإلهي الذي يقدمه الدين. إن هذا القانون وحده هو الذي لديه القدرة على السيطرة على الميول الإنسانية، والتحكم في الدوافع النفسية، بشكل لا يستطيع أن يفعله أي قانون آخر تصوغه أكثر الحكومات استبدادا ودكتاتورية.

وعلى هذا فإن دراسة الدين ينبغي أن تكون اهتمامنا الأول، ليس فقط بغرض حماية القانون الوضعي الذي يهدف إلى إقرار السلام والنظام، وإنما أيضا من أجل حماية أنفسنا أيضا من كل شر. وينبغي أن نفكر في أحسن الوسائل لتحقيق ذلك. والآن، لما كان الله تعالى قد أمدّنا بمعين واسع من الوسائل والتسهيلات التي تساعدنا في هذا السبيل، فإنه يكون إنكارا للجميل وكفرانا للنعمة ألا ننتهز الفرصة لاستعمالها، وللتفكر

في القوانين وقواعد السلوك التي قدّمها الدين عن طريق التوجيه الإلهي، والتي قضت بأن يخضع لها سلوكنا. وعلى هذا يتحتم علينا أن نهتم بأمور الدين، وهذا هو الغرض من عقد هذا المؤتمر.

كان البند الأخير في جلسة ذلك اليوم هو قراءة خطاب المسيح الموعود عليه السلام، الذي تم نشره فيما بعد باسم "فلسفة تعاليم الإسلام". وكان حضرته قد سبق فأعلن أنه تلقى تأكيدا من خلال الوحي الإلهي بأن خطابه سوف يتفوّق على جميع الكلمات الأخرى التي ستُلقى في المؤتمر. ومنذ بداية الخطاب، كان جميع الحضور ينصتون إليه بشغف ونشوة. وعند نهاية الجلسة، ومن أجل إتمام معالجة السؤال الأول من الأسئلة الخمسة التي حددها المؤتمر للبحث والمعالجة، وبناء على طلب جمهور المستمعين الذين كانوا ينصتون إلى كل كلمة في الخطاب كأنهم مسحورون، اقتضى الأمر أن يمتد المؤتمر ليوم آخر بالإضافة إلى الأيام الثلاثة التي كانت محددة لعقده، لكي يمكن إتمام قراءة بقية الخطاب. وحينئذ استطاعت الهيئة الإدارية للمؤتمر، وبتأييد من الحكام، الحصول على إذن أنجمن حماية الإسلام باستعمال المكان ليوم أضافي، وطُلب من رئيس الجلسة أن يُعلن هذه الأنباء السارة. فقام المولوي نور الدين بإعلان انتهاء تلك الجلسة من خلال الكلمات التالية:

أيها الأصدقاء! لقد استمعتم إلى إجابة حضرة المرزا المحترم على السؤال الأول. ونحن جميعا نشعر بالامتنان والشكر للمولوى عبد الكريم لقراءته الرائعة. وأريد الآن أن أحمل إليكم البشرى

بناء على ما أبديتموه من شغف واهتمام بالخطاب والإنصات له، وبناء على توصية خاصة من حكام المؤتمر وحضرات الأفاضل من حضور المؤتمر، فقد قررت الهيئة الإدارية تمديد المؤتمر يوما إضافيا حتى يمكن إتمام قراءة خطاب حضرة المرزا المحترم بأكمله.

وقد تمت قراءة بقية الخطاب في يوم ٢٩ ديسمبر (كانون الأول).

وفي نهاية المؤتمر، طلبت الهيئة الإدارية من الحكام تقديم بعض الملاحظات والتعليقات. وإزاء ذلك قال المولوي نور الدين:

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

ثم تلى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۞ مَلِكِ النَّاسِ ۞ إِلَهِ النَّاسِ ۞ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۞ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۞ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾

وبعد ذلك ألقى كلمة قصيرة يمكن تلخيصها فيما يلي:

لقد جعل الرسول ﷺ الشهادة بأنه عبدُ الله جزءًا لا يتجزأ من العقيدة، وذلك حتى يضع المسلمون في اعتبارهم دائما أنهم عندما يشهدون بوحدانية الله تعالى، ينبغي عليهم ألا يسقطوا في وهدة الخطأ بإشراك أي شخص معه أو جعل أي شريك له.

إن الصفات الإلهية الثلاث التي ذُكرتْ في الآيات التي تلوتها، وهي رب الناس، وملك الناس، وإله الناس؛ لها علاقة وثيقة بحالات الإنسان الطبيعية، والأخلاقية، والروحية. فإن الكائن

الذي يقوم بتربية وتغذية جسم وفكر وروح الإنسان قد سُمّي رب الناس. ومن يحاسب الإنسان على عقائده وكلماته وأعماله الطبيعية والأخلاقية والروحية، فقد سُمّي ملك الناس. ومن كان هو الهدف الأسمى والغرض الأجلّ والإله المحبوب فقد سُمّي إله الناس.

وعلى هذا، فإن الله تعالى يُذكّر الإنسان بأنه هو الرب، وهو الملك، وهو الغرض الحقيقي والهدف الأسمى والمحبوب الأعظم. وهو ينصح من كان عبدا له أن يستعيذ بهذا الكائن الكامل القدوس في جميع أمور المعيشة والتوجه والمحبة، باعتباره رب الناس، وملك الناس، وإله الناس، من شر ذلك الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، مهما كان ذلك الذي يقوم بالوسوسة.

لقد استمعتم خلال الأيام الأربعة الأخيرة إلى العديد من الخطابات المختلفة. كان البعض منها يقوم على الحق ويتأسس على التقوى، وربما كان بعضها مليئا بالكذب والضلال والخداع. ولذلك، وعلى ضوء النصائح التي تحتويها الآيات القرآنية المذكورة، ينبغي لكم أن تستعيذوا برب الناس، ملك الناس، إله الناس من شر كل خطأ أو شك يكون قد تسرب إليكم من خلال أي خطاب، أو يكون قد وسوس به الوسواس الخناس. إن هذه الشكوك والأخطاء تماثل الكلب المزعج الذي هو على استعداد دائما لأن يعقر. وإذا أردنا أن

نسْلم من شر ذلك الكلب فإننا نستعيذ دائما بسيده. فإن أراد سيده أن يحمينا من شره ويردعه عن الإضرار بنا، فإنه لن يجرؤ على إيذاء أحد. وكذلك فإن حماية الإنسان من تأثير شرور الشكوك الشيطانية، ينبغي أن تكون أيضا من خلال الاستعاذة بذلك الواحد الأحد الذي هو الرب والملك والإله المحبوب لكل الخليقة.

وقد كان لكتاب "فلسفة تعاليم الإسلام" تأثير رائع واسع في الدوائر التي تهتم بمقارنة الأديان، وأصبح من الكتب الكلاسيكية التي لا تزول ولا تفنى قيمتها.

* * *

في عام ١٨٩٧ جاء إلى قاديان شاب يافع اسمه "عبد الحميد" وقابل المولوي نور الدين، وقدّم نفسه على أنه ابن أخ المولوي "برهان الدين الجهلمي"، وهو أحد رجالات الجماعة الإسلامية الأحمدية الذين يحظون بالتقدير والاحترام. واستُقبل عبد الحميد بالترحاب البالغ، وتمت استضافته بأحسن وبأكرم ما يكون. وأظهر أنه يؤمن بالمسيح الموعود وأنه يريد أن يبايعه؛ غير أن المسيح الموعود عليه السلام شعر أنه يفتقد الإخلاص، ورفض أن يقبل بيعته. فأصابه السخط والاستياء، وغادر قاديان وذهب إلى بطالا حيث قابل هناك العديد من المبشرين المسيحيين، الذين أوصلوه إلى الدكتور هنري مارتن كلارك من أمرتسر، الذي كان عدوّا لدودا للمسيح الموعود عليه السلام. وقد أقنعه الدكتور كلارك أن يتقدم بإقرار إلى قاضي أمرتسر بفحوى أن مرزا غلام أحمد أرسله إلى أمرتسر ليقتل الدكتور كلارك، وذلك بأن يدحرج عليه حجرا كبيرا على حين

غرة. وقد أرسل قاضي أمرتسر الإقرار الذي تقدم به عبد الحميد إلى قاضي كورداسبور، الكابتن دابليو دوجلاس، فاستدعى الأطراف إلى بطالا في يوم ١٠ أغسطس (آب) لتسجيل شهادة الشهود، وكان المولوي نور الدين من بينهم. وقد أدلى بشهادته بأسلوب يتسم بالدقة والاستقامة، مما كان له أبلغ الأثر على قاضي المنطقة. وقد تأثر أيضا بالمظهر الجليل للمولوي نور الدين وشخصيته الوقورة. وبعد أن انصرف الشاهد قال عنه: لو أن ذلك الرجل أعلن أنه هو المسيح الموعود لكنت أنظر في دعواه بكل جدية.

وكان أحد الشهود الذين سجلوا شهاداتهم في نفس اليوم هو المولوي محمد حسين البطالوي، الذي كانت عداوته الخبيثة للمسيح الموعود عليه السلام معروفة للجميع؛ فأصر على تقديم شهادة باطلة بعد أن أقسم اليمين مما دفع قاضي المنطقة إلى أن يسجل عنه ملحوظة، وهكذا فقدت شهادته أي قيمة. وعندما خرج من قاعة المحكمة، كان كل من استعان به للإدلاء بشهادته يبتعد عنه في استياء واشمئزاز، حتى إنه لم يجد مكانا يجلس فيه. ولما لاحظ نور الدين المهانة البالغة التي كان يعاني منها، أخذته الشفقة عليه، فذهب إليه وأخذه من ذراعه وقال له:

- حضرة المولوي المحترم! تعالى واجلس معنا.

وفي جلسة أخرى لسماع الشهود، انهار عبد الحميد واعترف بأن شهادته السابقة كانت باطلة، وأنه قدّمها بناء على تحريض الدكتور كلارك وبعض زملائه. وقد سقطت الدعوى ضد المسيح الموعود وأخلي سبيله بكل احترام. ورغم أن القاضي عرض عليه أن يرفع دعوى لتقديم

شهود الزور ضده إلى المحاكمة، بتهمة اليمين الكاذب والاتهام الباطل، إلا أنه لم يقبل العرض وقال: إن قضيتي أمام قاضي السماء، ولا أريد أن أقضي وقتي في مطاردة من يعارضني أمام قضاة الأرض!

وفيما بعد، وبعد مرور أكثر من ربع قرن، وبعد زمن طويل من تقاعد الكابتن دوجلاس من الخدمة واستقراره في لندن، ذهب كاتب هذه السطور لزيارته ليعرف منه انطباعاته عن المسيح الموعود عليه السلام. وقد كان الكابتن دوجلاس في صحة جيدة وفي حالة ذهنية كاملة. وكان بينهما حديث طويل، وكان ملخص ما قاله ما يلي:

في اللحظة التي دخل فيها المرزا المحترم قاعة المحكمة ونظرت إليه، أدركت أنه ليس من هذا العالم. وكان يبدو وكأن روحه على صلة بالله. ورغم أنه كان متهما بجناية خطيرة، فقد كنت أرى أنه لا قدرة له على ارتكاب شيء من هذا القبيل. وقد أعطيته كرسيا على المنصة وطلبت منه الجلوس. لقد تأثرت كثيرا بنبله وشهامته وعظمته، واقتنعت بصحة دعواه بأنه كان نبيا، ومن أجل ذلك فقد آمنت منذ ذلك الوقت أن محمدا كان نبيا صادقا من أنبياء الله.

ومن الجدير بالذكر أنه بعد مرور بضع سنوات على تصرف عبد الحميد الفاضح في هذه القضية، حدث أنه تاب توبة مخلصة من هذا الخطأ الفادح الذي ارتكبه، وانضم إلى الجماعة الإسلامية الأحمدية.

* * *

كان سعد الله من لدهيانة هندوسيا دخل الإسلام حديثا، وكان يحمل عداء شديدا نحو المسيح الموعود عليه السلام، عبر عنه بكلمات وضيعة

ولغة حقيرة. وقد تنبأ بأن المسيح الموعود سوف يموت بغير ذرية، وأن جماعته التي أسسها سوف تنفرط بعد موته. وردا عليه أعلن المسيح الموعود عليه السلام أنه قد تلقى وحيا من الله تعالى يفيد بأن سعد الله نفسه سوف يظل بغير ذرية. وفي السنوات التي تلت ذلك، أنعم الله على المسيح الموعود عليه السلام ذرية بعد ذريته، ولكن ظل سعد الله دون أن يُرزق بذرية جديدة، سوى ابن واحد كان موجودا من قبل أن يتلقى المسيح الموعود الوحي الذي يخص سعد الله.

وقرب نهاية عام ١٩٠٦، ذكر المسيح الموعود نبوءته الخاصة بسعد الله ضمن العديد من الآيات والنبوءات الأخرى في كتاب كان يدوّنه، وأكد فيه على أن لا سعد الله ولا ابنه الذي بلغ في ذلك الوقت نهاية العشرينيات من عمره، سوف يُرزق بذرية. وقد حاول أحد المحامين المعروفين، وكان من أفراد الجماعة الإسلامية الأحمدية، أن يصرف المسيح الموعود عليه السلام عن نشر هذه النبوءة بالذات، لأنه كان يخشى أن يتولى سعد الله أو ابنه أو كلاهما مقاضاة المسيح الموعود واتهامه بالتعريض بهما. وقد رد عليه المسيح الموعود عليه السلام فقال:

> إنني أعتبر أن الطريق الصحيح هو احترام كلام الله تعالى؛ وكتمانه ذنب بالغ وأمر لا يليق. إن أحدا غير الله تعالى لا يستطيع أن يصيبني بضرر. وليس لي أدنى خوف من السلطة الحكومية فيما يتعلق بالوحي الذي أتلقاه. وسوف أدعو الله تعالى بالطبع، الذي هو مصدر كل فضل وإحسان، أن يحفظني

من كل سوء وضرر. أما إذا كان الله قدّر لي أن أعاني في هذا السبيل، فإني راض بذلك.

ثم رفع نبرة صوته وقال بكل يقين:

إنني أؤكد وأقسم باسم الله العلي العظيم بأنه سبحانه لن يدع ذلك الرجل الخبيث يتغلب عليّ، وسوف يحفظ اللهُ عبدَه هذا الذي يستعيذ به ويسأله أن يحفظه من سوء أعمال ذلك الرجل، وذلك بأن يصيبه هو بشيء من الضرر.

وقد وقف المولوي نور الدين عند سماعه ذلك وقال:

– هذا ما سوف يحدث. فقد قال الرسول ﷺ: "رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرّه".

وقد استمر المسيح الموعود عليه السلام في الدعاء لله تعالى، وخلال يومين أو ثلاثة تلقى وحيا من الله تعالى في نفس كلمات الحديث الشريف الذي ذكره المولوي نور الدين. وبعد بضعة أيام أخرى مات سعد الله مصابا بوباء الطاعون في الثالث من شهر يناير (كانون الثاني) عام ١٩٠٧. وقد عاش ابنه بعده لما يقرب من خمسين عاما، ورغم أنه تزوج مرتين إلا أنه لم يترك ذرية من بعده، وانتهى بذلك نسل سعد الله.

* * *

تم تقسيم البنغال في السنوات الأولى من القرن العشرين، خلال زمن نائب الملك اللورد "كورزون". وقد اعتبر الهندوس هذا الإجراء من جانب الحكومة إضعافا لوضعهم المهيمن في البنغال، وتقوية لموقف المسلمين في شرق البنغال، ولذلك كانوا يعارضونه معارضة شديدة. وانتشرت المعارضة في جميع أنحاء البلاد واتخذت أشكالا تنذر بالخطر،

وأصبحت مصدر قلق يهدد استقرار النظام وينشر الفوضى في العديد من المقاطعات. وفي مايو (أيار) عام ١٩٠٧ أدلى المسيح الموعود عليه السلام ببيان عام نصح فيه أفراد الجماعة الإسلامية الأحمدية بعدم الاشتراك في أعمال الشغب. وتبع ذلك الإعلان اجتماع عام تم عقده في قاديان، وتكلم فيه أيضا المولوي نور الدين. وتأكيدا على أهمية المحافظة على النظام العام قال:

> إن المستفيد الأكبر من الإدارة البريطانية للبلاد كان هم الهندوس، فهم مهيمنون في كل مكان. وفي كل عام ينتقل ما يُقدر ثمنه بعشرات الملايين من الأراضي والعقارات من ملكية المسلمين إلى أيدي الهندوس، كما أن جميع المناصب العليا في الإدارة الحكومية يتولاها الهندوس، بينما يقتصر المسلمون على شغل الوظائف الصغيرة. وفي هذه الظروف، كان ينبغي على الهندوس أن يكونوا هم أكثر قطاعات المجتمع في البلاد امتنانا وولاء للحكومة، ولكنهم للأسف قد أثبتوا بتصرفاتهم أنهم أقل الناس ولاء للحكومة. ولعل هذا أمر لا يثير الدهشة من جانبهم، فهم تعوّدوا على اتخاذ الشركاء لله تعالى. وإن من يتحوّل عن الخالق الذي هو المصدر الحقيقي لكل خير وإحسان ويسجد أمام تمثال من الحجر، فلا يُنتظَر منه أن يشعر بالامتنان والولاء للإنسان الذي يُحسن إليه.

وفي ١١ فبراير (شباط) ١٩٠٦ تلقى المسيح الموعود عليه السلام وحيا يقول إن تغييرا سيحدث لقرار تقسيم البنغال. وقد تم نشر ذلك الوحي

على الفور، ولكن المعارضين سخروا منه وهزءوا به، غير أنه تحقق تماما وبحذافيره في عام ١٩١١ عندما تم الإعلان عن إلغاء قرار تقسيم البنغال، وكان ذلك في مناسبة عقد الاحتفالات بتتويج الملك جورج الخامس التي أقيمت في دلهي.

* * *

في يونيو (حزيران) ١٩٠٧، كتب أحد الأشخاص يسأل المولوي نور الدين عدة أسئلة:

١- هل أولئك الذين لم يؤمنوا بالمسيح الموعود يكونون في نفس وضع أولئك الذين لم يؤمنوا بالرسول ﷺ؟

٢- كيف ينبغي فهم الحديث الشريف: "لا نبي بعدي".

٣- إذا كان من الممكن ظهور نبي في الإسلام، فلم لم يكن أبو بكر وغيره من الأنبياء؟

وقد كتب المولوي نور الدين الرد على هذه الأسئلة فقال:

١- يقول القرآن المجيد: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (البقرة:٢٥٤). فإن كان هناك تفضيل في مقامات الأنبياء، ولا توجد مساواة في المكانة بين أولئك الأنبياء والرسل، فلن يكون هناك مساواة بين المؤمنين بهم كما تتصور أنت في فكرك. ولكن يمكن لك أن تتصور أن أولئك الذين لم يؤمنوا بمسيح خاتم النبيين ﷺ هم في وزر أكبر من أولئك الذين لم يؤمنوا بمسيح موسى عليه السلام.

والقرآن المجيد يؤكد أن المؤمنين لا يفرّقون بين أحد من رسل الله تعالى من حيث الإيمان بهم ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾

(البقرة:٢٨٦). إنك تحاول في المقارنة أن تساوي بين أولئك الذين لا يؤمنون بنبي آتاه الله شريعة، وأولئك الذين لا يؤمنون بنبي لم يؤته الله شريعة، وأنا لا أوافق على منطق المساواة هذا.

إننا مأمورون بالإيمان بالمسيح الموعود عليه السلام بنفس المنطق والأساس الذي أُمرنا به أن نؤمن بالقرآن المجيد. ورفض هذا المنطق يُعتبر مساويا لرفض القرآن الكريم. ولك أن تتفكر في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَآ أَنزَلَ اللهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَآ وَرَآءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ (البقرة:٩٢). فلماذا لا تؤدي المساواة في كلتا الحالتين إلى نفس النتيجة؟

٢- لقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المسيح الذي هو من المقدّر أن يأتي في أمته بأنه نبي الله. وقد وُصف المسيح الموعود عليه السلام بهذه الصفة في الوحي الذي أوْحى الله تعالى به إليه.

إن الأحاديث الشريفة تفرّق بين العام والخاص. ولك أن تتفكر في الأمثلة التالية التي تذكر العام ولا تستبعد الخاص: "لا إيمان لمن لا خلق له، ولا دين لمن لا عهد له"؛ "لا صلاة بغير فاتحة الكتاب"؛ "لا زواج بغير ولي"؛ "لا حسد إلا لشخصين".

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم قد وُصف في القرآن المجيد بأنه خاتَم النبيين (بفتح التاء)، وليس خاتِم النبيين (بكسر التاء). كذلك يؤكد

القرآن المجيد أن اليهود كانوا ﴿يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾، فهل يعني هذا أنهم كانوا يقتلون جميع النبيين أم بعضهم فقط؟

٣- إن الله لم يقل عن أبي بكر إنه نبي، ولكنه قال عن المسيح الموعود إنه نبي.

* * *

حدث أن فرْع "واكهوالي" التابع للآرياسماج في لاهور قام بتنظيم مؤتمر للأديان يتم انعقاده أيام ٢، ٣، ٤ ديسمبر (كانون الأول). وكان من المفترض أن تُقرأ في المؤتمر عدة كلمات عن موضوع "صفات الكتاب السماوي". وقد طُلِب من المسيح الموعود عليه السلام أن يشترك بكلمة في المؤتمر، غير أنه تردد في قبول الرجاء نظرا لعلمه بطبيعة الآرياسماج العدوانية، ولكن بعد أن أكد منظمو المؤتمر أن الاحترام الواجب تجاه جميع أصحاب الأديان سوف يسود المؤتمر، ولن يُقال شيئ في المؤتمر يمس المشاعر الدينية من قريب أو من بعيد، وافق على أن يُشارك بكلمة. وقد قدّمت كلمة المسيح الموعود في الجلسة الأولى، وقرأ نصفها الأول المولوي نور الدين، وقرأ النصف الثاني الدكتور مرزا يعقوب بك، من السادسة إلى العاشرة مساء في اليوم الثالث من ديسمبر (كانون الأول).

وعند نهاية الكلمة، كان المسيح الموعود عليه السلام قد ذكر بعض كلمات الوحي التي تلقاها من الله تعالى باللغة العربية. وقد طُلب من المولوي نور الدين أن يقدّم ترجمة لهذه الكلمات باللغة الأردية. ونظرا لاحترامه البالغ لسيده عليه السلام، وللتقدير العظيم الذي يحمله له، قال:

حيث إن من تلقى هذا الوحي لم يقدّم الترجمة بنفسه، فلا أجد أنه ينبغي عليّ أن أقدم أنا الترجمة. ولكن حيث إن المستمعين يشعرون أنه سيكون من المفيد تقديم ترجمة، فسوف أقوم بهذا مع ضرورة الوضع في الاعتبار بكل وضوح أن الترجمة التي أقدمها تمثل مفهومي الشخصي لهذه الكلمات، وهي ليست ملزمة لصاحب الوحي عليه السلام، فهو وحده الذي له الحق في تقديم المعنى الصحيح.

وفي ٤ ديسمبر (كانون الأول) قرأ ممثل الآرياسماج كلمته، فسبّ فيها الإسلام ورسوله الأكرم صلى الله عليه وسلم بكل وقاحة. وكان مشهدا قاسيا يُدمي القلب، لم يصدم المسلمين فقط ويُهِن مشاعرهم فحسب، وإنما كان تصرفا مُشينا ومُسيئا لجميع الفئات المحترمة من الحضور. وقد علّق رئيس الجلسة فيما بعد على ذلك فعبر عن أسفه أن هذه الكلمة قد قُدّمت في المؤتمر، وأكد أنه لو كان يعلم مسبقا بمحتوياتها لما سمح بقراءتها في الاجتماع، غير أنه لم يتخذ أي خطوة من جانبه لتعنيف صاحب الكلمة أو لكبح جماحه أثناء قراءة الكلمة، وبهذا فقد وقع الضرر وتحققت الإساءة.

وبعد أن عاد وفد قاديان الذي كان مشتركا في المؤتمر، وتلقى المسيح الموعود تقريرا عما حدث فيه، تملكه الغضب والاستياء الشديد. وراح يعنّف أعضاء الوفد بشدة ويكرر اللوم لهم لعدم انسحابهم فورا من الاجتماع في اللحظة التي شعروا فيها بسوء كلمات المتحدث من الآرياسماج. ولفت أنظارهم مُذكرا إياهم بأمر الله تعالى في القرآن المجيد:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ (النساء: ١٤١).

وقد استغفر جميع أفراد الوفد الله تعالى لهذا الخطأ الجسيم وتابوا إليه سبحانه، كما قدّموا اعتذارهم الشديد وعبّروا مرارا وتكرارا عن أسفهم العميق للمسيح الموعود عليه السلام إلى أن خف غضبه بعض الشيء وعفا عنهم. ومع ذلك فقد أثنى عليهم، وأكبر فيهم روح الصبر التي تحلوا بها، ومدح قوة ضبط النفس الذي تمسكوا به، في ظرف من أشد الظروف قسوة على النفس. وكتب عليه السلام فيما بعد يقول:

> إن لم يضع أولئك المسلمون الأتقياء في اعتبارهم مراعاة أصول ثقافتهم الإسلامية، ولم يتمسكوا بأهداب الصبر والثبات في ظروف عصيبة من الاستفزاز والغضب، كما يأمر بذلك القرآن المجيد، وإن لم يكبتوا غيظهم ويتحكموا في أنفسهم، لكان الاجتماع قد انتهى بمذبحة جراء الاستفزاز الشديد الذي قام به أولئك القوم من ذوي الطبائع الخبيثة. إن أفراد جماعتي الذين حضروا ذلك الاجتماع يستحقون الثناء والتقدير ألف مرة، لأنهم قدّموا مثالا رائعا لضبط النفس، وعند سماعهم العبارات الجارحة المسيئة التي تلفّظ بها الآرياسماج، والتي كانت أشد حدّة من طلقات الرصاص، فإنهم لم ينطقوا بكلمة. وإن لم أكن قد أعددت أفراد جماعتي من خلال العظات المتكررة والنصائح المتوالية بأن عليهم أن يتمسكوا بالصبر دائما في مواجهة أقذر السباب وأحقر الإساءات، لكان

الاجتماع قد تحوّل إلى حمام من الدماء. فالحمد لله أن تعليمي قد مكّنهم من ضبط النفس وكظم الغيظ.

* * *

كان "سردار مهر سنج" شابا حديث السن، وكان ينتمي إلى عائلة كريمة من عائلات السيخ التي تحظى بالاحترام في مجتمعها. وقد اعتنق الشاب الإسلام وانضم إلى الجماعة الإسلامية الأحمدية. وكانت النتيجة أن عائلته تبرأت منه وانقلبت ضده. وقد اتخذ لنفسه اسم "عبد الرحمن". وكان المولوي نور الدين يساعده في دراسته، وكان يعتني به ويتولى أمره. وقد أثبت الشاب منذ البداية أنه على جانب كبير من الصدق والإخلاص والعزم الصادق والحماسة الجادة، حتى إن المولوي نور الدين كان مسرورا به. وكان هناك أحد معارف حضرة المولوي المحترم المقربين منذ أن كان يعيش في جامون، واسمه "خليفة نور الدين" من جامون، وهو من قبائل غوري باتهان. فطلب من صديقه المولوي نور الدين الرأي في شخص يصلح زوجا لابنته، فرشح المولوي نور الدين الشاب "عبد الرحمن". وبعد أن تعرّف والدا الفتاة على صفات الشاب قالا للمولوي المحترم إنه شاب مخلص وصالح، ولكنه بلا عائلة ولا أهل ولا مستقبل أمامه، وكل ما لديه هو حصيرة، وكوز، وسرير صغير، ودخله المتواضع من عمله كمدرّس، فكيف يمكن له أن يعول زوجة؟ فكان رد المولوي نور الدين ردا حكيما، حيث قال:

- إن كانت ابنتك ذات حظ مبارك، فسوف تملأ البيت الخالي بالخير، وإن كانت محرومة من حسن الحظ، فسوف تجعل البيت المليء بالخير خاليا.

وقد عمل الوالدان بنصيحته، ووافقت الابنة على الشخص المقترح، فتم الزواج. وقد أثبتت الأيام أنه كان زواجا سعيدا ومباركا من جميع الوجوه، ويشهد على ذلك الذرية الوافرة التي رُزق بها الزوجان.

* * *

كان المولوي نور الدين حريصا كل الحرص على ضرورة أن يحقق القادمون إلى قاديان أكبر الاستفادة من وجودهم بالقرب من حضرة مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية عليه السلام. وفي إحدى خطبه توجه بحديثة متسائلا:

ماذا كان الغرض الذي جئتُ هنا من أجله؟ لقد كان لي بيت واسع الأرجاء في "بهيرة"، وكانت تتوفر لي هناك جميع أسباب الراحة. وهنا أعيش في بيت متواضع من الطوب المجفف في الشمس، وتخليت عن كل وسائل الراحة. لماذا؟ لأني وجدت أني مريض، مريض جدا؛ وأني كنت فقيرا، في شدة الفقر؛ وكنت أعاني من الابتلاء، أشد أنواع الابتلاء؛ فجئت هنا للبحث عن علاج لجميع أمراضي وقضاء لحاجاتي ورفع لمعاناتي. إن كان أحد يأتي هنا ليتأسّى بي ويتعلم مني، أو ليبحث عن عيوبنا نحن الذين استقر بنا المقام هنا، فإنه يرتكب خطأ جسيما. إنه يخدع نفسه لأنه يعتبر المرضى أصحّاء معافين فيبني حُكمه عليهم. إن جميع الصداقات والعلاقات هنا،

وجميع من يأتون هنا، ومن يغادرون هذا المكان، ومن يستقرون هنا، ومن يعيشون هنا، ينبغي عليهم أن يُخضعوا كل شيء وأن يكونوا مُثلا حية لـ: "لا إله إلا الله". إن لم يكن هذا هو الغرض من المجيء هنا، فلم تأتون هنا؟ إنكم تجدون طعاما أفضل وتنعمون براحة أكثر في بيوتكم عما يمكن أن تجدوه هنا. ولكن سوف يكون لحضوركم هنا معنى وضرورة إذا كان هدفكم في كل ما تقومون به هو أن تنالوا رضا الله تعالى.

الفصل الثاني عشر
خليفة المسيح

في ١٩ مارس (آذار) ١٩٠٨، وبعد أن حصل على موافقة المسيح الموعود عليه السلام، كتب المولوي نور الدين إعلانا بعنوان: "رجاء إلى الأخوة والأصدقاء"، جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. نحمد الله ونصلي على رسوله الكريم. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

في إحدى الليالي رحت أتفكر في عمري، وفي عمر الأمة الإسلامية، وأحسست بالقلق الشديد عند التفكر فيما ينبغي عمله قبل أن ينتهي العمر. وقد جنح بي التفكير نحو أهمية الأدعية التي تُقال عند الجلوس للتشهّد في الصلاة، ثم وصل بي التفكير إلى قصة الببغاء التي ذكرها مولانا جلال الدين الرومي في كتابه "المثنوي". وهي تروي قصة ببغاء كان يملكه أحد التجار، فطلب الببغاء من صاحبه أن يبلغ تحياته لزملائه الببغاوات الأُخَر في الهند، إذا حدث أن التقى أحدا منهم أثناء تجواله فيها، وكان غرضه أن يتعرّف منهم على الوسيلة التي يمكن بها أن يحصل على حريته. فأرسلوا إليه رسالة مؤداها أن الطريق إلى الحرية يمر بوادي الموت.

وقادني هذا التفكير إلى التفكر في ببغاوات الله تعالى، وأقصد بذلك أرواح الشهداء الذين قضوا في سبيل الله. وتفكرت في

الأدعية التي تُقال عند الجلوس للتشهد في الصلاة: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وأثناء استغراقي في التفكير عقدت صفقة مع الله تعالى، وذلك كما ذكر في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (التوبة:١١١). ففي هذه الآية يصف الله ﷻ نفسه بأنه المشتري، أي التاجر. والمؤمن هو من كرّس نفسه كلية لله تعالى، وينبغي عليه أن يكون على حذر حتى لا يصرف حياته أو ينفق أمواله بغير إذن الله تعالى. ومن أجل تحقيق هذا الغرض ظللت حريصا على دوام الصلاة والسلام على رسول الله.

ثم وقع في نفسي أن أتخذ العديد من الأصدقاء والأصحاب، وأجعل لهم شعارا خاصا حتى نذكر الله تعالى كثيرا، ونسبحه كثيرا. والحمد لله أنني رغم ذكائي المحدود وقدراتي البسيطة، فقد استطعت أن أتخذ الكثير من الأصدقاء من بين أفراد الجماعة الإسلامية الأحمدية، وهي جماعة تمقت بشدة اتخاذ الشركاء لله والابتداع في الدين، وتؤمن بإخلاص ب: "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"؛ ومن حيث تمسكها بسُنة الرسول ﷺ تستحق أن تُسمى "أهل السنة"، ومن حيث إنها تدين بالبيعة لإمام فهي تستحق أن تُسمى "الجماعة"؛ وهؤلاء هم الرجال الذين جعل لهم الرحمن وُدّا، وثبّتهم بالقول الثابت في

الحياة الدنيا، وجعل في قلوبهم رأفة ورحمة، وهم يؤمنون بأهمية وقوة الدعاء. وفي كل هذا كان غرضي هو:

١- أنهم يكونون شهودي في الدنيا أمام الله تعالى، ليشهدوا بصدق إيماني، فقد قال الرسول ﷺ إن من يشهد له أربعون من الصلحاء يكون مستحقا لدخول الجنة، ومن لا يشهد له يكون مستحقا لدخول جهنم. وإني أرجو أن أنال بشهادة هؤلاء ما فيه رضى الله تعالى.

٢- أنه من خلال ارتباطنا وترابطنا سويا نستطيع أن نتعاون على البر والتقوى ونكون أولياءً وأنصارا.

٣- هناك بعض نعم الله تعالى التي تنالها الجماعة التي تلتزم بالوحدة والتعاون. وفي ضوء هذه الحقيقة يمكن تكوين مجموعة من الأصدقاء كي ننال فضل الله الخاص ويشملنا رضاه فيشرفنا بخدمة الإسلام والمسلمين.

٤- رُوي عن الرسول ﷺ أنه قال: سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، وأحد هؤلاء الأنواع السبعة رجلان تحابّا في الله، يلتقيان في سبيله ويفترقان في سبيله. لذلك رغبت أن نكون من هؤلاء، وبذلك ننال الفوز تحت ظل عرش الله الأعظم، الذي يمكن أن يظلنا هنا في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى.

٥- ينبغي إيجاد وسيلة لنشر اتقان معرفة اللغة العربية بين المسلمين بصفة عامة وبين أفراد الجماعة الإسلامية الأحمدية بصفة خاصة، فإن هذه هي الوسيلة الوحيدة

للمسلمين في جميع أنحاء الأرض كي يعملوا على نشر الوحدة والتعاون بين بعضهم البعض. كما أن فهم القرآن الكريم والأحاديث الشريفة يعتمد على إتقان اللغة العربية. إن علينا أن نبذل جهدا خاصا في هذا الخصوص وأن نجد الوسائل التي تمكننا من تحقيق هذا الغرض، تماما كما تحقق هدف السفر في جميع أنحاء الأرض بوسيلة السكك الحديدية.

٦- إذا حدث نزاع أو سوء فهم بين أفراد الجماعة الإسلامية الأحمدية، يكون هؤلاء الأصدقاء هم وسيلة للإصلاح والتوفيق، كما بقول الله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ (الأنفال:٢)؛ ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجرات:١١)؛ ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ (النساء:١٢٩).

٧- وينبغي عليهم أن يلجأوا دائما وفي جميع الأحوال إلى الدعاء، سواء في حالة اليسر والعسر أو الفرح والحزن.

غير أنه بسبب شعور عدم الاكتراث المنتشر بين المسلمين، فحتى أولئك الذين يعيشون في قاديان لا يبدون الاهتمام اللازم. لقد أعددت إجابات عديدة على الكثير من التساؤلات الخاصة بهذا المشروع وأرسلت صورا منها إلى عدة بلاد، ولكني لم أتلق تعليقا عليها إلا من سيالكوت وبيشاور فقط، و لم أتلق ردا من لاهور. كما أني قد كتبتُ أيضا إلى المفكرين

المسلمين في بعض البلاد البعيدة طلبا للنصيحة والرأي عن وسائل نشر تعلم اللغة العربية، والعمل على نشر الاهتمام باتباع القيم الإسلامية. واقترحت أيضا نشر بعض الكتيّبات الصغيرة لبيان تعاليم الإسلام، وتفنيد المزاعم التي يسوقها غير المسلمين، حتى يمكن لنا أن نقوم بمسؤولياتنا تجاه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحذير من العواقب الوخيمة لسوء الفكر.

وقد نُشر هذا المشروع في جريدة "الحكَم"، وجريدة "بدر"، ومجلة "تشحيذ الأذهان". وطبع المولوي نور الدين ١٤٠٠ بطاقة لهذا الغرض. وكان حضرته يأمل أنه بعد أن يحصل على موافقة ١٤٠٠ شخص على الاشتراك في هذا المشروع، فإنهم سوف يطلبون من المسيح الموعود عليه السلام الدعاء الخاص من أجل تحقق أهداف هذا المشروع، غير أن الأحداث تتابعت بسرعة و لم تسمح بتحقق هذا الأمر.

* * *

كانت حضرة أم المؤمنين تشكو بعض التوعك، فطلبت من المسيح الموعود عليه السلام أن يذهبا إلى لاهور للحصول على العلاج الطبي المتخصص. وقد تردد حضرته بعض الشيء حيث إنه كان قد تلقى مؤخرا بعض التحذير عن طريق الوحي بأن نهاية حياته قد اقتربت. وفي نهاية عام ١٩٠٥، عندما كان قد تلقى من الوحي ما يشير إلى أنه لم يبق من العمر سوى عامين أو ثلاثة، حدث أنه نشر كتابا يحمل وصيته، وبشّر فيه أفراد جماعته بأن الله تعالى سوف يعينهم بعد رحيله ب "القدرة الثانية" كما حدث عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندما أقام الله أبا

بكر ليجمع كلمة المسلمين، فاستطاع أن يتخذ الوسائل اللازمة لحماية المسلمين من الأخطار التي كانت تحدق بهم من كل صوْب. وقد أسس أيضا المسيح الموعود عليه السلام ما هو معروف باسم "صدر أنجمن أحمدية" أي (الجمعية الأحمدية المركزية) بغرض تنظيم الشؤون الإدارية للجماعة، وعين المولوي نور الدين رئيسا لها.

وقبل أن يغادر المسيح الموعود عليه السلام إلى لاهور، راح يبتهل إلى الله تعالى طلبا للهداية في أمر قيامه بهذه الرحلة، وطلب من صحابته أن يعينوه بأدعيتهم. كذلك فقد أخبر ابنته الكبرى، "نواب مباركة بيجم" أنه سوف يتخذ قرارا هاما، وطلب منها أن تعينه بأدعيتها. وفي اليوم التالي أخبرته أنها توجهت إلى الله تعالى بالدعاء الحار من أجله، وفي رؤيا رأتها في تلك الليلة، حدث أنها رأت المولوي نور الدين يجلس في غرفة علوية ويمسك بيده كتابا، وقال لها: هذا الكتاب يحتوي النبوءات التي تلقاها حضرة المرزا المحترم عني، فأنا أبو بكر.

وقد طلب منها المسيح الموعود عليه السلام ألا تذكر هذه الرؤيا لأمها، واستكمل التجهيزات استعدادا للرحيل إلى لاهور. وغادر الركب قاديان في يوم ٢٧ أبريل (نيسان) ١٩٠٨، وبعد التوقف في مدينة "بطالا" لمدة يومين، وصل الركب إلى لاهور في ٢٩ أبريل. وقد اتخذ المسيح الموعود مكان إقامته في منْزل الخواجه كمال الدين في مبنى الأحمدية الذي يقع في شارع براندرث، ولكن بعد بضع أيام انتقل إلى بيت الدكتور سيد محمد حسين المجاور في نفس المبنى. ولما طالت إقامته في لاهور بعض

الوقت أرسل في طلب المولوي نور الدين وبعض الأشخاص الآخرين من كبار أفراد الجماعة من قاديان.

وفي يوم ١٧ مايو (أيار) دُعيت بعض الشخصيات الإسلامية البارزة لتناول طعام الغداء على مائدة المسيح الموعود عليه السلام، وقد ألقى فيهم كلمة شرح لهم فيها أساس دعواه وطبيعتها، وأراد أن يزيل سوء الفهم السائد عن دعوته. وقد أنصت له الحضور بانتباه واهتمام شديدين، وطلب منه بعض الحضور أن يلقي خطابا عاما في لاهور حتى يستفيد الجمهور العام من علمه وحكمته. وعملا بهذا الاقتراح بدأ في تدوين كتاب بعنوان "بيغام صلح" أي (رسالة السلام)، ذكر فيه مشروعا لتحقيق الوفاق بين الهندوس والمسلمين. وفي نفس الوقت توالى نزول الوحي عليه ينذر بقرب الانتقال إلى جوار الله تعالى، ولكنه استمر يمارس أعماله باطمئنان كامل. وقد انتهى من كتابة خطابه بعد ظهر يوم ٢٥ مايو (أيار)، ثم خرج يتمشى قليلا.

وعند عودته قام بجمع صلاة المغرب والعشاء، وتناول وجبة خفيفة، ولما كان يشعر ببعض التعب فقد ذهب مبكرا لينام. وفي منتصف الليل ذهب لقضاء حاجته مرتين كان يفصلهما زمن قصير، مما سبب له الشعور بضعف شديد، فبعث في طلب المولوي نور الدين من البيت المجاور، فجاء على الفور وفي صحبته الطبيبين سيد محمد حسين ومرزا يعقوب بك. وقد حاول الأطباء كل ما وسعهم ولكن دون تحقيق أي نتيجة. وذهب المسيح الموعود مرة ثالثة لقضاء حاجته وبدأت حالته في التدهور سريعا. وقد أدى صلاة الفجر وهو في حالة شبه واعية، ثم راح بعدها في غيبوبة. وقد سمعه الحضور وهو يهمس من حين لآخر قائلا:

"يا إلهي.. يا حبيبي". وفي العاشرة من صباح ذلك اليوم الحزين غُشي عليه، وكان يتنفس بصعوبة. وفي العاشرة والنصف توقفت أنفاسه وانتقلت روحه إلى بارئها. وقد تم نقل جثمانه الشريف إلى قاديان فوصل إليها في الثامنة من صباح يوم ٢٧ مايو. وقد أُسجي الجثمان في بيت حديقته حيث استطاع أفراد جماعته الذين توافدوا على قاديان من كل قريب وبعيد أن يلقوا بالنظرة الأخيرة على الوجه الكريم لحبيبهم الراحل.

وكانت أنباء وفاة المسيح الموعود قد أصابت أفراد الجماعة بصدمة أليمة، فأصابهم الذهول. وفي غمرة الحزن الأليم الذي اكتنفهم، لم يكن أمامهم سوى اللجوء إلى الله تعالى بالدعاء الحار طلبا للهداية. ولعل أكثر الناس حزنا وأعمقهم شعورا بالألم كان المولوي نور الدين الذي عبر مرارا عن إحساسه بالخسارة العظمى، فكان يقول: إن الدنيا بعد وفاته تبدو بلا حياة.

فما هو العمل؟ وإلى أي طريق نمضي؟

* * *

اجتمع كبار أفراد الجماعة، بما فيهم أعضاء صدر أنجمن أحمدية في دار نواب محمد علي، زوج ابنة المسيح الموعود عليه السلام، بينما تجمعت الأعداد الغفيرة من أفراد الجماعة الذين توافدوا على قاديان في الحديقة الكبيرة بجوار البيت الذي وُضع فيه رفات إمامهم العظيم، انتظارا لما تتمخض عنه الأحداث. وتكلم الخواجه كمال الدين في الاجتماع المنعقد في المدينة فقال بأسلوب مؤثر: لقد ظهر في الدنيا رجل كان

مبعوثا من الله تعالى ودعا الناس إليه سبحانه، وقد استجبنا لدعوته والتففنا حوله. والآن قد رحل عنا وعاد إلى بارئه. فماذا يمكن لنا أن نفعل؟

وقد أصيب مستمعيه بصدمة ألزمتهم الصمت الذي استمر بعض لحظات، وبعدها قام الشيخ رحمة الله، وكان عضوا من أعضاء صدر أنجمن، فقال بصوت متهدج تتخلله العبرات: خلال الرحلة من لاهور إلى قاديان، كنت أقول لنفسي دائما، والآن أقوله لكم أيضا، أنه ينبغي علينا أن نطلب من أخينا الأكبر (يقصد المولوي نور الدين) أن يتولى القيادة، فبدونه سوف نضيع. ولم يبد أحد من الحضور اعتراضا على هذا الاقتراح، وقد فهم الجميع أن هذا هو الاقتراح المقبول. وكان من بين الحضور حضرة صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد الذي أبدى موافقته على الاقتراح. وكذلك فعل مير ناصر نواب والد زوج المسيح الموعود عليه السلام، الذي كان موجودا في الحديقة في ذلك الوقت. وبعد ذلك طُلب من الخواجه كمال الدين أن يستشرف رأي السيدة أم المؤمنين، فقالت إن المولوي المحترم هو أكثر أفراد الجماعة شرفا ومكانة، وهو الخليق بأن يكون الخليفة.

وقد تم كتابة كلمة قصيرة بهذا الخصوص، وذهب الحضور إلى حضرة المولوي نور الدين لتقديمها له، فتسلمها في صمت. وأبدى أنه سوف يعطي رأيا بعد أن يدعو الله تعالى طلبا للهداية وبعد أن يستخيره في الأمر. ولما قام بذلك قال: دعونا نذهب جميعا إلى حيث جثمان إمامنا مسجّى، وجميع الأخوة الآخرين في انتظارنا. وعند الوصول إلى الحديقة،

تولى المفتي محمد صادق، بناء على رغبة من المجتمعين، قراءة الالتماس التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم نحمد الله تعالى ونصلي على رسوله الكريم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد المصطفى خاتم النبيين وعلى المسيح الموعود خاتم الأولياء.

أما بعد، فحسب أمر المسيح الموعود عليه السلام المذكور في كتابه "الوصية"، فإننا نحن الأحمديين الموقعين أدناه مقتنعون بصدق القلب بضرورة أن يقوم جميع أفراد الجماعة الإسلامية الأحمدية، وكذلك جميع أولئك الذين يريدون أن ينضموا إليها في المستقبل، باسم أحمد عليه السلام، بتقديم بيعتهم إلى أول المهاجرين حضرة الحاج المولوي الحكيم نور الدين، الذي هو أعلمُنا وأتقانا وأكثرنا إخلاصًا وأطولنا صحبة لإمامنا الراحل، والذي اعتبره إمامنا أسوةً طيبة لنا، كما جاء في بيت شعر له:

ما أروعَ لو أن كل فرد من الجماعة يصبح مثل نور الدين

ولن يتم ذلك إلا إذا صار كل قلب مملوءًا بنور اليقين

وإن كل أمر يأمرنا به حضرته سيكون بالنسبة لنا مثل أوامر سيدنا المسيح الموعود والإمام المهدي عليه الصلاة والسلام".

وردا على هذا الالتماس وقف حضرة المولوي نور الدين وألقى كلمة كان مما جاء فيها:

فكروا في حياتي السابقة، وستجدون أني ما ابتغيت قط أن أكون إماما. إني أعلم نفسي جيدا، وربي سبحانه أعلم مني

بحقيقة أمري. إذ لم تراودني طوال حياتي أية رغبة في مرتبة من مراتب هذه الدنيا، وإنما كانت رغبتي دائما أن يكون ربي ومولاي راضيا عني. وأدعو الله تعالى أن يحقق لي هذه الرغبة. ولقد أقمت في قاديان بسبب هذه الرغبة نفسها، ومن أجلها أيضا سوف أستمر في الإقامة بها. لقد أمضيت أياما عديدة أفكر طويلا فيما عساه أن تكون حالتنا بعد وفاة إمامنا عليه السلام، ولذلك فقد اجتهدت لكي يستكمل ميان محمود (ابن المسيح الموعود عليه السلام) دراسته التعليمية.

هناك ثلاثة أشخاص بين أقارب سيدنا أحمد عليه السلام، أولهم ميان محمود الذي هو أخي، كما أنه بمثابة ابني أيضا، وله معي صلات قوية. ثم من ناحية صلة القرابة فإن السيد مير ناصر نواب محل احترامنا واحترام حضرته عليه السلام أيضا (والد أم المؤمنين). والشخص الثالث هو نواب محمد علي خان (زوج ابنة سيدنا أحمد).

أما من بين خدام الدين الآخرين فإن السيد محمد أحسن المحترم من أقدر الناس على ذلك، كما أنه من نسل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد خدم الدين بشكل يجعل شخصا مثلي يشعر بالخجل. لقد ألّف رغم سنه المتقدمة الكثير من الكتب في تأييد حضرته عليه السلام، وهذه خدمة ينفرد بها هو وحده. ثم هناك المولوي محمد علي المحترم، الذي يقوم بخدمات جليلة تفوق تصوّري. كل هؤلاء موجودون هنا في قاديان، وأما من بين المقيمين خارج قاديان فهناك السيد سيد حامد شاه، والسيد المولوي غلام

حسن، وغيرهما الكثير.

إن هذه مسؤولية ثقيلة وخطيرة أيضا، ولا يقوى على حملها إلاّ من أقامه الله تعالى، لأنه يكون مؤيدا بوعود الله العظيمة، التي تكون له سندا في حمل تلك المسؤوليات الجسام التي تقصم الظهر. فيتحتم علينا، رجالا ونساء، أن نكون متحدين متكاتفين. ولتحقيق هذه الوحدة فلتبايعوا واحدا من هؤلاء الأتقياء الذين ذكرتهم لكم، وسوف أكون معكم من المبايعين. إنني ضعيف، وأشكو من المرض، كما أن طبعي لا يتلاءم مع ذلك المنصب، وليس من السهل حمل هذه المسؤولية الجسيمة.

لقد قام حضرته عليه السلام بأربع مهام: (أ) الوفاء بمسؤولياته الشخصية باعتباره عبدا لله تعالى. (ب) تولي شؤون أسرته. (ج) تولي شؤون الضيافة. (د) العمل على نشر الإسلام، وكان هذا هو غرضه الحقيقي. وقد أخذ معه المهمة الأولى من هذه المهام الأربع، وكما عبَد الله في هذه الدار فسيعبده في الدار الآخرة، وليس عليكم شيء من هذه المهمة. ومن بين المهام الثلاث الأخرى، فإن مهمة نشر الإسلام هي المهمة الأكثر أهمية والأشد صعوبة. وبالإضافة إلى الإلحاد، فإن الإسلام قد ابتُلي بالانقسامات والخلافات الداخلية. وقد أقام الله تعالى جماعتنا هذه من أجل إزالة هذه الانقسامات والخلافات. قد تظنونها مسؤولية خفيفة، ولكنها شديدة ثقيلة على من سيحملها فعلا. وأقسم بالله أنكم إذا اخترتم أي

واحد من هؤلاء الصفوة الذين ذكرهم، فإنني سأكون على استعداد لمبايعته معكم جميعا.

أمّا إذا أصررتم على مبايعتي أنا، فاسمعوا وعوا.. إن البيعة معناها أن تبيعوا أنفسكم. في إحدى المناسبات أشار عليّ حضرته عليه السلام أن أتخلى عن فكرة العودة إلى وطني. ومن بعدها ارتبط كل شرف لي به عليه السلام، وبه وحده تعلق كل فكري، فلم أفكر بتاتا في وطني. لذلك فإن البيعة أمر صعب، لأن المرء يتخلى عن جميع حرياته، وعن كل طموحاته، ويضعها في يد شخص آخر. ولأجل ذلك فإن الله تعالى سمى الإنسان عبدًا؛ وعبء العبودية صعب أن يحمله الإنسان فيما يخص حتى أمور نفسه، فكيف يمكن أن يحمل عبء الآخرين أيضا؟ ونظرا إلى اختلاف الطبائع، فإن تحقيق الوحدة والترابط يحتاج إلى مجهود ضخم. إنني دائما أنظر بعين الإعجاب والاستغراب إلى المجهودات التي كان يقوم بها حضرته عليه السلام، فإنه رغم اعتلال صحته كان يتحمل هذه المسؤولية الجسيمة، ويكتب نثرا وشعرا، ويؤلف الكتب، ويقوم بالعديد من الأعمال الهامة الأخرى. إن سني مثل سنّه تقريبا، ولكنه كان يحظى بتأييد الله في كل يوم، أمّا حالتي فلا تستحق الذكر. لذلك قال تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾، أي أن كل ذلك يتوقف على فضل الله ونعمته.

إنني أود أن ألفت أنظاركم إلى الحدث الجليل الذي وقع في تاريخ الإسلام. فقد تمرّدت الجزيرة العربية بأكملها فيما عدا

مكة والمدينة ومكان أو مكانين آخرين، وكانت مكة على وشك الوقوع في براثن التمرد، ولكن أبا بكر وحّد كلمتهم على الإيمان بكلمته لهم: لقد كنتم آخر الناس في الإيمان، فلماذا تريدون أن تكونوا أول الناس في الكفر؟ وقالت ابنته السيدة عائشة: لو أن جبل المسؤولية الذي وُضع على أبي قد وُضع على شخص آخر لسحقه. لقد كان في المدينة عشرون ألفا من الرجال المقاتلين الأشداء، ولكن لما كان الرسول ﷺ يريد أن يبعث الجيش إلى الشمال، فإن أبا بكر نفذ مشيئته وبعث به. وفي هذا الموقف العصيب أراد الله تعالى أن يتجلى بقدرته سبحانه ويحقق وعده: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ (النور:٥٦). ونحن نواجه اليوم موقفا مشابها، وقبل أن نقوم بدفن جثمان المسيح الموعود عليه السلام فإني أود أن يتم الاتفاق بيننا.

بعد وفاة الرسول ﷺ قام صحابته بتوجيه من أبي بكر بتنفيذ العديد من المهام الكبرى، وكان أعظمها هو تجميع القرآن المجيد في شكل كتاب. والمهمة المناظرة لها اليوم هي العمل على وضع تعاليم القرآن المجيد موضع التنفيذ والممارسة. وكذلك فقد قام أبو بكر بتنظيم جمع الزكاة، وهذا مشروع عظيم يقتضي درجة عالية من الطاعة والتضحية؛ وهناك أيضا العديد من المهام الأخرى التي ينبغي إتمامها. والآن، مهما كانت ميولكم وطبائعكم، فإن عليكم أن تطيعوا جميع

أوامري. فإن كان هذا الأمر مقبولا لديكم، فإني أتحمل هذه المسؤولية طوعا أو كرها.

إن الشروط العشرة في عهد البيعة التي وضعها المسيح الموعود عليه السلام سوف تستمر كما هي. وسوف أضيف إليها الاهتمام بتعليم القرآن المجيد، وجمع الزكاة، وتدريب المبلغين، وما يلهمني به الله تعالى من مهام أخرى. إن التعليم الديني ومواد الدراسة في المعهد الديني سوف يستنْزف الكثير من وقتي. وإنني أتحمل هذه المسؤولية فقط لوجه الله وحده الذي قال: ﴿وَلْتَكُنْ مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ (آل عمران:١٠٥)، واذكروا دائما أن الخير كله في الوحدة، لأن الجماعة التي لا إمام لها جماعة ميّتة.

بعد أن انتهى من إلقاء كلمته انطلقت هتافات التهليل والتكبير من جميع الحضور الذين أتوا من قريب ومن بعيد، وكان عددهم يبلغ حوالي ١٢٠٠ شخص، وسَرَت فيهم روح الاطمئنان على مستقبل الجماعة، فمدّوا أيديهم مبايعين ومؤكدين: إننا سوف نطيع جميع أوامرك، فأنت أميرنا وخليفة المسيح.

لقد قضى هؤلاء أوقاهم منشغلين بابتهالاهم الدامعة إلى الله تعالى طلبا للهداية، وقد شعروا بالأمن والطمأنينة بعد أن أصبح لهم إمام مرة أخرى في شخص حضرة المولوي نور الدين. وقد أقسم الجميع على مبايعته باعتباره الخليفة الأول للمسيح الموعود. وكان نص عهد البيعة كما يلي:

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله (تتكرر ثلاث مرات).

إنني أبايع اليوم نور الدين، وأقبل جميع شروط البيعة التي وضعها المسيح الموعود عليه السلام، وأعد مؤكدا بأني سوف أبذل جهدي في تعلم واستماع القرآن المجيد وسُنة الرسول ﷺ والأحاديث الصحيحة وأن أعمل بمقتضاها، وسأكون دائما على استعداد لتكريس نفسي وكل ما أملك من أجل نشر الإسلام ما وسعني وبقدر طاقتي؛ وسوف أحرص على دفع الزكاة؛ وأبذل جهدي في إنشاء روابط الصداقة بين الأخوة.

أستغفر الله ربي من كل ذنب وأتوب إليه (تتكرر ثلاث مرات)

رب إني ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

وبعد أن بايع جميع الحاضرين خليفة المسيح، أمّ حضرته صلاة الجنازة على المسيح الموعود عليه السلام، ثم أمّ بعد ذلك صلاة العصر. وللمرة الأخيرة مرّ الجميع، الواحد تلو الآخر، بجوار الصندوق الذي كان يحتوي الجثمان الشريف، ليلقي نظرة الوداع على قسمات وجه حبيبهم الراحل. وتم دفن الجثمان الشريف الساعة السادسة بعد الظهر. إنّا لله وإنا إليه راجعون.

* * *

وفي اليوم التالي مباشرة، نشر الخواجه كمال الدين بصفته عضوا وسكرتيرا لصدر أنجمن أحمدية، البيان التالي:

"قبل صلاة الجنازة على المسيح الموعود عليه السلام، فإن جميع أفراد الجماعة الموجودين في قاديان، والذين بلغ عددهم ١٢٠٠ شخص، اختاروا حضرة الحاج الحكيم نور الدين حفظه الله، ليكون خليفته حسب التعليمات المسجلة في كتاب الوصية، وتوافقا مع توصيات أعضاء صدر أنجمن أحمدية الموجودين في قاديان، ورأي أقارب المسيح الموعود عليه السلام، وبإذن من حضرة أم المؤمنين؛ وقد بايعه الجميع على ذلك. ومن أعضاء صدر أنجمن أحمدية، كان حاضرا كل من المولوي سيد محمد أحسن، صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد، نواب محمد علي خان، الشيخ رحمة الله، المولوي محمد علي، الدكتور مرزا يعقوب بك، الدكتور سيد محمد حسين شاه، الدكتور خليفة رشيد الدين.

ورغم أن الوفاة كانت مفاجئة ولم يكن هناك وقت طويل للاستعداد اللازم، إلا أن أعدادا كبيرة من أفراد الجماعة قد توافدوا على قاديان من أمبالا، وجولوندهر، وكبورثله، وأمرتسر، ولاهور، وكوجرانوالا، ووزير أباد، وسيالكوت، وجامون، وكجرات، وبطالا، وكرداسبور، وغير ذلك من أماكن كثيرة. وقد قبل كل الحضور بالإجماع حضرة قبلة حكيم الأمة حفظه الله تعالى، وشاركوا في صلاة الجنازة على المسيح الموعود عليه السلام. وهذه الرسالة موجّهة لجميع أفراد

الجماعة، وذلك لكي يقوم الجميع بمجرد استلامها بأداء البيعة لحضرة حكيم الأمة، خليفة المسيح والمهدي، إما بشخصه أو عن طريق البريد.

وعند استلام هذه الرسالة قام جميع أفراد الجماعة على الفور وبكل حماس بأداء البيعة لحضرة خليفة المسيح. و لم تمض سوى أيام قليلة حتى عادت الجماعة مرة أخرى لتكون كلها تحت لواء واحد.

* * *

وهكذا استطاعت سفينة الأحمدية، التي تم تدشينها قبل تسعة عشر عاما، أن تُبحر بسلام خلال العاصفة العاتية التي هبت عليها على حين فجأة. غير أن الشقوق بدأت تظهر، وصوت القعقات بدأت تُسمع، وظهرت أولى علامات تلك الشقوق بعد أقل من أسبوع. ففي اليوم السادس بعد مبايعة الخليفة، الذي تعهد له الجميع بطاعة أوامره تماما كما كانوا يطيعون أوامر المسيح الموعود ؑ، حدث أن وصل الخواجه كمال الدين إلى قاديان. وأثناء تبادله الحديث مع صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد، قال كما لو أن ذلك كان بشكل عفوي:

- ميان، لقد ارتكبنا خطأ، ولكن يمكن إصلاحه فقط إذا استطعنا بطريق أو بآخر أن نتفق على تحديد سلطة الخليفة، فيكون له أن يقبل البيعة من الأفراد الجدد، وله أن يؤم الصلوات، وأن يقوم بعقد مراسم الزواج، وأن يؤم صلاة الجنازة، ولا شيء أكثر من هذا.

كان ذلك صوت ينذر بشر، ولذلك كان رد صاحبزاده:

- لقد سبق السيف العذل للتفكير في مثل هذا الأمر، وكان ينبغي عليك أن تفكر في هذا قبل أن تقدم على عهد البيعة. لقد أوضح الخليفة بكل جلاء أن البيعة تتضمن الطاعة الكاملة، وقد بايعناه على هذا الأساس وبهذا المفهوم. وعلى هذا فإن علاقتنا بالخليفة أصبحت علاقة العبد بسيده، وليس من حقنا أن نحدد سلطة سيدنا.

وقد أدرك الخواجه كمال الدين أن اقتراحه لم يلق القبول، فسكت ولم يحاول أن يواصل بحث الموضوع.

وقام الخواجه كمال الدين، بعد الحصول على إذن من خليفة المسيح، بقراءة "رسالة السلام" التي كانت تحتوي آخر الكلمات التي دونها المسيح الموعود عليه السلام. وكان ذلك يوم ٢١ يونيو (حزيران) ١٩٠٨ في اجتماع يحتوي عدة آلاف من المستمعين الذين اجتمعوا في قاعة الجامعة في لاهور. وقام برئاسة الاجتماع حضرة القاضي "براتول شاندرا شاترجي" قاضي المحكمة العليا في بنجاب.

الفصل الثالث عشر

مقام الخليفة

في نفس الوقت الذي تأسس فيه منصب الخليفة، سرت بعض الأقاويل بأن منصب الخليفة هو منصب روحي فقط، وأما إدارة وتصريف شؤون الجماعة فإن صدر أنجمن أحمدية هي التي ينبغي لها أن تخلف فيها المسيح الموعود عليه السلام. وكانت صدر أنجمن عبارة عن لجنة تستطيع أن تجدد نفسها بنفسها. فحسب القواعد التي تحكمها، والتي تم قبولها بناء على توصيات الخواجه كمال الدين، إذا حدث أن خلا مقعد أحد أعضائها بسبب وفاته أو استقالته، فإنه يمكن شغل هذا المقعد باتفاق أغلبية الأعضاء الباقين. فإذا حدث أن ثمانية من الأعضاء الأربعة عشر الذين تتكون منهم صدر أنجمن، اتفقوا فيما بينهم، فإنهم يشكلون أغلبية ومركز قوة، ويستطيعون أن يعملوا على تقوية وجودهم، وذلك بتعيين شخص يتوافق مع أرائهم. وعند وفاة المسيح الموعود عليه السلام، كان يوجد في صدر أنجمن مركز قوة، وكان الأعضاء البارزين فيه هم المولوي محمد علي، والخواجه كمال الدين، والشيخ رحمة الله، والدكتور سيد محمد حسين، والدكتور مرزا يعقوب بك؛ وينتمي الجميع إلى لاهور عدا المولوي محمد علي. وكان رئيس لجنة صدر أنجمن أحمدية هو المولوي نور الدين، بينما كان بعض الأعضاء الآخرين هم سيد محمد أحسن، وصاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد، ونواب محمد على خان، وخليفة رشيد الدين، وكان الخواجه كمال الدين سكرتير اللجنة.

ولما تولى حضرة المولوي نور الدين منصب خليفة المسيح، نتج عن ذلك موقف غريب وخاص، حيث إنه كان يجمع بين منصبين في نفس الوقت، فقد كان هو الخليفة، أي أنه هو الرأس الأعلى للجماعة كلها؛ كما كان أيضا رئيس لجنة صدر أنجمن. والغريب في الأمر أن المجموعة التي كانت تشكل مركز القوى داخل لجنة صدر أنجمن، استغلت هذا الوضع لمصلحتها، وذلك حتى تشوّش فهم بعض الناس. فقد راحوا يعطون الأهمية الأكبر لمنصب رئاسة اللجنة واعتباره مصدر كل السلطة بدلا من منصب الخلافة. ولم يكد يمر وقت طويل على ذلك حتى راح بعضهم يعلن أثناء خطابه في الجلسة السنوية التي عُقدت في شهر ديسمبر (كانون الأول) ١٩٠٨، ضرورة تقديم الطاعة الكاملة ل "الصدر الأعلى" والانصياع التام لأوامره. كذلك راحوا يسجلون في محضر جلسات لجنة صدر أنجمن توجيهات حضرة خليفة المسيح على أنها توجيهات "الرئيس". وقد انتهى هذا الوضع الشاذ عندما استقال الخليفة-الرئيس في عام ١٩١٠ من منصب الرئاسة على أساس أن المنصبين لا يتوافقان، وأوصى أن يتولى صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد منصب رئاسة لجنة صدر أنجمن. ولكن عند ذلك الوقت كان موضوع التنافس في الأهمية بين المنصبين قد ظهر إلى السطح وصار معروفا.

غير أننا ينبغي أن نعود إلى الوراء قليلا إلى حيث كانت بداية تطور الأمور. فالمولوي محمد علي، الذي صار فيما بعد أميرا للمجموعة

المنشقة، لم يكن على قناعة بضرورة مبايعة حضرة خليفة المسيح بعد وفاة المسيح الموعود عليه السلام، وذلك كما كتب بنفسه فيما بعد يقول:

> لقد مات المسيح الموعود عليه السلام في لاهور، وعندما وصل جثمانه إلى قاديان، أخبرني الخواجه كمال الدين في الحديقة أنه قد تم اقتراح أن يكون المولوي نور الدين هو الخليفة. ثم أخبرني أيضا بأنه قد تم الاقتراح أيضا بأن يقوم جميع أفراد الجماعة بمبايعته، وقد علّقت على هذا بأن ذلك ليس ضروريا، وإنما ينبغي على أعضاء الجماعة الجدد فقط أن يقوموا بالمبايعة، وهذا ما جاء في كتاب الوصية. ولا زلت على قناعة بأن جميع أولئك الذين بايعوا المسيح الموعود عليه السلام ليس عليهم أن يقوموا بمبايعة أحد. ومع ذلك، فقد قمت بالمبايعة من أجل المحافظة على وحدة الكلمة في الجماعة.

وقد بدا المولوي محمد علي، على الأقل حتى ذلك الحين، وكأنه كان ممتلئا بروح متّقدة من الطاعة، كما تشهد عليه العبارة التالية التي جاءت في منشور له بعنوان "إعلان هام" حيث قال:

> هناك نظام آخر للبيعة معمول به عند الصوفية ويسمى بيعة التوبة. والشخص الذي يقوم بأداء هذه البيعة يكون ملتزما بجميع أوامر شيخه، بنفس الدرجة التي تحققها البيعة للرسول صلى الله عليه وسلم أو للمسيح الموعود عليه السلام، ولكن هذه البيعة لا علاقة لها بالخلافة لأي منهما، وهذه هي البيعة التي بايعناها لحضرة خليفة المسيح، وبحق هذه البيعة نكون جميعا ملتزمين بطاعة جميع أوامر حضرة خليفة المسيح، بما في ذلك ما يختص منها

بشؤون العقيدة. لقد كان الغرض من هذه البيعة هو تقوية علاقاتنا الروحية بالله تعالى، والاستفادة من ارتباطنا بتلك الشخصيات الكريمة مثل حضرة خليفة المسيح، وأن تَنحني رؤوسنا في إجلال وتقدير لعلمه الغزير وفضله الكبير. ومن أجل تحقيق هذا الغرض، ينبغي على المريد أن يلقي بنفسه أمام شيخه كما لو أنه كان جثة ميّتة لا تتحرك بذاتها، وأن يُخضع له جميع رغباته؛ فلا يكون من أمر يقرر الشيخ صحته ومناسبته، فيتصوّر المريد أن شيخه لم يفهمه حق الفهم وأنه هو نفسه أقدر على فهمه منه. فبعد البيعة، يكون مثل هذا التصرف وقاحة سافرة في حق حضرة خليفة المسيح، كما أنه يكون مجرد هزء وسخرية بالهدف من البيعة نفسها.

وفي ضوء هذه العبارة يتبين أن المولوي محمد علي كان يؤمن تماما بالأمور التالية التي أكد حقيقتها حضرة خليفة المسيح:

١- إنني أقسم بالله العلي العظيم أنه هو سبحانه الذي جعلني خليفة.

٢- من هو ذلك الذي يستطيع أن يجردني من ثوب الخلافة؟

٣- لقد جعلني الله تعالى خليفة بإرادته وتقديره عز وجل.

٤- إنكم قد تلصقون بي ألوفا من الأخطاء، ولكنكم في حقيقة الأمر تتهمون التقدير الإلهي الذي جعلني خليفة.

٥- كما أن كلا من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما قد صار خليفة، هكذا جعلني الله تعالى خليفة بعد حضرته عليه السلام.

وفي الإعلان الهام الذي أذاعه المولوي محمد علي، قال بالحرف الواحد:

> إن هذا القديس المولوي نور الدين، الذي يُدعى خليفة المسيح، هو الشخص الوحيد الذي يستحق أن يُدعى بهذا اللقب بكل ما يحمله هذا اللقب من معنى.

ولعل المولوي محمد علي قد عنى بهذا القول أنه رغم الاعتراف بالمولوي نور الدين خليفة للمسيح، فإن هذا لا يعني أن مقام الخلافة سوف يستمر من بعده. غير أن حضرة خليفة المسيح نفسه قد قضى على أي شك في هذا الموضوع بقوله:

> إنكم لن تستفيدوا شيئا من هذا الجدال، فإن أحدا لن يجعل منكم خليفة، ولن يستطيع أي شخص آخر أن يكون خليفة أثناء حياتي. وعندما أموت فقط، فإن ذلك الشخص الذي يختاره الله تعالى هو الذي سيتولى منصب الخلافة، وسيوليه الله بنفسه هذا المقام.

* * *

يتضح من كل هذا أن المركز الذي كان يدور حوله الخلاف هو مقام الخلافة نفسه. وأما الخلافات العقائدية الأخرى فقد اخترعها المخالفون وأعطوها أهمية تفوق أهمية مقام الخلافة، وذلك لدعم وتأييد موقفهم من الخلافة. وحول هذه النقطة المركزية، كانوا على استعداد أن يقبلوا حضرة المولوي نور الدين كخليفة للمسيح، رغم أن ذلك كان رغما عن إرادهم وبتردد كبير. فإزاء الصدمة الشديدة التي سببتها مفاجأة وفاة المسيح الموعود عليه السلام، ألزم هؤلاء أنفسهم بشكل أكبر من

أن يسمح لهم بالتراجع مع حفظ ماء وجوههم. لقد قيّدوا أيديهم بأنفسهم وشدّوا وثاق القيد، ثم أدركوا أنهم قد أخطأوا فراحوا يتلمّسون الوسائل للخروج من المأزق الحرج الذي وضعوا أنفسهم فيه بأقل خسارة ممكنة، فإن أي مواجهة مباشرة مع الخليفة لن تكون مقبولة من جانب الجزء الأكبر من الجماعة، ولن يكون من الحكمة الإقدام عليها. وقد رأوا أن الخليفة يقترب من عامه السبعين في عمره، ولم يكن يتمتع بصحة قوية، وعن قريب سوف يأتي موضوع الخلافة إلى المقدمة من جديد، فكان من الضروري توجيه تفكير الجماعة إلى أن السلطة العليا هي سلطة رئيس لجنة صدر أنجمن، وأن الخليفة ليس إلا رمزا روحيا، خليق بالاحترام والتقدير، ولكن بغير أي سلطة. خاصة وأنهم كانوا يخشون أن يتولى منصب الخلافة صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد، الذي كان بالكاد يبلغ من العمر حينذاك عشرين عاما، ويعتبرونه مجرد غلام في طور المراهقة، غير أن خليفة المسيح كان يختصه باهتمام لم يكن هناك ما يبرره من وجهة نظرهم، كما كان يحمل له الكثير من الاحترام والتقدير. وإزاء هذا الوضع المؤقت كانوا حريصين على تثبيت وتأكيد أولوية مركز رئيس لجنة صدر أنجمن في علاقته بمركز الخليفة.

ومن أجل تحقيق هذا الغرض، لم يجد البعض منهم أي غضاضة في اللجوء حتى إلى تحريف العقائد التي ترسّخ وضوحها. فراحوا يقولون إنه من العبث الاستشهاد بالآية ٥٦ من سورة النور عن الخلافة، أو التمسك بالمماثلة مع أبي بكر تأييدا للخلافة، فلا شك أن الرسول ﷺ قد تبعته خلافة، وأما المسيح الموعود عليه السلام فقد كان هو نفسه خليفة

للرسول ﷺ، ولم يكن نبيا قائما بذاته، وعلى هذا لا يكون له خليفة. وعلى سبيل المثال، فإن الدكتور بشارت أحمد، الذي كان أحد الموقعين على الالتماس المكتوب المقدّم إلى حضرة المولوي نور الدين في ٢٧ مايو (أيار) ١٩٠٨ لقبول منصب الخلافة، كانت لديه الجرأة على أن يكتب قائلا:

لقد أوضحنا بغير لبس أن حضرة المرزا المحترم لم يكن نبيا، وإنما كان فقط خليفة للرسول ﷺ. والخلافة لا تتبع إلا النبوة، وأما وجود خليفة للخليفة فلا معنى له.

وقد كانت هذه الجملة تناقضا واضحا للتأكيدات الواضحة التي كان يدلى بها من وقت لآخر الكثير من قادة المجموعة التي كان ينتمي إليها الدكتور بشارت أحمد؛ بل إنه هو نفسه سبق له أن أكد ذلك بأن قال:

"وباختصار، سوف يكون هناك أنبياء ورسل، ولكنهم سوف يكونون تابعين للرسول ﷺ، وعلى هذا فإن نبوتهم ورسالتهم لن تتعارض مع ختم النبوة".

ويمكن ذكر العديد من الأمثلة الأخرى في هذا المجال. فقد أكد المولوي محمد علي، في الشهادة التي قدمها بعد أن أقسم اليمين بصفته شاهد في قضية القذف الجنائي التي رفعها كرم دين ضد المسيح الموعود عليه السلام عام ١٩٠٣، فقال:

"إن المتهم مرزا المحترم يُعلن أنه نبي، وقد أوضح دعواه هذه في منشوراته وكتبه، وأكد على أنه نبي، ولكنه لم يأت بشريعة جديدة".

وخلال خطاب ألقاه وتم نشره في جريدة الحكم الصادرة بتاريخ ١٨ يوليو (تموز) ١٩٠٨، قال المولوي محمد علي أيضا:

"مهما يكن التفسير الذي يقدمه المخالف للآية ٧٠ من سورة النساء ﴿وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ۞ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى بِاللهِ عَلِيمًا﴾، فإننا على يقين بأن الله تعالى يستطيع أن يجعل من يشاء نبيا أو صدّيقا أو شهيدا أو صالحا. وكل المطلوب هو وجود الشخص الذي يبحث عن الحق. وإن ذلك الذي بايعناه كان من الصالحين، واختاره الله تعالى وجعله رسولا كريما، وقد بلغت فيه روح الصدق ذروتها.

وقال الخواجه كمال الدين في خطاب له ألقاه في بطالا:

"لقد أقام الله تعالى في جواركم نبيا ورسولا، ويرجع الأمر إليكم في قبوله أو رفضه".

وقال سيد محمد حسين:

"إننا في غاية الامتنان لله تعالى أن تحققت نبوءة المسيح الموعود عليه السلام قد ثبت أن الوحي الذي يتلقاه هو كلمة الله عز وجل، وأن من يتلقى هذا الوحي هو رسول كريم من رسل الله، وقد أيده الله تعالى بأوضح دليل".

وقال الدكتور مرزا يعقوب بك:

"إنه من فضل الله تعالى أنه - من أجل تنوير الناس من ذوي الذكاء المتوسط من أمثالنا - يقيم الأنبياء والقديسين والصلحاء في جميع الأزمان".

وذكر المولوي عمر الدين الشملوي:

"إن معارضينا أقاموا عاصفة من الاعتراض على تفسير الحديث الشريف: "لا نبي بعدي"، وهم يذكرونه ويرددونه في كل مناسبة، وبناء عليه يحكمون على دعوى المسيح الموعود بالنبوة بأنها كفر وخداع، وها قد صاروا مثل علماء اليهود. وما يعنيه الحديث هو أنه لن يأتي نبي ذو شريعة بعد رسول الله ﷺ؛ وإنما من الممكن أن يأتي نبي يكون خادما له".

وقد نشرت جريدة "رسالة الصلح"، وهي الجريدة الناطقة باسم المجموعة المنشقة تصدر من لاهور الإعلان التالي في عددها الصادر في ١٦ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٣:

لقد وصل إلى علمنا أن بعض أصدقائنا قد وقعوا في سوء الفهم؛ حين إن أولئك الذين يرتبطون بهذه الجريدة، أو البعض منهم، يشوّهون المقام الجليل لسيدنا ومرشدنا حضرة مرزا غلام أحمد، المسيح الموعود والمهدي المعهود، عليه الصلاة والسلام. فإننا الأحمديون المرتبطون بوجه من الوجوه بجريدة رسالة الصلح، نُشهد الله تعالى المطّلع على سرائر القلوب، ونعلن أن من ينسب إلينا شيئا من هذا القبيل فإنه يرتكب بذلك فرية فاحشة. إننا نؤمن بالمسيح الموعود باعتباره نبيا ورسولا وهاديا لهذا العصر.

وعلى هذا فإن مقولة إن المسيح الموعود لم يكن نبيا، ولا يمكن أن يأتي بعده خليفة، لم تكن سوى مجرد حجة؛ ولم يكن لها من أساس. ولكن ما أن تم تبنّيها باعتبارها وسيلة ذكية للمراوغة، حتى صارت جزءا من عقيدة المعارضين للخلافة. فقد وجدوا فيها فرصة متاحة لرفض نبوة المسيح الموعود ﷺ. وتصوروا أنهم إذا تخلصوا من فكرة النبوة فإن الحاجز الرئيس أمام الجزء الأكبر من العالم الإسلامي للدخول في الجماعة الإسلامية الأحمدية سوف يزول، وأنهم هم وأولئك الذين يشايعونهم في أفكارهم سوف يكونون هم القادة الذين يمتطون سنام التجديد الفكري والروحي للإسلام. وأنهم سوف يقيمون أنفسهم على أساس تعاليم وفلسفة الإسلام كما قدمها المسيح الموعود ﷺ، ولكنهم لن يصروا على قبول كل دعواه. والبعض منهم، وبخاصة الخواجه كمال الدين، بدأوا يصيغون أحاديثهم العامة في هذا القالب، وتصوروا أنهم سوف ينالون نجاحا واسعا وفوزا كبيرا. وقد استدعى الأمر مرور بعض الزمن ليدركوا كم كانوا خاطئين في ذلك التصوّر.

* * *

وفي مسألة الخلافة، كان ينبغي لهم أن يكتفوا بما ذكره المسيح الموعود ﷺ في كتاباته وأحاديثه، وما أشار به من مراجع مضيئة عن موضوع الخلافة. فمثلا، حدث قبل مرور ستة أسابيع فقط من وفاته أنه أكّد في أحد أحاديثه على هذا الموضوع فقال:

"قال الصوفيون إن الشخص الذي يكون خليفة بعد الشيخ، أو بعد الرسول أو النبي، يكون هو الشخص الأول الذي يلهمه

الله تعالى بقبول الحق. إن وفاة الرسول أو الشيخ تكون بمثابة الزلزال الشديد، ويكون ذلك الوقت هو الوقت الذي تحل فيه الأخطار الكبيرة. ولكن الله تعالى قد وعد بإعادة الطمأنينة من خلال إقامة خليفة، وأن الخليفة يُحيي ويجدد الهدف الذي من أجله قام النبي أو الرسول المتوفى. لماذا لم يُعين الرسول ﷺ أبا بكر لكي يخلفه؟ لأنه كانيعلم يقينا بأن الله تعالى نفسه سوف يقيم الخليفة، وأن اختيار الخليفة أمر يعود إليه سبحانه، وأن اختياره لا يمكن الاعتراض عليه. وعلى هذا فقد أقام الله أبا بكر خليفة، لأنه ألهم قلبه فكان أول من قبل الحق.

وقد كان هذا تأكيد من المسيح الموعود عليه السلام بأنه سوف يتبعه خليفة، وأن الاختيار المحتمل هو المولوي نور الدين الذي كان أول من ألهمه الله تعالى بقبول الحق. وقد قال عنه:

لقد قبلني بغير تردد في وقت كدت أن أتهم من كل جانب بالكفر، ونكث الكثيرون ممن بايعوني عهدهم، أو أصابهم الفتور في الحماسة وسقطوا ضحية للشك. ثم كان المولوي المحترم الذي وصلني خطابه أولا في قاديان يعلن فيه قبول دعواي بأني أنا المسيح الموعود، وكتب فيه يقول: آمنا وقبلنا فاكتبنا مع الشاهدين.

وعلى هذا فقد كان التوجيه الرباني هو ذلك الذي وجّه قلوب جميع أولئك الذين اجتمعوا معا في لقاء روحي في الحديقة بقاديان بعد ظهر يوم ٢٧ مايو (أيار) ١٩٠٨، وجعلهم ينادون جميعا بصوت واحد بالمولوي نور الدين خليفة للمسيح، وأن يقوموا بمبايعته، وكان في

مقدمتهم أعضاء صدر أنجمن الذين ما لبثوا أن جعلوا لها الأولوية على الخلافة. ففي ساعة الأزمة وجدوا أنفسهم مدفوعين بتوجيه رباني أن يقرّوا بكل جلاء ووضوح: إن أوامره ستكون ملزمة لنا تماما كأوامر المسيح الموعود ﷺ، فلم يتركوا لأنفسهم مهربا. لقد كان ذلك هو فعل الله تعالى. ولكنهم بعد قليل راحوا يضعون الخطط للتملص، وحل التحريف والمغالطة محل الإخلاص والحماسة. وعندما ظهرت دعاياتهم ووصلت إلى السطح، بدأ أولئك الذين حباهم الله تعالى ببصيرة روحانية يشعرون بالخطر.

* * *

كان أحدهم مير محمد إسحاق، الأخ الأصغر لحضرة أم المؤمنين، وهو عالم مستنير، وجهبذ من جهابذة الدين، وكان شخصا يتصف بالتقوى المثالية، ويتميز بالاستقامة وصحة الرأي. وفي الجزء الأول من شهر يناير ١٩٠٩ كتب مجموعة من الأسئلة تتعلق بموضوع العلاقة بين الخليفة ورئيس لجنة صدر أنجمن، وقدمها إلى حضرة خليفة المسيح برجاء التفضل بإلقاء الضوء عليها. وقد بعث حضرة خليفة المسيح بهذه الأسئلة إلى المولوي محمد علي، وطلب منه تقديم بعض الأجوبة. وقد أخذته الدهشة عندما تلقى فحوى تعليقاته على تلك الأسئلة، التي كشفت أن الكاتب يتفق في الرأي مع المجموعة التي كانت تريد أن تضع نهاية لمقام الخلافة. فمثلا، كتب قائلا:

"لا يبدو من وصية المسيح الموعود أنه ينبغي للخليفة أن يكون فردا معينا، رغم أن هذا يمكن أن يحدث في بعض الظروف

الخاصة، كما هي الحال الآن. فإن حضرته عليه السلام أقام لجنة صدر أنجمن لتكون خليفته، وليس من المحتم أن يكون شخصا بمفرده هو الخليفة.

وعلى ذلك أمر خليفة المسيح بطبع نسخ بأعداد كبيرة من تلك الأسئلة وتوزيعها على الأفراد البارزين في الجماعة طالبا منهم أن يبعثوا بإجاباتهم عليها في تاريخ معيّن، وأن يأتي إلى قاديان في ٣١ يناير (كانون الثاني) مندوبون من جميع فروع الجماعة للتشاور.

وعندما وصلت الأسئلة إلى الخواجه كمال الدين في لاهور، دعا إلى اجتماع لأفراد الجماعة في مقر إقامته، وراح يحاضرهم ويقول لهم إن الجماعة تواجه أزمة قد تؤدي إلى القضاء عليها إن لم يكونوا على حذر؛ وإن الخليفة للمسيح الموعود هي صدر أنجمن، وإنه إن لم يتحقق هذا فإن الجماعة سوف تتعرض للخطر الذي يمكن أن يقضي عليها، وطلب من جميع الحضور الموافقة على قرار بهذا الخصوص. وقد رفض اثنان منهم فقط الموافقة على ذلك، كان أحدهما الحكيم محمد حسين قريشي، سكرتير الأنجمن المحلية، والآخر هو بابو غلام محمد، المشرف بمحطة السكك الحديدية، وذلك على أساس أنهما قد بايعا شخصا على علم أكثر منهم ويفوقهم جميعا في خشية الله تعالى، كما أنه كان يحترم المسيح الموعود عليه السلام ويقدّره أكثر منهم، ولذلك فإنهما سوف يطيعونه في كل ما يأمر به.

وعندما وصلت أنباء هذا الاجتماع إلى قاديان، عقد الشيخ يعقوب علي عرفاني، رئيس تحرير جريدة الحكم، اجتماعا في منْزله. وتم تبادل إلقاء الكلمات في هذا الاجتماع تأييدا للخلافة ومقامها الجليل، وتبنى

الجميع قرارا يؤكدون فيه ولاءهم وإخلاصهم للخليفة. كان عدد الحضور ٤٢ شخصا، رفض اثنان منهم الموافقة على القرار.

وفي ليلة ٣٠ يناير (كانون الثاني) كان الممثلون عن جميع فروع الجماعة قد وصلوا إلى قاديان. وقضى معظمهم الليل في الصلاة والدعاء إلى الله تعالى في المسجد المبارك، وشاركهم الباقون في صلاة الفجر. وقد تصاعدت إلى الله تعالى الكثير من الابتهالات التي تتوسل إليه من أجل الهداية، مع الدعوات المنبعثة من أعماق القلوب المؤمنة طلبا لعونه وتأييده. وكان الجميع يدعون الله تعالى كما لو أن الصبح سوف ينجلي عن يوم الحساب. وعندما تم رفع أذان الفجر واجتمع الجميع في المسجد، انتهز أولئك الذين يؤيدون تفوّق مركز صدر أنجمن على مركز الخليفة فرصة فترة انتظار وصول حضرة خليفة المسيح، وراحوا يبيّنون صحة نظريتهم للحاضرين من المصلين. وكان مما قاله الشيخ رحمة الله: إنه من دواعي الأسف أن يسعى بعض المفسدين إلى تنصيب شاب مراهق في منصب الخليفة، ويتسببون بذلك في انهيار الجماعة والقضاء عليها.

وعندما وصل حضرة خليفة المسيح ليؤم المصلين في صلاة الفجر، خيم على الجميع صمت تام. وفي الصلاة بعد أن قرأ سورة الفاتحة، تلى سورة البروج، وعندما وصل إلى الآية الحادية عشرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ تهدّج صوته وانفجر الجميع في موجة عارمة من البكاء. وأعاد تلاوة الآية الكريمة بصوت تخنقه العبرات، بينما كانت أرجاء المسجد قد

امتلأت بأصوات النحيب والعويل المتصاعد من قلوب المصلين المرتجفين. وكان يبدو أن جميع القلوب قد غُسلت وطُهّرت وامتلأت برهبة الله تعالى، وتملك على قلوبهم إيمان ثابت ويقين صادق، وشعر الجميع أنهم قد شاهدوا آية من السماء. وانتهت بذلك صلاة الفجر، وعاد حضرة خليفة المسيح إلى مقر إقامته.

وقد انتهز المنشقون فرصة الجو الطاهر الذي ملك الجموع، فقال الخواجه كمال الدين لمجموعة منهم إن ترديد تلاوة الآية ١١ من سورة البروج بصوت يعتصره الألم، يدل على أن حضرة خليفة المسيح قد بيّن بكل وضوح أن أولئك الذين ينْزعون عن الأنجمن، التي جعلها المسيح الموعود عليه السلام خليفة له، الأهمية الواجبة لها، ويعتبرون الخلافة هي الأعظم والأسمى، فإنهم يرتكبون خطيئة فتنة الجماعة، وسوف يكون لهم عذاب أليم. وللأسف، كم كان على خطأ! وسرعان ما تبين هو وزملاؤه حقيقة الأمر. إذ أشار إلى المرزا يعقوب بك بما يتعين عليه أن يفعله، فذهب ذاك إلى حضرة الخليفة نور الدين لتهنئته وقال له:

- أجمل التهاني، لقد تم شرح الأمر وعرف الجميع أن الأنجمن هي الخليفة.

فجاءه رد الخليفة قائلا:

- أي أنجمن؟ إن الأنجمن التي تتكلم عنها هذه لا تُعدّ شيئا ذا قيمة.

وانصرف المبعوث مكتئبا يكلله الخزي. وكان من الواضح أن الأمور سوف تكون من الصعوبة بمكان، غير أنه هو وأولئك الذين كان يمثلهم لم يكونوا يعلمون بعدُ ما كان ينتظرهم في القريب العاجل.

لقد تمت دعوة اجتماع الشورى إلى الانعقاد، وكان يبلغ عدد المشتركين فيه حوالي مائتين وخمسين فردا، وكان مقر الاجتماع على سطح المسجد المبارك تحت ضوء الشمس. وعندما تم حضور الجميع جاء حضرة خليفة المسيح، فدعوه أن يشغل كرسيا أُعد له في منتصف السطح، ولكنه أبى أن يجلس على الكرسي، وذهب بدلا من ذلك ناحية الشمال في ذلك الجزء من السطح الذي تم بناؤه بناء على توجيه من المسيح الموعود عليه السلام، وكان الطوب الذي بُني به السطح عاريا.

وبعد مرور عدة سنوات فيما بعد، وصف حضرة الخليفة الثاني للمسيح الموعود المنظر فقال:

> إن ذلك الاجتماع الذي ضم مائتين وخمسين شخصا يفترشون الأرض التي تتكون من قوالب الطوب العاري، قد يبدو في أعين الشخص العادي من أهل الدنيا أمرا غريبا وشاذا، غير أن قلوبهم كانت مملوءة بالإيمان، وكانوا على يقين من صدق تحقق وعود الله تعالى. فقد شعروا أنهم اجتمعوا سويا ليقرروا مستقبل الأحمدية التي يتوقف عليها أمن وتقدم العالم. وكان ذلك اليوم هو اليوم الذي سوف يتقرر فيه ما إذا كانت الأحمدية مجرد جماعة دنيوية من الجماعات الكثيرة الموجودة أم أنها هي الجماعة التي تضم الأتباع الحقيقيين لرسول الله ﷺ، والتي يتم بها تجديد الإسلام. إن مستقبل العالم كله كان سوف يتقرر في ذلك اليوم. قد لا يتبين ذلك اليوم، ولكن لن يمضي وقت طويل حتى يتبين أن هذه الحركة الدينية المغمورة سوف

تكون أكثر نجاحا في تحقيق ثورة سلمية وقدسية في العالم، أكثر من الحركات السياسية الواسعة الانتشار والتأثير في العالم.

بدأ حضرة خليفة المسيح في الكلام. وفي نبرة وقورة من الصوت راح يشرح أن الخلافة أمر من أمور الدين، ولا يمكن الاستغناء عنها إذا كانت الجماعة تريد التقدم. وقال حضرته:

إن الله قال لي إنه إذا تخلى عني أحد منكم، فإنه تعالى سوف ينعم عليّ بأعداد كبيرة بدلا منه، وعلى هذا فإني لا أعتمد على أحد منكم، بل إن اعتمادي كله على الله تعالى وفضله ويقيني بأنه سوف يعينني.

ثم أشار إلى الإجابات التي قدمها كل من المولوي محمد علي والخواجه كمال الدين على مجموعة الأسئلة فقال:

لقد قيل إن العمل الوحيد للخليفة هو أن يؤم الصلاة وصلاة الجنازة وأن يعقد النكاح ويتلقى البيعات. وكل من يقول هذا إنما هو جاهل ووقح، وعلى مثل هذا الشخص أن يتوب إلى الله وإلا فإنه يضر نفسه.

ثم قال بعد ذلك: إنكم بتصرفكم هذا قد تسببتم لي في كثير من الألم، واقترفتم خطيئة ازدراء منصب الخلافة. وقد أسهب لهم في شرح مقام الخليفة وطبيعة ونوعية الطاعة الواجبة له، حتى لم يعد في فكر أحد منهم أي شك فيما يحمله عهد البيعة من التزام. وقد أدان حضرته أولئك الذين لم يكونوا على ولاء للخليفة، كما عبر عن استيائه من أولئك الذين عقدوا اجتماعا بغير إذن منه لتأييد الخلافة. وفي النهاية دعا بعض

الأشخاص المعينين للتعبير عن وجهة نظرهم. فشرح كل من صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد ونواب محمد علي خان آراءهم التي كانت في توافق تام معه، وأكدّا أنهما لم يخالجهما في أي وقت أي فكر مخالف. وقدم الخواجه كمال الدين رأيا مائعا يحتمل كلا من وجهتي النظر ولكنه كان استرضائيا.

عندئذ دعا خليفة المسيح كلا من المولوي محمد علي والخواجه كمال الدين لأن يجددا عهد البيعة، واقترح عليهما أن ينتحيا جانبا ويبحثا الأمر فيما بينهما ليقررا ما إذا كانا على استعداد لذلك. كذلك فقد دعا الشيخ يعقوب علي عرفاني، الذي عقد اجتماعا في بيته تأييدا للخلافة، لتجديد بيعته. وقد امتثل ثلاثتهم للأمر وانتهى الاجتماع بذلك. وكان الشعور العام شعورا بالراحة والطمأنينة أن أزمة خطيرة قد أمكن تلافيها، وأنه قد تم المحافظة على الجماعة من أخطار تهديد مروّع كان يهدّد وجودها. غير أن المولوي محمد علي والخواجه كمال الدين كانا يغليان بالغضب الذي كان يفور داخلهما. وبمجرد نزولهما من على سطح المسجد، سمع البعض المولوي محمد علي وهو يقول للخواجه كمال الدين بانفعال وفي نبرات غاضبة: لقد أُهنا إهانة بالغة وأصبنا بالخزي من شخص يدّعي بأنه يرشد الجماعة. إنني لا أستطيع أن أتحمل هذا أبدا.

وبعد يومين أو ثلاثة، حدث أن خليفة رشيد الدين الذي كان في ذاته تجسيما لروح الصدق والإخلاص، وكان يتصف بالصراحة البالغة، كما كان يحمل للمولوي محمد علي كل تقدير ويعتبره دعامة هامة من

دعائم قوة الجماعة، جاء إلى حضرة خليفة المسيح وهو في حالة من الاضطراب الشديد، وكأن السماء كانت على وشك الانطباق على الأرض، وتمتم قائلا:

- إن كارثة كبرى تهدد بالوقوع، والرجاء اتخاذ إجراء سريع للعمل على تفاديها.

ولما سُئل أن يُفصح عن طبيعة هذه الكارثة، قال وهو يلهث:

- إن المولوي محمد علي يقول إنه قد أهين إهانة بالغة وإنه لا يستطيع الاستمرار في الإقامة بقاديان، وأرجوك أن تفعل شيئا بسرعة لكي تثنيه عن عزمه هذا حتى لا يغادر قاديان.

ورد عليه حضرة خليفة المسيح قائلا:

- اذهب وقل للمولوي محمد علي على لساني إنه ليس في حاجة لتأخير مغادرته، فله مطلق الحرية أن يترك قاديان على الفور.

وقد أصاب الذهول خليفة رشيد الدين فتمتم قائلا:

- إنني أخشى أن ينتج من ذلك سوءا كبيرا. فقال حضرة خليفة المسيح:

- حضرة دكتور، لقد قلت كلمتي. فإذا حدث أي سوء فإنه سيكون موجها ضدي أنا، فلماذا تقلق؟ أرجوك أن تخبره بأنه إذا أراد أن يرحل من قاديان، فله أن يرحل على الفور.

وبهذا يتبين أن تجديد البيعة التي قام به كل من المولوي محمد علي والخواجه كمال الدين لم يكن سوى مجرد انحناء للعاصفة، ولكن لم تكن لديهما النيّة في تغيير أسلوبهما. وسرعان ما جاءت المناسبة لوضع إخلاصهما محل الاختبار. كان فضل الدين البهيروي أحد أقرباء حضرة

خليفة المسيح، وكان قد ترك في "بهيرة" بعض الممتلكات التي كان قد اشتراها بثمن زهيد من أحد الشيعة الذي باعها تحت بعض الظروف الضاغطة، فتركها فضل الدين ميراثا لصدر أنجمن حسب وصيته. وقررت الأنجمن أن تبيع هذه الممتلكات. فلما علم صاحب الممتلكات الأول أنها سوف تُباع، كتب إلى حضرة خليفة المسيح وشرح له الخلفية التي اضطرته لبيعها للحكيم فضل الدين، وطلب أن تباع له نظير ثمن معقول. وأحال حضرة خليفة المسيح طلب الشراء إلى لجنة صدر أنجمن مع توصيته بأن يُنظر في الطلب بنظرة متعاطفة. وكان رد الأنجمن هو أن هذه الممتلكات سوف تُعرض للبيع في المزاد العلني، ويمكن لمالكها القديم أن يشترك في المزاد. وقد أوضح هذا التصرف أن أعضاء صدر أنجمن لم يكونوا على استعداد لأن يقبلوا توصيته باعتبار أنها قد تسبب بعض الخسارة للأنجمن. وشعر حضرة خليفة المسيح أن هذا التصرف لا يفتقد خلق الإحسان فحسب، بل إنه إهانة له. وعبر عن ضيقه بأن كتب على محضر الجلسة قائلا: افعلوا ما تشاءون، إنني لن أشغل نفسي بهذا الموضوع بعد ذلك.

وعندما أُثير الموضوع مرة أخرى في اجتماع أمناء الأنجمن، راح سكرتير اللجنة يُذكّر أعضاء اللجنة بواجبهم نحو الله تعالى، وسأل عما ينبغي عمله. فقال حضرة صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد إنه لما كانت رغبة حضرة خليفة المسيح التحلي بخلق الإحسان تجاه المالك القديم، فإنه ينبغي أن تُنفذ رغبته. فقال السكرتير إن خليفة المسيح ترك القرار للجنة، وقرأ ما كتبه على محضر الجلسة، فأشار صاحبزاده المحترم

إلى أن ما كتبه حضرة خليفة المسيح يعبر عن استيائه وليس عن إذنه بحرية التصرف، وعلى هذا ينبغي عليهم الالتزام بضرورة الانصياع لرغبته. وتبع ذلك مناقشة طويلة كانوا خلالها يرددون دائما أن على صاحبزاده أن يتذكر مسؤوليته أمام الله كواحد من الأمناء، ولكنه تمسك بموقفه الذي شرحه لهم. وأخيرا، تم في النهاية اتخاذ قرار بواسطة الأغلبية كان يخالف رأيه.

وعندما رُفع الأمر إلى حضرة خليفة المسيح، استدعى الأمناء لسؤالهم فقالوا إن القرار قد تم اتخاذه بعد المناقشة المستفيضة والتشاور في الموضوع باشتراك صاحبزاده المحترم. فأرسل حضرة خليفة المسيح في طلب صاحبزاده المحترم، فلما وصل سأله قائلا:

- لماذا تم مخالفة التوجيهات الواضحة التي أعطيتها يا ميان؟
- سيدي، لا أذكر أنني أخطأت في شيء.
- لقد أعطيت توجيهات معيّنة لبيع ممتلكات الحكيم فضل الدين في "بهيرة"، فلماذا لم تُتّبع هذه التوجيهات؟
- سيدي، إنني لم أشارك في انتهاك أوامركم. لقد قلت لهم مرارا إنه ينبغي الانصياع لتوجيهاتكم، وشرحت لهم أن مذكرتكم تعبر عن استيائكم وليس عن الإذن بحرية التصرف.

فالتفت حضرة خليفة المسيح إلى الآخرين وقال لهم:

- إنكم تقولون إنه لا يزال شابا مراهقا، ومع ذلك فقد فهم ما قصدته من المذكرة بينما لم تفهموا أنتم مقصودها.

بعد ذلك راح حضرة خليفة المسيح يشرح لهم أهمية الطاعة وأنها مصدر من مصادر نزول الخير والبركات، ونصحهم بأن يُقوّموا طرقهم وأساليبهم، وإلا فإنهم سوف يحرمون أنفسهم من الفضل الإلهي.

كان الأخ الأصغر للحكيم فضل الدين على استعداد أن يدفع ثمنا عاليا لشراء الممتلكات المعروضة للبيع، ولكنه عندما علم بوجود الخلاف بين حضرة خليفة المسيح وصدر أنجمن سحب عرضه، ولم تجد الأنجمن أمامها خيارا آخر سوى أن تنصاع لرغبة حضرة خليفة المسيح. وقدّم أعضاء اللجنة اعتذاراتهم لحضرة خليفة المسيح، ولكن لم يكن هناك تغيير ملحوظ في سلوكهم، واستمرت دعاياتهم ضده. وفي سبتمبر (أيلول) عام ١٩٠٩ أعلن أنه إن لم يتم تحسن حقيقي في مسلكهم بمقدم عيد الفطر فإنهم سوف يُفصلون من الجماعة. وفي هذا الخصوص، قدم زعماء المجموعة نوعا من الاعتذار، ولكن لم يكن في سلوكهم ما يشير إلى تقدم أو تغيير.

* * *

في خطبة عيد الفطر يوم ١٩ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٠٩، أعاد حضرة خليفة المسيح توجيه النصح إليهم بشكل مستفيض. ومن بين العديد من الأشياء التي ذكرها قال:

> لا توجد جماعة بغير اتحاد ووفاق، ولن تستطيعوا أن تحرزوا أي تقدم إلى أن تحققوا هذه الوحدة.

وبعد أن أشار إلى آدم وداود عليهما السلام، وحضرة أبي بكر رضي الله عنه باعتبارهم خلفاء، وما حل بأولئك الذين كانوا يعارضونهم، قال بعد ذلك:

وأنا الآن خليفتكم، فإن قال أحدكم إن اسم نور الدين لم يكن مكتوبا في كتاب الوصية للمسيح الموعود عليه السلام، فإن ردّي هو أن أسماء أولئك الذين ذكرتهم لم يكن أيضا مكتوبا في أي نبوءة سابقة.

إن الجماعة بأكملها قد قبلتني خليفة بالإجماع، فمن يتصرّف بخلاف هذا الإجماع يضع نفسه في خلاف مع الله تعالى، كما قال سبحانه في الكتاب العزيز: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ من بَعْد مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ (النساء:١١٦). ثم اعلموا جيدا أنكم إذا سلكتم بما يناقض عهد البيعة الذي بايعتم به، فإن قلوبكم سوف يملؤها النفاق ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَآ أَخْلَفُوا اللّٰهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (التوبة:٧٧). فلماذا أوجّه لكم هذه النصائح؟ لأن البعض منكم يفتقد الفهم الصحيح، وقد بدا الضعف منهم مكررا، ولا أظن أنهم أعلم مني بهذه الأمور.

إنني أعلن بكل ما في استطاعتي من تأكيد، وأُشهد الله تعالى على أنني لن أخلع الثوب الذي ألبسنيه الله. لقد أقامني الله سبحانه من أجل غرض معين. فإذا عارضتموني أنتم وكل العالم معكم فلن يهمني ذلك في شيء. حافظوا على عهد

البيعة، وسرعان ما ترون مدى التقدم والنجاح الذي تحققونه. إنه ينبغي عليّ أن أقول هذه الأشياء لأنها لا بد أن تُقال. لقد أكد الله تعالى لي وطمأنني بأنه سبحانه سوف يؤيدني ويعينني. إنني لا أطالبكم بتجديد عهد البيعة، ولكن عليكم أن تحافظوا على عهد البيعة الأول الذي بايعتم به، وإلا ستمتلئ قلوبكم نفاقا. إذا ظننتم أن فيّ أي انحراف عن الحق فحاولوا أن تُقوّموه من خلال الدعاء، ولكن لا تظنوا أنكم يمكن أن تعلموني المعنى الصحيح لآية من آيات القرآن المجيد، أو معنى حديث شريف، أو معنى أي جزء من كتابات المسيح الموعود عليه السلام. إن كان أحدكم يتصور أني فاسد فلكم أن تبتهلوا إلى الله تعالى كي يزيلني من هذه الدنيا، ثم انظروا بعد ذلك على من سوف تتحقق هذه الابتهالات.

من الأمور التي أُسيء فهمها أيضا معنى كلمة "المعروف"، إذ يقولون إن عهد البيعة يلزمهم بالطاعة فقط فيما يعتبرونه من المعروف. والقرآن المجيد قد استعمل هذا التعبير في حق الرسول ﷺ ﴿وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ (الممتحنة:١٣)، فهل كتبوا قائمة بأخطائه؟ وقد اتّبع المسيح الموعود نفس الأسلوب وقرر أن تكون ضمن شروط البيعة الطاعة في كل ما هو معروف. إنني أشرح لكم كل هذه الأمور لحمايتكم من الوقوع في الخطأ.

ثم يُقال إنني أقابل الجميع، الكبير والصغير، بشكل دائم ومستمر. وردّي المختصر على أولئك الذين بايعوني هو: إن عليكم أن تطيعوا توجيهاتي، وليس عليّ أن أطلب التوجيه منكم. إنني في شدة القلق عليكم كي لا يصيبكم ابتلاء، وإن وقوعكم في الخلاف أمر يثير الخوف، وهو أشد من انفجار القنابل أو وقوع الزلازل.

إن الاندفاع في التعبير عن الشعور أمر سهل، ولكن ليس من السهل التراجع عنه. ويقول البعض منكم إنهم لا يسعون لتحديد سُلطاتي، ولكنهم يريدون إيضاح وتحديد سلطات من يخلفني، ولكنهم لا يتصوّرون أنه قد يكون أعظم من أبي بكر ومن حضرة المرزا المحترم.

لقد كان في ذهني أن أتخذ خطوة معينة اليوم، ولكن الله تعالى كفّ يدي. لقد غمرني سبحانه بحكمته وعدله. فمن كان منكم يعاني من ضعف وقصور فعليه أن يجاهد من أجل التغلب عليه. إنني لن أفصلهم من الجماعة ما دامت هناك فرصة لهم أن يتخلصوا من سوء الفهم، فلن أحرمهم منها. وأحثكم على أن تتجنبوا كل مشاعر الحقد والحسد. وإذا وقع أمر يتعلق بالأمن أو الخوف فلا تذيعوه؛ ولكن إذا تمت معالجته فيمكن أن تنشروه.

إنني أقول لكم إن عليكم أن تلتزموا بكل هذا سواء رضيتم أم لم ترضوا. فإذا التزمتم به برضى فسيكون هذا خيرا لكم. إني أنصحكم من أجل مصلحتكم، فعسى أن يعينكم الله تعالى

ويعينني كي نستمر في السير على صراطه المستقيم، وأن يجعل لنا جميعا حسن الخاتمة.

* * *

كان الجهد الأكبر للمجموعة المنشقة قد توجه الآن إلى كسب الأغلبية المسلمة الأخرى من خلال نشر فلسفة التعاليم والقيم الإسلامية كما قدمها المسيح الموعود عليه السلام، دون الإشارة إليه ودون ذكر اسمه، مع إغفال الفروق التي تميز أفراد الجماعة الإسلامية الأحمدية من غيرهم. وبدأ بعض أفراد الجماعة يميلون إلى تأييد الخط الذي اتّبعه هؤلاء، غير أن صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد، وقد أدرك خطورة الضرر الذي يمكن أن ينجم عن سلوك هذا الخط، اتخذ الخطوات اللازمة لكشف خواء وأخطار هذه المخادعة التي دعت لسلوك هذا الخط، وبالتالي فقد استطاع أن يوقف اتّباع أفراد الجماعة لهذا الخط المخادع.

وفي يوم الجمعة ١٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٠، حدث أن سقط حضرة خليفة المسيح من على ظهر مُهر كان يمتطيه، وأصيب ببعض الإصابات كانت بعضها خطيرة، وهي التي أصابت صدغه الأيمن، وظل لعدة أيام في حالة خطيرة. وبينما كان في هذه الحالة، قال للدكتور مرزا يعقوب بك في أحد الأيام، وكان هو الطبيب الرئيس الذي يتولى علاجه: إنني لا أخشى الموت، إذا كنت ترى أن حالتي خطيرة فعليك أن تصارحني بذلك حتى أكتب بعض التوجيهات. ولكن الطبيب أكد له أنه ليس في تلك الدرجة من الخطورة التي تسبب الموت، ولكن إذا ساءت حالته وأنذرت بالخطر فإنه سوف يخبره عن ذلك بنفسه. ورغم هذا،

فإنه بمجرد أن غادر الغرفة وذهب إلى زملائه في غرفة المولوي محمد علي، راحوا جميعا يفكرون سويا فيما ينبغي عمله. وأرسلوا في دعوة صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد ليشاركهم. وعندما وصل، راح الخواجه كمال الدين يشرح له الموقف كما يلي: لقد أتعبناك بالحضور إلى هنا، ولكن قيل لنا إن حضرة المولوي المحترم مريض جدا ويعاني من الضعف. ونحن الذين جئنا من لاهور لا نستطيع أن نبقى هنا زمنا طويلا حيث ينبغي أن نعود إلى لاهور. ونود أن نتشاور بعضنا مع البعض لنتفق على خطة عمل لتجنب خطورة أي مشاكل في المستقبل إذا وقع طارئ. ونود أن نؤكد لك أنه لا يوجد من بيننا من يريد أن يكون خليفة، ولا حتى المولوي محمد علي.

وقد أفاد المولوي محمد علي بما يؤكد عدم رغبته في الخلافة، واستطرد الخواجه كمال الدين قائلا: إننا نرى أن لا أحد سواك يستحق أن يكون خليفة، ونحن جميعا متفقون على أنك ينبغي أن تكون الخليفة؛ ولكننا نرجو ألا يُتّخذ أي قرار إلى أن يتم وصولنا من لاهور، حتى لا يتخذ أحد خطوة ما بشكل متسرع قد تسبب بعض المشاكل في المستقبل، ولذلك فلا بد من الانتظار إلى حين وصولنا.

استمع صاحبزاده المحترم له بغير أي مقاطعة، رغم أنه كان يمجّ إيماءاتهم بأنهم كانوا لا يطمعون في الخلافة بينما هو الحريص على نوالها، فلما انتهى من كلامه قال: إنني أعتبر أن مجرد مناقشة موضوع من يكون الخليفة، أثناء وجود خليفة وفي حياته، هو إثم وخطيئة، ناهيكم عن الاتفاق بتحديد شخص معين ليكون هو الخليفة. وبعد أن قال هذا غادر المكان وتركهم لأساليبهم.

كانت الإصابة في صدغ حضرة خليفة المسيح تتماثل للشفاء ببطء إلى أن أصبحت قرحة. وفي ليلة ١٩ يناير (كانون الثاني) ١٩١١ عندما شعر بضغط في قلبه، طلب ورقا وقلما، وكتب شيئا على ورقة صغيرة ووضعها في مظروف، وبعد أن أغلق المظروف كتب عليه ما يلي باللغة العربية: تمثلا بأبي بكر. وكتب تحتها باللغة الأردية: بايعوا الشخص المكتوب اسمه بالداخل. وسلم المظروف ليكون في حوزة تلميذه المقرّب إليه الشيخ محمد تيمور. وقال له: في حالة وفاتي، ينبغي أن يُتّبع التوجيه الموجود هنا.

وبعد بضعة أيام، ومع تحسن حالته الصحية، أرسل في طلب المظروف وقام بتمزيقه. وقد اعترف المولوي محمد علي بأن حضرة خليفة المسيح قد أعطى هذا التوجيه عندما تحدث عن هذه الواقعات فقال: لقد علمت من مصدر موثوق به أنه في وصيته التي كتبها في ١٩١١ قد ذكر اسم مرزا بشير الدين محمود أحمد المحترم ليكون خليفته.

الفصل الرابع عشر
الخلافة

قام المسيح الموعود عليه السلام بتعريف مهمة الخليفة في كتاب وصيته، وذلك على النحو التالي، حيث قال:

هذه هي سُنة الله الجارية، ومنذ أن خلق الإنسان في الأرض ما زال يُبدي هذه السنة دون انقطاع أنه ينصر أنبياءه ومرسليه، ويكتب لهم الغلبة، كما يقول: ﴿كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ (المجادلة:٢٢). والمراد من الغلبة هو أن تتم حُجّة الله على الأرض بحيث لا يقدر أحد على مقاومتها، فإن الله تعالى يظهر صدقهم بالبيّنات، ويزرع بأيديهم بذرة الحق الذي يريدون نشره في الدنيا، غير أنه لا يُكمّله على أيديهم، بل يتوفاهم في وقت يصحبه الخوفُ من الفشل باديَ الرأي، فيفسح بذلك المجال للمعارضين ليسخروا، ويستهزئوا، ويطعنوا، ويشنّعوا. وحينما يكونون قد أخرجوا كل ما في جعبتهم من سخرية واستهزاء، يُظهر الله تعالى يد القدرة الثانية، ويهيئ من الأسباب ما تكتمل به الأهداف التي كانت إلى ذلك الحين غير مكتملة لحدّ ما.

فالحاصل أنه تعالى يُري قسمين من قدرته: أولا، يُري يد قدرته على أيدي الأنبياء أنفسهم، وثانيا، يُري يد قدرته بعد وفاة النبي حين تواجه المحن ويتقوى الأعداء ويظنون أن الأمر

الآن قد اختل، ويوقنون أن هذه الجماعة سوف تنمحي، حتى إن أعضاءها أنفسهم يقعون في الحيرة والتردد، وتنقصم ظهورهم، بل ويرتد العديد من الأشقياء، عندها يُظهر الله تعالى قدرته القوية ثانيةً ويساند الجماعة المنهارة. فالذي يبقى صامدًا صابرًا حتى اللحظة الأخيرة يرى هذه المعجزة الإلهية، كما حصل في عهد سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حيث ظُنّ أن وفاة الرسول ﷺ قد سبقت أوانها، وارتد كثير من جهال الأعراب، وأصبح الصحابة من شدة الحزن كالمجانين، عندها أقام الله تعالى سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه، وأظهر نموذجا لقدرته مرة أخرى، وحمى الإسلام من الانقراض الوشيك. وهكذا أتم عز وجل وعده الذي قال فيه ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (النور:٥٦)، أي أنه تعالى سوف يُثبّت أقدامهم بعد الخوف. وهذا ما حدث بالضبط في زمن سيدنا موسى عليه السلام، فقد اختطفته يد المنون وهو في الطريق ما بين مصر وأرض كنعان قبل أن يوصل بني إسرائيل إلى غايتهم المنشودة حسب الوعد. فقام بموته مأتم كبير بين بني إسرائيل. وكما ورد في التوراة أن بني إسرائيل ظلوا يبكون وينوحون إلى أربعين يوما جرّاء صدمة موته المفاجئ. وهذا ما حدث في زمن عيسى عليه السلام أيضا حيث تشتت الحواريون كلهم عند حادث الصلب، وارتد واحد منهم أيضا.

فيا أحبّائي، ما دامت سُنّة الله القديمة هي أنه تعالى يُظهر قدرتين لكي يحطّم بذلك فرحتين كاذبتين للأعداء، فمن المستحيل أن يغير الله تعالى الآن سُنته الأزلية. لذلك فلا تحزنوا لما أخبرتكم ولا تكتئبوا، إذ لا بد لكم أن تروا القدرة الثانية أيضا. وإن تلك القدرة الثانية لا يمكن أن تأتيكم ما لم أغادر أنا، ولكن عندما أرحل سوف يُرسل الله لكم القدرة الثانية، التي سوف تبقى معكم إلى الأبد.

وهكذا، إن مهمة الخليفة هي أن يحقق أهداف سيده. وعلى هذا، كان أول ما اهتم به حضرة خليفة المسيح هو أن يستكمل المشروعات التي كانت معلقة، أو كانت تنتظر التنفيذ عند وفاة المسيح الموعود عليه السلام.

* * *

كان المسيح الموعود عليه السلام قد أسس في عام ١٩٠٦ معهدا للتعليم الديني يسمى "المدرسة الأحمدية"، وذلك لتقديم التعليم الديني على مستوى عال، ولتدريب وإعداد العلماء والدعاة الذين يمكن تكليفهم بمهمة حمل رسالة الجماعة، ونشر مبادئها وقِيَمها في القريب والبعيد؛ ولكن نظرا لقلة الموارد المالية، ظل المشروع في مراحله الأوّلية. وقد عيّن حضرة خليفة المسيح في يونيو (حزيران) ١٩٠٨ لجنة تتكون من صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد، والمولوي محمد علي، ونواب محمد علي خان، والدكتور خليفة رشيد الدين، لاتخاذ الخطوات اللازمة لوضع ذلك المعهد في الوضع المناسب. وقد وضعت اللجنة خطة للعمل، واقترحت اتخاذ خطوات معينة، وتقدمت لأفراد الجماعة بنداء لجمع

الأموال اللازمة. وقد تطور هذا المعهد الديني منذ ذلك الحين وأصبح جامعة يقوم خرّيجوها بمهمة عظيمة في نشر رسالة الإسلام الصحيح في مختلف أنحاء العالم.

كان المسيح الموعود عليه السلام يرغب في أن يكون بين أفراد الجماعة مئة شخص على الأقل يتميّزون بوجه خاص بالصفات النبيلة والقدرات الطيبة، وأن يكونوا على دراية وعلم بجميع الآيات والأسباب والبراهين التي أظهرها الله تعالى لتأييد الجماعة وإثبات صدق دعواه عليه السلام، حتى يمكن لهم الرد بأحسن ما يمكن على جميع الانتقادات العدائية التي يوجهها المخالفون. كذلك ينبغي لهم أن يتمتعوا بالقدرة على إزالة جميع الشكوك التي يسعى دعاة المسيحية والآرية الهندوس لبثّها ضد الإسلام، وأن يشرحوا بأسلوب مقنع جمال التعاليم الإسلامية. ولتحقيق هذا الغرض أعلن في ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٠١، أن تقوم مجموعة من الأفراد الذين يتميزون بالحكمة والذكاء والعلم، بدراسة كتبه عليه السلام وكتاباته، ثم يتقدمون للامتحان في ٢٤ ديسمبر (كانون الأول) في قاديان، وينبغي أن تتكرر هذه الدراسة والامتحان كل عام. ولكن لسبب أو لآخر، لم يتقدم المشروع في ذلك الوقت. وفي يوليو (تموز) ١٩٠٨، شعر حضرة خليفة المسيح بضرورة وجود مجموعة من الدعاة على معرفة عميقة بالعلوم الدينية ليتولوا حمل رسالة الإسلام إلى مختلف بقاع الأرض. وبينما كان يقلب الأمر في فكره، تصادف في ١٦ يوليو (تموز) أن عثر على الإعلان الذي نشره المسيح الموعود عليه السلام في ٩ سبتمبر (أيلول) ١٩٠١. وقد تأثر به تأثرا بالغا، وأصدر أوامره على الفور بنشر النداء

بين أفراد الجماعة، وأن يُعقد امتحان في شهر ديسمبر من كل عام في مجموعة معينة من كتب المسيح الموعود عليه السلام، بدءا من ٢٤ ديسمبر ١٩٠٨. ومنذ ذلك الحين، ظل أسلوب دراسة كتب المسيح الموعود عليه السلام معمولا به على نطاق أوسع وأوسع في جميع تنظيمات الجماعة.

* * *

بعد وفاة المسيح الموعود عليه السلام، كان هناك فيض من الانتقادات والاعتراضات التي هالها المعارضون على دعاويه. وقد قام العديد من العلماء والدعاة من بين أعضاء الجماعة بكتابة المقالات والكتيّبات في الرد على هذه الاعتراضات. وكتب حضرة خليفة المسيح أيضا كُتيّبا بعنوان "وفاة المسيح الموعود". وقد بناه على الآية الكريمة: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْله الرُّسُلُ﴾ (المائدة:٧٦)، والآية الكريمة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ (آل عمران:١٤٥).

وفي هذا الكتيب بدأ بحمد الله تعالى على فضله العظيم، بأن حفظ الجماعة من الانهيار والتفكك بعد وفاة المسيح الموعود عليه السلام، وحقق الوحدة والتوافق بين أفرادها. ثم قال:

> أحبائي، تفكروا كيف أن الله تعالى القوي العزيز قد نفخ روح الوحدة والتوافق في الجماعة بأكملها، من شمالها إلى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها. اللهم فداك نفسي على فضلك العظيم. فليس هناك ابن واحد للمسيح الموعود عليه السلام، بل هناك أربعة أبناء وحفيد له على قيد الحياة، وهناك أيضا زوج ابنته، ذلك الإنسان الكريم القدير الذي جمع في اسمه "محمد" و "علي"،

وهناك أيضا حموه، ذلك الأب الذي هو في مقام الوالد الكريم، ومع ذلك فإن الجماعة بأكملها، بما فيهم هؤلاء الأكارم الذين ذكرتهم، قد بايعوا شخصا من خارج العائلة.

والآن، فليعقد مخالفوه الاجتماعات، وليفرحوا كما شاءوا، لقد شاهدوا تجلي القدرة الإلهية الأولى وعونه سبحانه، والآن.. فليشاهدوا ظهور القدرة الثانية. إن هذه الشجرة الطيبة قد حفظتها يد العناية الإلهية بخالص فضله عز وجل، وسوف تنمو وتزدهر بنفس الفضل، رغم قلة عدد أفراد جماعتنا وقلة مواردها والعاملين فيها.

وأنتم يا معارضينا المتعجّلين.. كان ينبغي عليكم أن تتحلوا بشيء من الصبر. لقد شاهدتم تجلي القدرة الإلهية الأولى، وكان عليكم أن تُطَمْئِنوا قلوبكم بضرورة تجلّي القدرة الثانية؛ ولكن الله تعالى حفظ جزاء الصبر لنا أيضا، فالحمد لله رب العالمين.

ألم تروا أن إمامنا قد انتقل إلى جوار الله، وأننا قد تحملنا فراقه بثبات؟ أما أنتم فعبّرتم عن مواساتكم لأحزاننا بمظاهرات عدائية حملتم فيها الصور والتماثيل الساخرة، وخلع علماؤكم وزعماؤكم لقب "خدام الدين" على المتظاهرين. إن الطيب والسيئ يموت يوميا في جميع أنحاء العالم، فهل قرأتم في أي مكان متى اتبع المسلمون هذا الأسلوب في التعبير عن مواساتهم؟ فمن قام بهذا التصرف فقد اكتسب لنفسه لقب:

"من ابتدع بدعة سيئة". إن جموع المسلمين في لاهور قاموا بصخب رهيب لم يكن من الممكن تصوره، حتى إنني أصبحت أخشى أننا لن نتمكن من الوصول إلى محطة القطار. ولكن، على حين فجأة أرسل الله تعالى الشرطة، من رحمته سبحانه، لتقوم بحراستنا إلى أن تمكنّا من ركوب القطار دون أي صعوبة، مع شعورنا بالامتنان للحكومة في قلوبنا.

لقد ترك حضرة المرزا المحترم ستة أبناء؛ فالحمد لله رب العالمين. فإذا تبين أن واحدا منهم أو من ذريتهم كان هو الابن الموعود، أي عمانوئيل العظيم، الذي جاء ذكره في نبوءة المسيح الموعود عليه السلام، فكيف تستطيعون أنتم أو ذريتكم أن تواجهوا العالم في ذلك الوقت؟

وفي تلك المناسبة، كتب أيضا صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد الذي لم يبلغ بعد العشرين من عمره، كتيّبا بعنوان: من الذي يستطيع أن يطفئ نور الصادقين؟ وقد أبدى حضرة خليفة المسيح رأيه للمولوي محمد علي بعد قراءة الكتيب فقال:

- لقد كتبنا أنا وأنت ردودا نفند فيها اعتراضات المخالفين على المسيح الموعود عليه السلام، ولكن ميان محمود تقدم على كل منا وتركنا في المؤخرة.

وحينئذ أرسل نسخة من ذلك الكتيب بالبريد المسجل إلى محمد حسين البطالوي وكتب إليه قائلا: لقد زعمت أن ذرية حضرته ليست ذرية طيبة. وقد أرسلت إليك كُتيّبا كتبه واحد منهم، فإن كتب واحد من ذريتك شيئا فأرسل لي نسخة منه.

كان حضرة خليفة المسيح يتميز ببعض الأمور الخاصة، ولعله من المفيد أن نذكر هنا منها أمرين. فقد كان حضرته أحد الرواة لما هو معروف بالأربعين حديث للرسول ﷺ التي نُقلت شفهيا عبر القرون من خلال سلسلة متصلة من الرواة. وهو بدوره قام بنقلها مع أسماء كل سلسلة الرواة إلى كثيرين، كان منهم الحافظ روشن علي ومير محمد إسحاق.

كذلك كانت له فرصة أن يقوم بالطواف حول الكعبة المشرفة وحده في وقت لم يكن أحد غيره يطوف بالبيت العتيق.

وفي مناسبة جمعت ثلاثة من الشباب المبايعين كان من بينهم اثنان من التلاميذ الذين يدرسون علوم الطب، قام حضرة خليفة المسيح بتوجيه النصح إليهم فقال:

> إن الشخص الذي يقوم بالبيعة يُصبح عبدا، بإرادته وباختياره الحر. ويقول أولئك الذين في العالم الغربي إن الإنسان وُلد حرا والعبودية شر مستطير، ولكن دعوني أحكي لكم هذه الواقعة. كان أحد شيوخي الروحيين هو العالم الجليل عبد الغني مجددي الذي كان يقيم في المدينة المنوّرة. وقد دخل في بيعته أناس من بلاد بعيدة مثل سوريا ومصر والمغرب وروسيا وغيرها. وكنت معتادا على زيارته بكثرة، ولكني كنت أتصور أن الحق والباطل قد تم بيانهما بالتفصيل في الكتب، ولما كنت قد استكملت دراستي لم أر ضرورة أن أقوم بمبايعة أحد؛ وكنت أتعجب من هؤلاء الذين يقومون بالبيعة بأعداد كبيرة. وفي

إحدى المرات فكرت أن أقوم بمبايعته، على سبيل التجربة، فإن لم أحقق أي فائدة من هذه البيعة نبذتها. وقمت بزيارته بهذه النية، ولكن ضميري أنبني على نيتي بأن أقوم بنبذ عهد تعهدت به، فعدت أدراجي بغير أن أتخذ هذه الخطوة. وفيما بعد عزمت على أن أقوم بالبيعة، ولما زرته استفسرت منه عن الفائدة التي يمكن أن أحققها إذا قمت بمبايعته. فأجابني قائلا إنه من خلال البيعة يصير المسموع مُجرّبا كحقيقة، وتتحوّل الأمور النظرية إلى ممارسات عملية. لقد تعلمت الكثير منه وحزت الكثير من التقدم الروحي تحت توجيهه وإرشاده.

وفي العشر الأواخر من رمضان (أكتوبر/تشرين الأول ١٩٠٨) اعتكف حضرة خليفة المسيح في المسجد مع مجموعة كبيرة من المؤمنين، وكان من بينهم صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد. وباستثناء الوقت الذي كانت تُؤدى فيه الصلوات الخمس، كان حضرة خليفة المسيح يقوم من الفجر إلى الليل بإعطاء دروس القرآن لزملائه. وقد شرح لهم النقاط الصعبة، ولفت انتباههم إلى الأمور الدقيقة، وأجاب على أسئلتهم. وكان بهذا يتناول كل يوم جُزءًا من القرآن المجيد، إلى أن استكمل شرح الكتاب الكريم كله مع نهاية شهر رمضان. وعندما نأخذ في الاعتبار حالته الصحية، وعمره، والضعف الجسدي الذي يسببه الصيام، فإن ما بذله من الجهد الجسدي وحده كان أمرا يدل على القدرة الخارقة التي وهبه الله إياها، كما كان دليلا واضحا على مدى حبه العظيم لذلك الكتاب العظيم، الحب الذي ملك كل مشاعره وتحوّل إلى إخلاص وولاء لكلمة الله عز وجل.

في خريف عام ١٩٠٨ أصيبت مدينة حيدرأباد في جنوب الهند بفيضان مدمّر، وبشدة غير معهودة فاقت جميع المقاييس، وسببت أضرارا ومعاناة بالغة للناس، حتى إن أحياءً بأكملها من المدينة قد دُمّرت، ودُفن الألوف من الناس تحت الحطام مما أدى إلى هلاكهم. وقد أرسل حضرة خليفة المسيح العديد من الرسائل بالبريد المسجل والبرقيات العاجلة كي يستفسر عن أفراد الجماعة في المدينة المنكوبة، ولكن بسبب الظروف الناجمة عن الفيضان لم تصل أي منها إلى المرسل إليه، وبالتالي لم يتلق حضرته ردا على أي منها. وحينئذ أرسل الحافظ أبا سعيد عرب مبعوثا منه ليبلغه عن تطورات الموقف. وقد تسلم حضرته خطابا من أعضاء الجماعة في حيدرأباد يشكرونه فيه على اهتمامه بأمرهم وقلقه عليهم ومشاعره التي أبداها تجاه معاناتهم التي كابدوها، مما كشف عن مدى حبه العميق لهم وحرصه على أمنهم وراحتهم. وفيما يلي ترجمة لنص الخطاب:

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

إلى المكرّم حضرة خليفة المسيح والمهدي، أمير المؤمنين، حضرة الأعلى نور الدين، أدامه الله لنا بفضله وإحسانه.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إن أعضاء الجماعة الأحمدية في حيدرأباد لا يجدون الكلمات التي يعبرون بها عن مدى امتنانهم لحضرة خليفة المسيح، لكرمه البالغ وعطفه الشديد الذي أبداه بإرسال العديد من الخطابات بالبريد المسجل والبرقيات كي يستفسر عن أحوالهم في الوقت الذي أصيب فيه السكان

في ولاية "دكن" ببلاء شديد يماثل ذلك الذي جاء وصفه في القرآن المجيد حيث يقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۞ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ (عبس:٣٥-٣٧). وللأسف فإن هذه الرسائل الكريمة لم تصل إلينا في ظروف الفوضى والارتباك التي حلت بنا، وبالتالي فلم نستطع الرد عليها. غير أن المواساة النابعة من القلب، وروح العطف والمودة لأمير المؤمنين لم تكتف بأقل من إرسال واحد من أصحابه الأوفياء، وهو الحافظ أبو سعيد عرب، في هذه الرحلة الشاقة الطويلة وعلى حسابه الخاص، ليطمئن علينا نحن الذين حل علينا البلاء في هذه البقعة النائية. ورغم تعبه الشديد، فإن السيد "عرب" منذ وصوله إلى هنا، قام بتنفيذ مأموريته وتأدية واجباته على أحسن وجه، بالاطمئنان على كل أخ أحمدي وطمأنته، مما يدل على أنه إنسان يتحلى بأعلى الصفات الخلقية الكريمة التي يمكن أن يتحلى بها الأحمدي.

وقد أبلغ السيد "عرب" أيضا رسالة كريمة من حضرة خليفة المسيح أنه إذا كان أفراد عائلة أي أحمدي قد تضررت وفقدت مأواها نتيجة لهذه الكارثة غير المتوقعة، فإن لهم إن أرادوا أن يأتوا على الفور إلى قاديان حيث يتم التكفل بهم بما يناسبهم، مع دفع نفقات سفرهم. إننا لم نتوقع، ولن نتوقع، شيئا أقل من ذلك من هذه الشخصية الكريمة لحضرة خليفة المسيح، ولكن حضرته هو والأكارم من كبار رجال الجماعة سوف يكونون بكل اليقين سعداء عندما يعلمون أنه رغم أن معظم بيوت أعضاء الجماعة كانت في وسط مناطق الخطر، وقد تأثرت بشدة بالغة وأصابها الدمار، ورغم أن ألوفا من الجثث الميتة قد استخرجت،

فإنه لم يحدث أن أحمديا واحدا، ولا حتى واحدا من أقربائه، قد فقد حياته في هذه الكارثة المروعة. فالحمد لله على رحمته تعالى.

وفي النهاية، فإن جميع أفراد الجماعة الأحمدية في حيدرأباد، يتقدمون بكل احترام لحضرة خليفة المسيح بطلب أن يتفضل بالدعاء إلى الله الكريم أن يقوي إيمان أولئك المصابين في بعدهم عنكم، وأن يرزقهم الثبات في أوقات المحن، وأن يقوّم سلوكهم. عسى أن يمكننا الله تعالى من إحداث التغيير الصالح في أنفسنا، وأن نكون مُثلا طيبة للآخرين. وعندما ننتقل من دار الفناء هذه، فعسى أن نكون من بين المؤمنين الصادقين، الطائعين، الخادمين من أبناء الجماعة الإسلامية الأحمدية.

* * *

في ٣٠ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٠٨، كتب الشيخ يعقوب علي عرفاني في جريدة الحكم، وكان رئيس تحريرها، فقال عن حضرة خليفة المسيح:

> في كلمتين اثنتين نقول إن حضرة خليفة المسيح يقضي وقته في وضع أوامر الله تعالى موضع التنفيذ ومعاملة مخلوقاته بالعطف والرحمة.
>
> في حياة المسيح الموعود عليه السلام كان المولوي نور الدين يؤم الصلوات في مسجد مبارك. وعندما انتقل المولوي عبد الكريم إلى قاديان ليقيم فيها بصورة دائمة، طُلب منه أن يؤم الصلاة في ذلك المسجد، ولكن بعد وفاته اضطر المولوي نور الدين أن يعود لإمامة الصلاة رغم أنه كان مترددا في ذلك. ومنذ أن

تقلد منصب الخلافة، استمر يؤم الصلاة رغم ضعفه الجسماني وسوء صحته.

وبعد صلاة الفجر كان يتولى إعطاء درس القرآن لعدة نساء، ولمدة ساعة بعد ذلك يذهب إلى عيادته الطبية لرؤية المرضى الذين يحضرون إلى قاديان من الخارج. ثم يعطي بعد ذلك دروسا لصاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد ومير محمد إسحاق. وبالإضافة إلى ذلك هناك دروس في القرآن الكريم والحديث الشريف ومبادئ الفقه والشريعة التي يمكن لأي واحد أن يحضرها.

وكان دائما يتمتم بالدعاء، وقد رأيت بعيني أنه عندما يتسلم بريده، كان يمسك كل خطاب في يده ويتوجه بالدعاء إلى الله للكاتب. وكانت كمية البريد التي يتلقاها كبيرة حتى إنه بعد أداء كل صلاة ودرس القرآن، كان يمسك بمجموعة من الخطابات في يده، وبعد قراءة كل منها يقوم بالدعاء لصاحبها حسب مطالبه التي أبداها في خطابه. وقبل أن يتولى منصب الخلافة كانت علاقته بأفراد الجماعة علاقة الأخ، وكان يدعو لهم بهذه الصفة. والآن أصبح والدهم الروحي، ويستطيع كل واحد أن يُقدّر مشاعر الأب تجاه أبنائه ومقدار شفقته عليهم واهتمامه بأمورهم. وفي جماعة يبلغ عددها أربعمئة ألف شخص، هناك الكثيرون من المرضى، والعديد من المحتاجين، ويموت أيضا منهم الكثير. ومن ذا الذي يستطيع أن يتصور كيف يتفاعل قلبه العطوف وإحساسه الشفوق مع كل هذا؟

ومنذ أن اختاره الله تبارك وتعالى لمقام الخلافة، فإنه سبحانه أعطاه طاقة وقدرة عجيبة. فهو يوالي باستمرار أحوال كل شخص يقيم في قاديان، ويتعامل كوالد محب مع آلام ومعاناة كل واحد من أفراد الجماعة. وأنا شخصيا مدين له بالفضل في العديد من المرات التي غمرني فيها بعطفه. فعندما أصابني المرض تعطف بزيارتي عدة مرات وكان يحرص على راحتي. وحدث أن مرضت زوجتي أثناء وجوده في الاعتكاف، فعين شخصين أو ثلاثة لتولي علاجها وإخباره دائما بحالتها. وأنا على يقين أن كل واحد يشعر بأن له مكانة خاصة في قلبه، تماما كما كان الحال مع إمامنا الراحل عليه السلام.

ورغم انشغاله الدائم بأحوال الجماعة وحماية الإسلام، فإنه بشكل أو بآخر يجد الوقت اللازم لفحص كل مريض يأتي إليه وكتابة الدواء اللازم له؛ ولكتابة الردود على الخطابات الهامة التي تصله؛ وإعطاء التوجيهات اللازمة لصدر أنجمن أحمدية في الأمور الخاصة بها؛ ولمقابلة الزوار القادمين من الخارج؛ ولسماع مشاكلهم وطلباتهم وإبداء النصح والمشورة لهم؛ والبحث والتداول في خطط ومشاريع نشر الإسلام والجماعة، ولفت أنظار الجماعة إلى أهميتها. إن مواعيد أداء الصلاة هي وحدها المحددة، وأما بقية الأمور فكلها تتحدد على أساسها.

إن عمق وشمولية عطفه يمكن قياسها من واقعة معينة. فقد حدث فيضان مهول سبب دمارا واسعا في حيدرأباد النائية.

وقد تأثر حضرة خليفة المسيح تأثرا شديدا بهذه المأساة، حتى إنه لما لم تأت الرسائل والبرقيات بأي أخبار من هناك، أرسل مبعوثا خاصا إلى تلك المنطقة النائية يحمل عروضا بالمساعدة ورسائل الرحمة والطمأنينة لأفراد الجماعة. ومن كل هذا أدرك أفراد الجماعة في كل مكان أنه بعد وفاة مؤسس الجماعة عليه السلام، أقام الله تعالى أفضل الرجال ليكون إماما لهم. فعسى أن يطيل لنا الله تعالى في عمره لننعم بفضله عز وجل الذي يفيض علينا في شخص نور الدين.

إن دعواته معنا دائما، وقد أنهى خطبة العيد بقوله: عسى أن تستمر الجماعة في التقدم والازدهار. عسى أن يمنحهم الله تعالى الثبات ويجمع بين قلوبهم بالألفة والمحبة. عسى أن يؤيدهم الله بروح القدس، ويقيهم شر كوارث السماء والأرض ويحفظهم من كل بلاء روحي. عسى أن يمنحهم الله تعالى الفوز والنصر بفضله. عسى أن يقيم الله تعالى من بينهم المتحدثين المخلصين والدعاة والمبلغين الذين تزينهم الحكمة والمعرفة. عسى أن يهب سبحانه قادتهم علوم الإسلام فيتمثلونه في سلوكهم وفي قناعتهم من أعماق قلوبهم. وعسى من كان منهم في موقع سلطة أن يتحلى بالإخلاص وبعد النظر.

وبعد صلاة الجمعة، فإن كل وقته خلال بقية اليوم يقضيه في الدعاء للجماعة بالشكل الذي قدمنا له مثالا. ويعلم الله تعالى وحده كيف يدعو ربه لخير الجماعة، وبأي قلب خافق يتوسل إليه سبحانه من أجلهم، وبأي الكلمات الحانية والدموع

الباكية يستنْزل عطف الله عز وجل وفضله عليهم، ذلك الراعي الصالح الساهر على رعيته، وهو يبتهل إلى الله من أجلهم في ساعة العسر واليسر، وسويعات الظلمة والوحدة في الليل، بينما يتمتع الآخرون بالنوم المريح. عسى أن يتقبل الله تعالى بفضله جميع أدعيته، وينفعنا جميعا بها. آمين.

* * *

في ٢٦ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٠٨، تكلم حضرة خليفة المسيح في المؤتمر السنوي للجماعة لما يقرب من ثلاث ساعات. وقد شرح كيف أن تعليمه بدأ ب "لا إله إلا الله"، وكيف تقدم في تعليمه. وقد لفت أنظار مستمعيه بشكل خاص إلى أهمية وبركات الدعاء، وضرورة التمسك بالعزيمة القوية، والقرآن المجيد، والتعاون على البر والتقوى. ثم تكلم بالتفصيل عن الإيمان ودرجاته المتعددة، وأسس كلامه على الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ (التوبة:١١١). ومن دواعي العجب أن جريدة "كروزن جازيت" التي تصدر في دلهي عند تعليقها على وفاة المسيح الموعود عليه السلام كتبت قائلة إن الأحمديين قد فقدوا رأسهم، ولم يعد لهم سوى إمام لا يستطيع أن يفعل شيئا سوى أن يتلو عليهم القرآن في المسجد. وقد علق حضرته على ما ذكرته الجريدة بقوله: عسى أن يمكنني الله تعالى من الاستمرار في تلاوة القرآن المجيد لكم.

وتحدث في المؤتمر مرة أخرى بعد ظهر يوم ٢٨ ديسمبر (كانون الأول)، واختار حب الله تعالى ليكون موضوع حديثه. وقد بدأ بتعريف

الحب، ثم استطرد فراح يشرح درجاته المختلفة. وبعد ذلك أكد على أن هدف الحب الحقيقي هو ذلك الكائن الذي قد فاق جماله وكماله وفضله كل موجود آخر، فجماله كامل وفضله بلا نهاية.

ونشر المولوي محمد علي بتوجيه من حضرة خليفة المسيح إعلانا في ٢١ يناير (كانون الثاني) يدعو للتبرع لجمع أموال لمساعدة اليتامى والفقراء والتلاميذ المحتاجين للمساعدة. وكان القدر الذي تبرع به حضرة خليفة المسيح من ماله الخاص يبلغ خمسة في المئة من مجموع التبرعات.

وقد تحدث في مجموعة من تلاميذ المدارس في ٢٣ يناير ١٩٠٩، وبين لهم أهمية تجنب العادات السيئة وتنمية التعود على أداء الصلوات. وكان مما قاله لهم:

> تعلمون أن بذور المانجو التي وضعت في الأرض وبدأت تنبت في الفصل المطير، ينتزعها بعض الأطفال من الأرض ويتخذون منها صفافير. ولكن بعد خمس أو ست سنوات، عندما تمد بذور المانجو جذورها في الأرض وتثبت، يكون من الصعب على الرجال الأقوياء أن ينتزعوها من الأرض. وهكذا العادات والعقائد مثل النباتات والأشجار. إنكم تستطيعون أن تنتزعوا عاداتكم السيئة بسهولة الآن، ولكن إذا تمكنت جذور هذه العادات منكم فقد يكون من المستحيل عليكم أن تنتزعوها من نفوسكم. وربما يقع بعض الأطفال في عادة قول الكذب، وإن لم ينتزعوا هذه العادة في وقت مبكر فقد يجدون أنه من الصعب عليهم أن يفعلوا ذلك فيما بعد. وقد لاحظت أن

بعض الأشخاص الذين تعوّدوا على هذه العادة في طفولتهم، لم يستطيعوا أن يتخلصوا منها حتى في كبرهم، رغم أنهم الآن قد أصبحوا علماء ودعاة.

الأمر الثاني الذي أريد أن أنصحكم به هو الالتزام بالانتظام في أداء الصلاة. وإن لم تكونوا حريصين على هذا الآن، فقد تجدون أنكم تهملونها عندما تكبرون.

وبالتقريب في ذلك الوقت، وصل إلى علم حضرة خليفة المسيح أن أحد الأشخاص قد زعم أن الأموال التي تم جمعها من الجماعة تُستخدم في غير الأغراض التي أُعلن جمعها من أجلها، وإنما تم تحويلها لتحقيق بعض الأهداف الأنانية. وأجاب حضرة خليفة المسيح بالتفصيل على الاعتراضات المعينة التي أثارها المعترض، ثم استطرد يقول في نصحه:

إن مجرد تصيد الأخطاء لم يفد أحدا بأي شيء. هناك المسيحيون الذين يصمون جميع الأنبياء من آدم إلى الرسول الأكرم، عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام. وقد حاول اليهود أولا أن يفندوا هذه الدعاوى، كما حاول المسلمون أيضا في القرون الثلاثة عشر السابقة، ولكن هل غير هذا من شيء في موقف المسيحيين؟ وأيضا ظل الشيعة يطعنون في صحابة الرسول ﷺ والتابعين ورجال الدين العظام. وقد روى البخاري أن النقد قد وُجّه إلى حضرة عثمان بن عفان في وجود ابن عمر، وكذلك سقط الآرية في وهدة تصيد الأخطاء، فهل استطاع أحد من المسلمين أن يمنعهم من ذلك؟

فلا تقتفي آثار المسيحيين والشيعة والآرية. إن هذا السبيل خطر جدا وصعب وضار. إننا ندعو إلى الإسلام بالقدرة التي أنعم الله بها علينا كما دعا إليه الرسول ﷺ.

* * *

بدأت المدرسة العليا لتعليم الإسلام عملها بقاديان في يناير (كانون الثاني) ١٨٩٨ وكانت تحرز تقدما طيبا. كان كل من المدرسة وبيت الطلبة موجودا في القرية، وكان يضمهما بناء متواضع من الطوب النيّ. ومنذ الأيام الأولى من الخلافة كان هناك شعور يتزايد بضرورة إقامة بناء واسع للمدرسة وبيت للطلبة بالإضافة إلى مسجد، خارج القرية. وتم شراء قطعة من الأرض تبلغ خمسين فدانا وتحددت الأولويات للمسجد، ثم بيت الطلبة، ثم المدرسة. وقد بُني المسجد وسمّي مسجد نور، وكان ذلك بأموال تم جمعها عن طريق الجهود الكريمة التي قام بها مير ناصر نواب. وفي السنة الأولى للخلافة أمكن جمع عشرة آلاف روبية لبيت الطلبة، وأقيم فرن لحرق الطوب. وكان بيت الطلبة في حاجة إلى ثلاثين ألف روبية أخرى. وفي شهر مايو (أيار) ١٩٠٩، وبتوجيه من حضرة خليفة المسيح، أعلن المولوي محمد علي لأفراد الجماعة عن دعوة للتبرع وجمع هذا المبلغ، وتكونت لجنة من صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد، والدكتور سيد محمد حسين، والدكتور مرزا يعقوب بك، والخواجه كمال الدين، والمفتي محمد صادق، والشيخ يعقوب علي عرفاني، والمولوي محمد علي لجمع المبلغ. وقد اشترك حضرة خليفة المسيح بمبلغ ستمئة روبية. وبمرور الوقت أمكن بناء المدرسة أيضا، ودفعت الحكومة معونة قدرها عشرين ألف روبية. وبعد فترة أخرى

أمكن إضافة مستشفى بفضل الجهود المستمرة التي بذلها مير ناصر نواب، وسميت "مستشفى نور". وكان من ضمن المشروعات الخيرية التي قام بها أيضا بناء بعض المساكن للفقراء. وفي كل هذا كان حضرة خليفة المسيح يعتبره مثالا للآخرين وكان يؤيده بالأدعية والتبرعات المالية.

* * *

كانت أدعية حضرة خليفة المسيح تلقى قبولا بشكل عجيب، وذلك بفضل الله تعالى ورحمته. وحدث أن القاضي "محمد ظهور الدين أكمل" مساعد رئيس تحرير جريدة "بدر" نشر قصيدة شعرية ذات توجّه صوفي، وتدور حول جملة "لم أكن أعلم". وبعد ظهر أحد الأيام كان حضرة خليفة المسيح يستريح في بيته، فسمع زوجه تترنم بالقصيدة في نبرة حركت مشاعره وأثرت فيه تأثيرا بالغا، فجلس على حين فجأة وانطلق قائلا: سبحان الله! لقد كنت دائما أعلم. واستفسر عن ناظم ذلك الشعر، فلما عرف الشاعر، وعرف أيضا أنه قد فقد اثنين من أولاده في مقتبل العمر وفي فترة متقاربة، أرسل إليه على الفور رسالة قال فيها: لقد دعوت لك بحرارة، وسوف يعوضك الله تعالى بفضله عن فقدك لولديك. إنك يا رب لم ترد دعائي أبدا. وقد بارك الله الوالدين الحزينين بولد في ١٩١٠، فسماه حضرة خليفة المسيح "عبد الرحمن"، ثم أنعم عليهما بولد آخر في ١٩١٣، فسماه "عبد الرحيم". وقد عاش كل منهما وتخرج في الجامعة، وكان لهما مستقبل باهر.

كان في "لكناو" شاب يتصف بالصراحة الزائدة عن الحد، وحرية التفكير، ولا يلقي بالا لتصريحاته، ولكنه في نفس الوقت كان في غاية

الإخلاص ويفيض بالعطف والشفقة الإنسانية، وكان طالبا في كلية الطب بلاهور. وكان أحمديا في غاية الحماس ومن أشد المعجبين بحضرة خليفة المسيح الذي كان كثيرا ما يزوره. وكان دائما في خلاف مع الأساتذة والمدرسين وكثيرا ما كان يتصوّر أنه ضحية لتحيزهم ضده. وقد فشل مرتين في الحصول على الدرجات المطلوبة للنجاح في الامتحان النهائي. وفي حالة من الغيظ الشديد قال هامسا بصوت مسموع لصديق له بينما كان في صحبة حضرة خليفة المسيح، وربما بنية إثارة انتباهه: إما أن الله غير موجود أو أنه لا يسيطر على أولئك الذين يتولون امتحاني! فنظر إليه حضرة خليفة المسيح وقال: أحقا هذا؟ ثم انصرف يستكمل ما كان يقوم به من عمل. وفي ذلك العام اجتاز ذلك الطالب المحبط امتحاناته بنجاح. فلما أخبر حضرة خليفة المسيح بنجاحه، والخجل يعتريه، ابتسم حضرته وسأله قائلا: هل شاهدت الآن كيف تجلت قوة ربي القدير؟

* * *

في إحدى المناسبات قال حضرة خليفة المسيح:

إن النجاة تتحقق من خلال فضل الله تعالى، وفضله سبحانه يُجتذب بواسطة العمل الصالح. وعلى هذا فإن الإيمان وحده لا يكفي، إذ لا بد أن يصحبه العمل الصالح. إن المسيحيين لا يُقدّرون هذا الأمر حق تقديره. وحينئذ سأل سائل: ما هو العمل الصالح الذي ينبغي عمله لنوال الخلافة؟ فأجاب قائلا: الخلافة نوع من النيابة عن النبوة، وكلاهما هبة من لدن الله تعالى. غير أني أتصوّر أن هذا الفضل يمكن أن ينجذب عن

طريق خدمة الإنسانية، وقد وفقني الله تعالى بهذا الشعور منذ صباي المبكر، فقد كنت حريصا دائما على خدمة الآخرين فكريا وعمليا، بغير أي تمييز بسبب الدين أو العرق أو البلد أو الوطن.

وفي يوليو (تموز) عام ١٩٠٩ كتب الشيخ يعقوب علي عرفاني فقال:

عندما يأتي زائر إلى قاديان من الخارج للمرة الأولى، فإنه بطبيعة الحال يبحث عن حضرة خليفة المسيح. وعندما يأخذونه إليه، تأخذه الدهشة عندما يرى مجموعة من الرجال يجلسون على الحصير بدون أي تكلف وبغير أي تمييز بينهم. ويرى بينهم رجلا مُسنّا، كريم الوجه، مهيب الطلعة، تضيء قسمات وجهه، ولكن ليس في ملابسه ولا في حركاته ما يدل على أن ذلك الشخص الذي يشع بنور الإيمان هو الذي يشغل مقام الخلافة. فهو يفحص المرضى والمتعبين ببساطة وتواضع، وهم في ملابسهم البسيطة التي تنبعث منها رائحة العرق، فيشخّص أمراضهم، ويحدد لهم الدواء اللازم لهم. ثم هناك أيضا أولئك الذين يسألون الكثير من الأسئلة عن المواضيع الدينية ويسمعون الإجابات المختلفة من شفتيه. وبعد برهة يدرك الزائر أن هذا هو الشخص الذي تبحث عيناه عنه، وتأخذه الدهشة مرة أخرى لمشهد الخلافة وهي تمارس بطريقة عملية.

إن خليفتنا الذي هو قائدنا هو البساطة المجسمة، ولا يتمسك بأي شكليات أو رسميات. وهو يتحدث إلى كل واحد بأسلوب يجعل كل من يتحدث معه يتصوّر أنه وحده هو الذي يختصه بحبه وعطفه، مع أن الحقيقة غير ذلك، فإنه يحمل نفس العطف والمحبة لكل واحد. وسواء كان بالداخل أو كان في الخارج، فإنه دائما أبدا على بساطته وسجيته؛ فإن طعامه بسيط، وملبسه أيضا بسيط ومتواضع. أما ما يميزه عن غيره من أصحابه الرجال، فهي تلك الطلعة الكريمة المهيبة وذلك الوجه الذي يشع منه نور الإيمان. لقد كان يقضي كل وقته في خدمة إخوانه في الإنسانية، ويبذل كل جهده في خدمة الدين.

* * *

كان حضرة خليفة المسيح قد خصص بيته في "بهيرة" ليكون مسجدا يستخدمه أفراد الجماعة الإسلامية الأحمدية، غير أن بعض الجيران استنكروا هذا العمل الطيب الجليل واعتبروه عملا يثير الفساد. وعلى هذا فقد أرسل الخطاب التالي إلى زعيمهم الديني:

حضرة المولوي المحترم.

إن هذا العبد المتواضع كان دائما يمقت الفساد من أعماق قلبه، وعلى هذا فإن الفساد لم يعرف طريقه أبدا إليه. وإني أؤكد لك بناء على معرفتي الشخصية المؤكدة أن الفساد كان مقيتا عند والدي وجدي. إن الله تعالى الكريم يعلم الحق؛ فمن ذا الذي يعلم الحق سواه؟ إنك لم تكن في صحبتي ولا في

صحبة إخوتي، فهم أيضا كانوا بعيدين عن الفساد. والحمد لله تعالى أنه حسب علمي، فإن الفساد كان أمرا مكروها لدى أمي وجدتي وأخواتها.

إنني أؤمن حق الإيمان بـــ "لا إله إلا الله، محمد رسول الله". إنني أقيم الصلاة وأصوم رمضان وأخرج الزكاة، وقد أديت فريضة الحج مرتين، وقمت بتعليم القرآن الكريم لألوف من الناس وأمرتهم بتنفيذ تعاليمه. والحمد لله رب العالمين أن عدد أتباعي يبلغون مئات الألوف؛ ومن بينهم قرشيون ومغول وبتهان ومشايخ، ولا أوجه أحدا منهم إلى الفساد. كما أن أعضاء جماعتنا يتجنبون الفساد، وقد يتعرضون للجهد والبلاء ولكنهم يبتعدون دائما عن الفساد. وبطبيعة الحال فليس جميعهم على نفس الشكل، ولكن عند مقارنتهم بالآخرين، هم أكثر حرصا على تنفيذ تعاليم الله الخاصة بالصلاة والصوم والزكاة.

وعندما بدأ أهل "بهيرة" في التحرش بي في المسجد، رحت أؤدي الصلاة في بيتي من أجل أن أتحاشى إثارة الفساد في المسجد. وكنت أضع في اعتباري دائما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ (البقرة:١١٥). ولم يذهب أعضاء جماعتنا إلى المسجد لأي غرض سيئ؛ ومع ذلك كانوا كثيرا ما يتعرضون للضرب ويُتّهمون اتهامات كاذبة بالسرقة. وظللنا نحثهم على

التمسك بالصبر والثبات، ولكن لما أصبح الاضطهاد غير محتمل، قررنا أن نتخذ مسجدا خاصا بنا، وأعلنّا أنه لن يُمنع أحد من الصلاة فيه. فهل تسمي هذا فسادا؟ إنّا لله وإنّا إليه راجعون!

إننا نقدر بناتكم مثل بناتنا. ونحن أنفسنا حريصون على صيانة متطلبات حفظ حقوق النساء الخاصة؛ فلا ينبغي لك أن تقلق من هذا الأمر. إن هذا المسجد لم يكن ليُسبب أي إساءة إلى أحد ولا يعمل على نشر الفساد، ولكنه كان هو الحل الأخير من أجل حماية أنفسنا من الإساءة، ومن أجل نشر التقوى. لقد اشتريتم، بغير أن تخبرونا، بيتا كنا نملك جزءا منه. أليس هذا تدبير محتمل للفساد وليس تدبيرا من أجل الأمن والوفاق؟ تفكر في: "لا إله إلا الله محمد رسول الله". إننا لم ندبر الأمر قاصدين أن يكون المدخل إلى المسجد يتعارض مع أموركم الخاصة.

أرجو أن تخبرونا.. ماذا عسانا أن نفعل؟ إنكم قد أدنتمونا ومنعتمونا من دخول المساجد. والآن عندما قمنا بتحويل بيتنا الخاص إلى مسجد، رحتم تدينون هذا التصرف وتتهموننا بأننا نريد نشر الفساد. فهل هذا هو الإسلام؟ تفكر في الأمر واستشر أحد المسؤولين المسلمين ثم أخبرني بالنتيجة. أما من ناحية الأخوّة، فإني أترك لك الحكم بالعدل على هذا الأمر. وكل ما أريد قوله هو أنك معروف بأنك قرشي، ونحن معروفون بما نحن عليه.

حضرة المولوي المحترم! هل يمكن لأحد أن يلقي هباء بيتا كبيرا يتكون من ثلاثة طوابق ويعتبر من إرث الأجداد؟ ولكن بعد أن تبين لنا أنه ليس من سبيل آخر لحماية أنفسنا من الفساد والإيذاء والنّزاع، لجأنا إلى هذه الوسيلة من أجل المحافظة على الأمن والسلام. فهل تريد أن تمزق جماعتنا وأن تمنعنا حتى من ذكر اسم الله تعالى في هذا الجزء من المدينة؟ ومع ذلك فإنك تعتبر أننا ننشر الفساد! ألا تخشى الله تعالى؟ إننا ندعوه وحده سبحانه وهو وكيلنا، ﴿فَاللهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (يوسف:٦٥). ماذا يمكن لي أن أقول بعد هذا؟ إنك أكبر مني سنّا، وإخوتك كانوا أصغر منك في العمر، ومع ذلك فقد ماتوا جميعا، وسوف أموت أنا أيضا عندما يحين وقتي، ولن يذهب أي من هذه البيوت والمباني معنا.

* * *

في أوائل أغسطس (آب) ١٩٠٩، طلب الشيخ يعقوب علي عرفاني من حضرة خليفة المسيح أن يعطيه رسالة لجماعة محلية كان ينوي زيارتها، فكتب حضرته قائلا:

إنني أرغب أن يكون من بين أفراد الجماعة من يعطي الأولوية للدين على الدنيا؛ من لا يعطي للدنيا أي قيمة عندما يكون هناك تعارض بين الدين والدنيا. إنني أريد رجالا ذوي عزم قوي وتصميم شديد ليكونوا دعاة يتولون التبليغ النابع من الإخلاص ومعرفة الحق. إنني أريد دعاة يتحلون ببعد النظر،

ويضعون كل ثقتهم في الله تعالى، ويؤمنون بقوة الدعاء ولا يأخذهم الغرور بسبب معارفهم وعلومهم الواسعة؛ والذين يكون شغلهم الشاغل في كل وقت أن يكتشفوا السبل التي تمكنهم من الفوز برضى الله تعالى. ولكن هناك القليل من هؤلاء، فأشكو همي إلى الله.

وفي ١٩ يناير (كانون الثاني) ١٩١٠ كتب إلى الطلبة الأحمديين في كلية .M.A.O في عليكره، فقال:

أعزائي، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. حيث أنتم يوجد امتحان لنوال الدرجة المتوسطة والدرجة العليا، كما يوجد لديكم الجو الجامعي لجامعة كمبردج وأكسفورد، بينما نحن قد كرسنا أنفسنا لجو "واد غير ذي زرع" (حيث ترك إبراهيم هاجر وإسماعيل). فلتكن لديكم النية للنجاح في كل من الامتحانين، وأن تكونوا من بين أولئك الذين قد ﴿فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب:٧٢).

كان المؤتمر السنوي لعام ١٩٠٩ قد تأجل إلى ربيع عام ١٩١٠ وعقد في المدة من ٢٥ إلى ٢٧ مارس (آذار) ١٩١٠. وكان اجتماعا ناجحا، وبايعت فيه أعداد كبيرة من الناس، ولكن حضرة خليفة المسيح لم يكن راضيا تمام الرضى، وعبر عن عدم ارتياحه في خطبة الجمعة التالية، حيث قال خلالها:

لقد جئت إلى هنا بصعوبة كبيرة، ولا أشعر بتاتا أنني على ما يرام، بل أعاني من صداع شديد. وخلال هذه المرحلة من اعتلال صحتي، قمت بدراسة مستفيضة لأحوالكم وأحوالي.

وفي بعض الأحيان كنت أخشى أن أفقد نظري؛ وتفكرت أيضا في عين الله تعالى التي لا تغفل أبدا عن شيء. وباختصار، فإن أفكارى شملت أمورا كثيرة. وقد خطر لي أن أتلفظ بالشهادة وأقعد صامتا، ولكن هناك ضرورة تدفعني إلى الكلام. ولكم أن تتصوّروا أن هذا اليوم هو اليوم الأخير في حياتي، وأن ما سوف أذكره لكم هو كلمتي الأخيرة.

لقد اجتمعتم هنا، وهناك اجتماعات أخرى أيضا في جروكول، ولأنجمن حماية الإسلام في لاهور، ومؤتمرات تعليمية في عليكرة، وقُدمت التقارير في كل منها. وهنا أيضا أخبرنا المسؤولون من بيننا عن كل ما يتعلق بدخل الجماعة ومصروفاتها. ولكني كنت أتساءل وأفكر، ما الذي دعا إلى أن نجتمع هنا جميعا؟ فقد كان من الممكن توريد النقود عن طريق مكتب البريد، كما كان من الممكن طبع التقرير وإرساله بالبريد. لقد بلغ عدد الحضور ثلاثة آلاف، وحتى لو أن القادة من بين هؤلاء قد حرصوا على أن يقابلوني لكنت دعوت الله تعالى من أجلهم وقدمت لهم النصح والإرشاد. غير أن أولئك الذين جاءوا لمقابلتي جاءوا عندما كانوا يستعدون للرحيل، وجاءوا فقط من أجل أن يقولوا كلمة الوداع فقط. وأرجو أن تعلموا وتضعوا في اعتباركم أنني أبغض بشدة هذه الاجتماعات التي لا تجعل من أهدافها الرئيسة العمل على نشر القيم الروحية. وكما قلت، إن النقود يمكن توريدها عن طريق

إذن بريدي مقبول الدفع، وبالتالي كان من الممكن توفير كل نفقات السفر، وتوفير نفقات الضيافة هنا. إن أصحاب المتاجر هنا أيضا ليس لهم أي اهتمام سوى مكاسبهم المادية، فهم يودّون أن ينعقد المؤتمر في البلدة لكي تزداد مبيعاتهم. وليعلم كل هؤلاء الذين يسمعونني، وعليهم أيضا أن يبلغوا الآخرين، بأنني أمقت بشدة كل الاجتماعات التي تُعقد من أجل أغراض مادية، وجميع الأموال التي تُجمع لأهداف دنيوية. إنني مريض وينتابني القلق عليكم. وكم كان من الأفضل لو أن السكرتاريين وأعضاء اللجان الإدارية في فروع الجماعة المختلفة قد قضوا معي بعض الوقت، لكنت وجهت لهم النصح والإرشاد في كثير من الأمور الطيبة. وأنا مستاء أيضا من أعضاء صدر أنجمن لأنهم لم يلفتوا أنظار القادمين من الخارج إلى أهمية ذلك. إنني لا أهتم بمقدار ما تم جمعه من المال، فإن هدفنا الرئيس هو الله تعالى. ولست أعرف كم من المال تم جمعه، ولا يهمني ذلك على الإطلاق. إنني أحثكم مرة أخرى على أن تضعوا الله قبل كل شيء آخر. إن كل جهودنا ينبغي أن تكون موَجّهة نحو هذه الغاية. وإن أهملنا هذا، فما هي فائدة المدرسة العليا، وما هي فائدة المباني التي تضمها؛ ما ينبغي علينا هو أن نطلب رضى مولانا. لقد ظللت أنتظر أن يأتي أصحابنا من لاهور ومن أمرتسر، ولكن لم يأت منهم أحد كي يتعلم مني شيئا ينتفع به. إنني أود أن تكونوا جميعا

أتقياء صالحين، وأن لا تصرفوا الوقت الطويل في الاهتمام بأمور الدنيا وما فيها من عثرات.

* * *

استُدعي حضرة خليفة المسيح إلى مدينة "مُلتان" كشاهد للدفاع في قضية جنائية كانت تُنظر في محكمة القاضي "راي كيشوداس" في ٢٦ يوليو (تموز) ١٩١٠. وقد غادر حضرته قاديان في ٢٤ يوليو وتوقف في لاهور ليوم وهو في طريقه إلى "مُلتان". وأثناء وجوده في لاهور تلقى خطابا من أحد الشيعة يقترح عقد مناظرة في موعد لاحق بينه وبين واحد من علماء الشيعة الذي وصل من إيران، كما اقترح أيضا تعيين حكم تتم الموافقة عليه، وله أن يُصدر حكمه في المناظرة. فرد حضرته على ذلك بقوله:

إنني حريص على اتباع الحق. وبفضل الله تعالى فقد بلغت السبعين من العمر وليس لي زمن طويل للحياة. ومع ذلك فإني إذا وجدت سبيلا للحق، فلن أتوانى إن شاء الله عن قبوله ولن أصر على الباطل. ولكن، من أي فِرقة سوف يكون الحَكَم، وما هي الضمانات التي تكفل ألا يكون منحازا؟

ولم يواصل الشيعي سعيه لتحقيق الأمر.

كان المتهم في القضية الجنائية بملتان جنديا سابقا اتُّهم بتسببه في وفاة الضحية ولكن بغير سبق الإصرار على ارتكاب جريمة القتل. وكان دفاعه يقوم على أنه لم يكن في حالة عقلية سليمة. وكان قبل حوالي ستة شهور قد ذهب إلى قاديان لينال علاجا على يد الحكيم نور الدين،

ومكث هناك لمدة أسبوع أو عشرة أيام. وعندما وصل الشاهد الكريم إلى قاعة المحكمة استقبله القاضي بكل حفاوة وعامله باحترام بالغ. واعتذر له أنه اضطر إلى الحضور تنفيذا لأمر استدعاء كي يكون شاهدا في هذه القضية. و لم يطالبه بالوقوف في صندوق الشاهد، وإنما سمح له أن يدلي بشهادته وهو جالس على كرسيه الخاص. وكان ملخص شهادته كالتالي:

إنني أعرف المتهم، فقد جاء إليّ للعلاج منذ أكثر من ستة شهور، وكان في صحبته شخص آخر. وكان تشخيصي لحالته أنه كان يعاني من الهوس الذي يتميز بالانفعال الشديد، وهو ضرب من الجنون. وأعراضه هي الشعور بالكآبة، والتردد في الإفصاح عن حالته الحقيقية للطبيب، واحمرار حدقة العين، وحدّة الطبع وسرعة الانفعال. وقد مكث لمدة أسبوع أو عشرة أيام ولكن حالته لم تتحسن. وطلبت منه المكوث لمدة أطول ولكنه أبى. وكنت أقوم بفحصه مرة كل يوم لبضع دقائق، و لم أطلب منه أن يقضي معي وقتا طويلا.

إنني الخليفة الأول لحضرة مرزا غلام أحمد، كما أني إمام الجماعة الإسلامية الأحمدية، وقد مارست الطب لمدة تقرب من خمسة وأربعين عاما، وكنت رئيس الأطباء في البلاط الملكي بكشمير. وقد أقمت في تلك الولاية لمدة خمسة عشر عاما، و لم أسمع أن المتهم قد اعتدى على أحد. وأذكر أنني كتبت له علاجا، ولكني لا أحتفظ بسجل للمرضى، وأقوم

بفحص كل مريض بما يتطلبه الأمر من عناية، ولا أقوم بفحص أحد بطريقة سطحية.

وقد تصرف تجاهه المحامي ومفتش المحكمة أيضا بالاحترام الواجب. وكان حضرته ينوي أن يغادر ملتان في نفس اليوم، ولكن إزاء طلب شرفاء أهل البلد وافق على البقاء ليوم آخر ظل منشغلا فيه بفحص المرضى، وفي المساء ألقى خطابا عاما في قاعة اللجنة الإسلامية. وغادر البلدة ليلا في طريقه إلى لاهور وقضى فيها ثلاثة أيام. وفي صباح يوم الأحد الموافق ٣١ يوليو، ألقى خطابا عاما عن "الإسلام والأديان الأخرى"، ثم عاد بعد ظهر نفس اليوم إلى قاديان.

* * *

في ٢٢ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٠، كتب إلى صديق يشرح له حقيقة إيمانه فقال:

ليس في مقدور الإنسان أن يقطع قلبه ويخرجه للناس. وإن كان من الممكن تصديق الشهادة التي يقسم المرء على صدقها، فليس أعظم ضمانا من القسم بالله العظيم ليكون هو الشاهد الأمين. وبعد وفاتي لن تكون أنت ولا أحد غيرك معي، وما سوف يكون في صحبتي هو إيماني وعملي فقط، وسوف يكون الحكم في كل أمر لله العظيم الذي بيده ملكوت السماوات والأرض.

إنني أؤمن بصدق وتقوى حضرة المرزا المحترم. لقد كان مجدد هذا العصر، وأؤمن بأنه كان أشد الناس إيمانا وإخلاصا لمحمد

رسول الله، النبي العربي المكي، خاتم النبيين، وللشريعة التي أتى بها. وكان حضرة حضرة المرزا المحترم يعتبر نفسه من أخلص خدام النبي العربي محمد بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف. أما لفظ "نبي" فيعني الشخص الذي يتنبأ بناء على الوحي الذي يتلقاه من الله تعالى، ولا نعتقد أن النبي لا بد أن يأتي بشريعة جديدة.

إن حضرة المرزا المحترم وأنا، نؤمن بشدة أن أي شخص ينكر ولو حركة من حركات القرآن المجيد أو سُنة محمد رسول الله ﷺ فهو كافر وملعون من الله تعالى. وكل من يرفض شهادتي هذه أو ينكرها أو يعتبرها غير صادقة فحسابه عند الله.

وقد نشر رئيس تحرير جريدة البدر في بداية شهر نوفمبر (تشرين الثاني) الإعلان التالي:

لما كان حضرة خليفة المسيح يعاني من ضعف الصحة، كما أنه يعاني في بعض الأحيان من شدة المرض، وأن استمرار الحياة الإنسانية غير مضمون، فقد أصدر توجيهاته بإعلان أن كل من يعتبر أن له حقا لديه سواء كان مالا تُرك معه بصفة أمانة، أو سُلم له على سبيل القرض، أو على أي سبيل آخر، أو إن كان هناك مريض يعتبر أنه لم يتلق منه مقابلا لما دفعه من مال، فعليه أن يتقدم ويتسلم ما يعتبره حقا له. وقد ذكر أنه بفضل الله تعالى يستطيع بكل سهولة أن يلبي جميع ما يُقدم إليه من هذه الطلبات، وقد رزقه الله تعالى الوسائل التي تمكنه من ذلك.

وعندما عُقد المؤتمر السنوي الأخير، كان حضرة خليفة المسيح واقفا تجاه الجنوب من منْزل نواب محمد علي خان، فجاء شخص ما وأعطاه مبلغا من المال. ولا يذكر من كان ذلك الشخص، ولا الغرض الذي من أجله أعطاه هذا المال. وقد وضع المال جانبا، و لم يقم حتى بعدّه. والمطلوب من قراء هذا الإعلان أن يخبروا الآخرين أيضا، وأن يبذلوا الجهد اللازم لمعرفة من الذي أعطاه ذلك المال ولأي غرض كان.

الفصل الخامس عشر

المـــــرض

في خطبة الجمعة التي ألقاها في ١٨ نوفمبر (تشرين الثاني)١٩١٠، أعرب حضرة خليفة المسيح عن مشاعره على النحو التالي:

إن أشد ما أتوق إليه هو أن تحب هذه الجماعة اللهَ تبارك وتعالى، وأن تطيع رسوله محمدًا ﷺ، وأن تفهم القرآن المجيد. إن ربي الكريم، بغير أن يضعني في أي ضيق أو بلاء، وبخالص فضله بغير حتى أن أطلب منه، قد تفضل علي بما لا يُحصَى من النعم الكريمة والأفضال العظيمة، وكان يلبي جميع حوائجي. إنه هو الذي يطعمني ويكسوني ويمدني بوسائل الراحة. وأعطاني بيوتا، وزوجة، وأبناء، وأصدقاء حقيقيين مخلصين. كما أنه رزقني بكمية كبيرة من الكتب تثير العجب، وأعطاني الوقت والقدرة على دراستها، ومنحني الصحة والمعرفة، ويسّر لي كل ما أنا في حاجة إليه. والآن، فإن رغبتي، ولي كبير الرجاء أن يلبي لي ربي رغبتي هذه أيضا، وهي أن يكون من بينكم أولئك الذين يحبون الله تعالى، ويحبون كلمة الله التي أنزلها على محمد رسول الله، ويكونون مطيعين لله تبارك وتعالى، وأن يكونوا أتباعا مخلصين لخاتم النبيين. وعسى أن يكون من بينكم أولئك الذين يتبعون أوامر القرآن المجيد وسُنة النبي الأكرم ﷺ. وأدعو الله تعالى أنني حين

أرحل من هذه الدنيا أن تقر عيني ويطمئن قلبي عليكم. إنني لا أطلب منكم أجرا ولا جزاءً، ولا أنا في حاجة إلى شيء منكم، ولا أريد حتى أن أتلقى تحيات أي منكم. وكل ما أرجوه منكم هو أن تطيعوا الله تعالى، وأن تكونوا أتباعا مخلصين لمحمد رسول الله ﷺ، وتبلغوا رسالة "لا إله إلا الله" بالحكمة والموعظة الحسنة في جميع أنحاء العالم.

وبعد انتهاء صلاة الجمعة قرر أن يقوم بزيارة لنواب محمد علي خان، الذي عاد في اليوم السابق إلى قاديان من "ماليركوتلا". ولما كانت المسافة تبلغ حوالي ميلا ونصف، رأى أن يمتطي مهرة جامحة كان أحد الأشخاص قد أهداها إلى ابنه الأكبر عبد الحي، الذي كان صبيا يبلغ من العمر أحد عشر عاما. وبعد أن انتهى من زيارته، عندما كان يهم بركوب المهرة، حدث أن شخصا كان بين الوقوف فلاحظ أن الركابين كانا قصيرين وأراد أن يطيلهما ليتمكن حضرة خليفة المسيح من وضع قدميه فيهما، غير أن حضرته رفض ذلك وقال إنهما مضبوطتان ليناسبا أرجل الأطفال ولا ينبغي تغيير أطوالهما. وامتطى المهرة ومضى راكبا، وكان من رأوه مارّا بهم يلاحظ أن المهرة سريعة بعض الشيء، إلا أنه كان جالسا بثبات على سرجها، وكان يبدو أنه مستمتع بالركوب. وعند دخوله البلدة كان عليه أن يمر خلال طريق ضيق، وعند نقطة معينة في الطريق جفلت المهرة فجأة مما تسبب في قذفه ناحية اليمين، وتعلقت قدمه اليسرى بالركاب، وظل على هذه الوضع لمسافة عدة أقدام، ثم ارتطم جانبه الأيمن بصخرة بارزة في الطريق. وقد أصيب بعدة

جروح بسيطة ولكن كان بينها جرحا بليغا في صدغه الأيمن كان ينْزف بغزارة. وحين أدرك ما حدث صاح قائلا: لقد صدق مبعوث الله! وكان يشير بذلك إلى رؤيا للمسيح الموعود عليه السلام رأى فيها المولوي نور الدين وقد سقط عن ظهر حصان. وعندما رأى حضرته هذه الرؤيا لم يكن أحد من الأحمديين في قاديان يملك حصانا للركوب. وكان هناك وحيان آخران قد يشيران أيضا إلى هذه الواقعة، وكان أحدهما: "حياة ثانية"؛ والآخر هو: "حياة كانت قد أُلغيت".

ظل حضرة خليفة المسيح هادئا تماما ولم يبد عليه سمات أي قلق. وقُدمت له الإسعافات الأولية، وتمت خياطة الجرح على صدغه بدون تخدير. ولم يلاحظ أولئك الذين كانوا يتولون إسعافه أن عضلة واحدة من وجهه قد تقلصت أثناء عملية خياطة الجرح. ومع انتشار أنباء الحادثة تجمّع الرجال والنساء حول داره يعلوهم القلق، ويمنّون أنفسهم بالاطمئنان عليه. وقد قال للرجال إنه سوف يدعو الله لهم، وأرسل رسالة للنساء يطمئنهن على أنه في حالة طيبة، ولا ينتابه القلق أو الخوف، وأن عليهن أن يرجعن إلى بيوتهن بعد أن يتركن أسماءهن، وأنه سوف يدعو الله لهن. وقال ردا على اقتراح باستدعاء أشهر الأطباء من دلهي: ضعوا ثقتكم في الله تعالى. إن اعتمادي ليس على الدكاترة ولا على الأطباء، بل أعتمد على الله تماما، وأرجو أن تفعلوا أنتم أيضا كذلك.

تحوّل الجرح الذي على صدغه فأصبح قرحة دائمة مؤلمة، واستمر مرضه لعدة شهور. وحتى بعد مرور ستة شهور بعد الحادثة في ١٩ مايو (أيار) ١٩١١ لم يكن يستطيع الذهاب إلى المسجد أو يؤم صلاة

الجمعة، فحتى هذا العمل كان مجهدا له. ومع ذلك فخلال فترة النقاهة الطويلة التي قضاها ظل مشغولا طول الوقت، وقدم مثالا عاليا من الإخلاص والتفاني في أداء الواجب.

وفي ٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٠، أرسل رسالة إلى أعضاء الجماعة، وكان مما جاء فيها:

> إن المحنة التي أمر بها كانت فرصة لتَجلي أشكال عديدة من رحمة الله وشفقته وفضله تعالى. وقد أظهر الله تبارك وتعالى لي حقيقة إخلاص العديد من قلوب الناس الذين ينبغي عليّ أن أبادلهم الحب. وكان من بينهم البعض الذين لم أكن أتصور مدى المحبة التي يحملونها لي ولإخوانهم من أفراد الجماعة. وإن الأسلوب الذي كانوا يسهرون به على راحتي ليلا ونهارا خلال مرضي لهو دليل على مدى إخلاصهم، وكان هو السبيل الذي أظهر الله به صفاتهم الكريمة، وكان هذا برهان من الله تعالى على عنايته سبحانه بهذا العبد الضعيف. إنني أشعر بالامتنان العظيم لجميع هؤلاء الذين عبّروا عن تعاطفهم معي خلال الحالة التي أمر بها.
>
> إن قلبي يشعر بالاطمئنان. فليس من أحد أعز عندي ولا أحب إليّ من الله تعالى، وليس من أحد يعينني أو يؤيدني كما يفعل سبحانه تبارك وتعالى. لقد غمرني بفضله وإحسانه بغير حساب وأنا في حالتي الراهنة. فقد رزقني من فضله بشكل لا يمكن أن يتصوره أحد. ولست مدينا لأحد بسبب الفضل

الذي وصلني في بيتي في تلك الأيام. إنني مدين له وحده سبحانه. ولا شك أن كل ذلك يبدو غريبا في أعين الناظرين.

وفي ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٠، ذكر في أحد الأيام:

إن المرض ابتلاء من عدة نواحي. فالمصروفات تزداد، والدخل يقل، ويضطر المرء إلى الاعتماد على الآخرين. إن الوسيلة الظاهرة التي أتكسب منها الرزق هي ممارستي العلاج كطبيب، والآن توقف هذا المصدر بسبب مرضي. وقد يتصوّر أولئك الذين لا يعلمون حقيقة أحوالي أن ممارستي الطب هي الوسيلة التي تفي باحتياجاتي، وها قد علقها الله الآن. وأخبرتني زوجي اليوم أنه لم يعد لدينا أية نقود، وقالت: إنك لم تفكر مطلقا في المرض. وقد يكون المرء أثناء المرض بغير أي شيء ويفتقد حتى الضرورات الأساسية للحياة. وقلت لها إن ربي لا يعاملني بهذا الأسلوب، ولو لم أكن على ثقة تامة بالله تعالى لكنت ادخرت لذلك بعض المال.

وقد حدث أن وصلت باسمه بطاقتان ماليتان بقيمة مئة وخمس وعشرين روبية، بغير أن يعلم عن مصدرهما شيئا. ولما أخبروه بأمرهما تأثر لذلك تأثرا شديدا وحمد الله تعالى بامتنان بالغ، وقال: هذا هو فضل ربي العظيم، وها قد بيّن سبحانه كيف يمدني بالرزق بغير الاعتماد على مهنتي كطبيب، وبشكل لا يمكن أن يتصوّره أحد. ولم تستطع زوجتي لضعفها أن تستوعب ذلك، ولكن إيماني بالله قوي، فإن ربي كثيرا ما يعاملني بهذا الشكل.

وقد استمرت هذه التجليات التي يُظهر الله تعالى بها عنايته الكريمة على طول الخط. وفي أحد الأيام أصدر توجيهاته للشيخ محمد تيمور أن يحرر قائمة بجميع النفقات التي تكبدها أثناء مرضه من دواء وأربطة، وأن يدفع المجموع من المبالغ التي توفرت. وقال تعليقا على ذلك: إن ربي قد رزقني من لدنه رزقا، ولا أريد أن أكون مدينا لأحد. فقد وعدني سبحانه بأنه سوف يتولى تلبية جميع ما أحتاج إليه.

* * *

في ١٥ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٠ أُعلن أن صحة حضرة خليفة المسيح تتحسن باضطراد، إذ لم يعد يشكو من ارتفاع درجة الحرارة أو من السعال. ورغم أنه كان لا يزال ضعيفا إلا أنه قد استرد بعض قوته. وكانت جروحه تلتئم بالتدريج، والتأم تقريبا الجرح الذي أصيب به في شفته، ولم يعد يعاني من أي صعوبة في تناول الطعام أو في الكلام، ولكنه كان يعاني من الأرق من وقت لآخر. وكان القرآن المجيد يُتلى له يوميا في الصباح وبعد الظهر، فكان يُعلق على بعض النقاط فيه كما كان يقوم أيضا بإسداء النصائح والتوجيهات. وقد حدث أن زاره أحد المسلمين الأوروبيين للإطمئنان على صحته، وتحدث إليه حضرة خليفة المسيح حديثا طويلا عن الإسلام.

وقد تم عقد المؤتمر السنوي للجماعة في ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٠. وتحدث حضرة خليفة المسيح في المؤتمر بعد ظهر يوم ٢٥، وكان موضوع حديثه: "لا إله إلا الله"، ثم تحدث مرة

أخرى بعد ظهر يوم ٢٧ عن "سلاح الدعاء". وكان مما قاله في ذلك الخطاب ما يلي:

إن قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر:٦٠) سلاح، وهو سلاح ماض مؤثر. وقد يحدث أحيانا أن من يتقلد هذا السلاح يكون ضعيفا فلا يدرك مدى تأثيره وقوته. لقد أهمل العالم اليوم استخدام سلاح الدعاء، ولكن ينبغي على أفراد جماعتنا أن يشحذوه ويتقلدوه ويستعملوه دوما. وينبغي عليهم أن يدعوا الله تعالى دائما ولا يملوا أبدا من الدعاء والابتهال إليه سبحانه. إنني أعاني من شدة المرض، ولا يعلم أحدٌ كم من الزمن سوف أبقى على قيد الحياة. وعلى ذلك فإن نصيحتي الأخيرة لكم هي: بالإضافة إلى "لا إله إلا الله"، عليكم أن تشحذوا سلاح الدعاء. وينبغي ألا يتطرق النّزاع والفُرقة إلى الجماعة، فعندما يدخل النّزاع إلى الجماعة سوف تتعرض للعقاب الإلهي، كما ذكر ذلك القرآن المجيد: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف:١٦٦). لقد حفظكم الله تبارك وتعالى حتى الآن من هذا البلاء. وحتى الدعاء لا يفيد بشيء بغير فضل الله ورحمته. ولذلك فإني أنصحكم: توجهوا إلى الله تعالى دوما بالدعاء. وأكرر القول: توجهوا إلى الله تعالى دوما بالدعاء أن يحفظ الجماعة من الفُرقة والنّزاع، واعلموا أن الفضل الذي أضفاه الله تعالى عليها حتى الآن إنما هو ثمرة من ثمرات الدعاء. وادعوا الله لي أيضا أن

يكون مساعديّ من المؤمنين المخلصين الخاضعين لله تعالى، وأن يكونوا مطبوعين على الخير وتملأ قلوبهم الرحمة والكرم، وألا يعارضونني. عسى أن ينعم الله علي بالدعاة المخلصين الذين يدعون إلى الله بالعقل والحكمة، ويقدسون الحق، وتتطهر قلوبهم من حب الدنيا. وبالإضافة إلى إخلاصهم وولائهم، عليهم أن يكونوا على وعي وإدراك بسُنة الرسول ﷺ.

وقد انتهى من حديثه بقوله:

إنكم مدينون لي ببعض الالتزامات:

١- لقد بايعتموني وأقسمتم على ذلك بعهد البيعة، ولذلك يتعيّن عليكم أن تلتزموا بطاعتي. إن من يخون العهد يكون من المنافقين، وإني أخشى أن يتحوّل أحد فيكون من المنافقين من جرّاء عدم الالتزام بطاعتي.

٢- إنني أدعو الله لكم بكل قوة وحرارة، وبجميع ما آتاني الله من قوة.

٣- وبسبب مرضي لا أستطيع أن أسجد على الأرض أثناء أداء الصلاة، ومع ذلك فمن أجلكم دعوت الله طويلا لكم بكل حرارة وأنا ساجد.

وعلى هذا، يتعين عليكم الوفاء بالتزاماتكم تجاهي أن تتخلوا عن جميع صور الفُرقة والنّزاع.

وفي نهاية المؤتمر السنوي استدعى رؤساء الجماعة من فروعها المختلفة مع أعضاء المجالس الإدارية فيها وقال لهم:

لقد أرسلت في استدعيتكم لأنني كنت مستاء في العام الماضي أنكم لم تقابلوني، وكنت قد عقدت العزم على أن أوجه لكم بعض النصائح إذا شاء الله لي أن أبقى على قيد الحياة هذا العام.

إنني لم أكن أتصوّر بتاتا أن أكون إماما روحيا لأي جماعة على الإطلاق، ولكن حين شاء الله ذلك جعلني إماما بشكل مفاجئ. إنكم تشغلون المناصب الإدارية وتُشْرفون على إدارة أمور الجماعة، ولا شك أنكم تواجهون المصاعب أحيانا. وقد يتساءل أحد لماذا لم يتولّ هو منصبا إداريا، وقد يتسلل إلى قلبه بعض الحقد أو الضغينة بسبب ذلك. وأما عن نفسي أنا فلم أكن أتطلع أبدا إلى شغل أي منصب. وعند وفاة المسيح الموعود عليه السلام، كنت على أتم الاستعداد لأن أبايع ابنته "أمة الحفيظ" التي لا تزال في المهد لو أنها كانت قد اختيرت لتخلفه، وكنت على أكمل الاستعداد أن أطيعها تماما كما كنت أطيع أباها عليه السلام، وأنا على يقين أن وعود الله تبارك وتعالى سوف تتحقق على يدها أيضا. وإني أقول لكم هذا لكي لا يكون لدى أحد مثل هذه التطلعات.

ونصيحتي الأولى لكم، وأتوسل إليكم بحق الله تعالى أن تقبلوها بقلوب منشرحة، وهي أن تضعوا في اعتباركم التوجيهات الإلهية عندما تواجهون المصاعب، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا

تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال:٤٧). إن الله الذي هو خالق الطبيعة البشرية كان يعلم بوقوع النّزاع، ولذلك أمر بالتمسك بالصبر وقال إنه مع الصابرين. وعلى هذا، إذا وقع خلاف مع أحد أعضاء الهيئة الإدارية فعليكم أن تتمسكوا بالصبر، فإن الله سيكون مع من يتمسك بالصبر من أجل الحصول على رضاه سبحانه.

إن من حقي أن أوجه لكم النصح مادمتم ملتزمين بطاعتي في كل معروف، وأنا أدعوكم أن تحرصوا على طاعتي في هذا الأمر: تجنّبوا النّزاع. وحينما تواجهون نزاعا فعليكم أن تخروا سُجّدا أمام الله تعالى لينعم عليكم بالصبر والثبات. لا تخشوا المصاعب والأزمات، فلا بد من مواجهتها في كل موضع، وكان عليّ أن أواجه ما يصيبني منها. وقد سقط البعض في وهدة الخطأ، وارتكبوا أعمالا تنم عن الوقاحة وسوء الأدب، ولكني تمسكت بالصبر. إن هؤلاء لم يدركوا ما ينبغي لإمام الجماعة من احترام، وسوء الإدراك هذا كان بسبب سوء المعرفة، ولكن الله تعالى كان رحيما بهم، وهو بنفسه الذي قوّم قلوبهم على النهج السليم. إن القلوب بين يدي الرحمن، وهو سبحانه الذي يؤلف بيني وبين قلوبهم. وبذلك فإنهم ونحن وأفراد الجماعة قد اختبرنا فضله ورحمته. فاجتنبوا النّزاع،

وحثوا أفراد الجماعة أيضا على أن يتجنّبوا النّزاع، ولا تنسوا أن الله تعالى أمر بالصبر في تلك الأحوال.

والأمر الآخر الذي أود أن ألفت أنظاركم إليه، هو أن بعض فروع الجماعة التي يوجد بها أعداد كبيرة من الأعضاء، يلاحظ أن تقدم تلك الجماعات ليس على ما يرام، وأنا أعلم السبب في هذا، وأنصحكم أن تستخدموا علاجين في هذا الشأن. أولهما أن أولئك الذين يشغلون مناصب إدارية ينبغي عليهم أن يبتهلوا إلى الله تعالى بالدعاء الحار الذي ينبثق من أعماق قلوبهم. فأنتم تعلمون أن هناك صلاة اسمها صلاة الكسوف تُؤدّى عندما يقع كسوف للشمس أو خسوف للقمر. وتعلمون أن الرسول ﷺ كان يصيبه القلق عندما تقع هذه الظاهرة فيسرع إلى الصلاة، مع أنه يعلم تماما أنها ليست سوى ظاهرة طبيعية كما يقول القرآن المجيد: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (القمر: ٤٠). وكان يعلم أن نور الشمس أو ضوء القمر خلال الكسوف لا يقل ولا يتلاشى، ولكنه يُحجب عن الأرض. ومع ذلك كان يصيبه القلق لأنه يعلم أنه مُكلّف بتبليغ رسالة، فكان يخشى أن يعترض حاجز ما تبليغ هذه الرسالة. ولذلك كان يصلي ويبتهل إلى الله تعالى عند وقوع ظاهرة الخسوف أو الكسوف، كما كان يخرج الصدقات ويقدم الضحايا ويعتق الرقاب.

إن الفلاسفة الأغبياء لا يفهمون هذا السر؛ ولكن النبي يعلم أنه هو نفسه يُعتبر مصدرا للنور، ولذلك فإنه يخشى أن

يُحجب نوره كما يُجب نور الشمس أو القمر خلال ظاهرة الكسوف والخسوف. ولذلك فإنه يبتهل إلى الله ويخرج الصدقات. وإخراج الصدقات هو العلاج الثاني الذي أنصحكم باتباعه لإزالة العوامل التي تحجب تقدم الجماعة. وضعوا في اعتباركم دائما أنه حيثما أصاب التباطؤ تقدم الجماعة، فإنه ينبغي على أولئك الذين يشغلون مناصب إدارية أن يتوضأوا ويبتهلوا إلى الله تعالى في الصلاة، وأن يُخرجوا الصدقات وينفقوا في سبيل الله بصفة شخصية، حتى يرضى الله تعالى بأن يزيل كل عائق من طريق تقدم الجماعة. إنني أناشدكم أن تخرجوا الصدقات، فإن الصدقات والإنفاق في سبيل الله يطفئ نار غضب الله.

وأخيرا، أود أن أحذركم من سوء الظن في الأمور التي تتعلق بإنفاق الموارد المالية للجماعة. فإن المسؤولين عن هذه الأمور هنا في المركز، أناس يتصفون بالأمانة وجديرون بحسن الثقة، ولذلك ينبغي عليكم ألا تكونوا قلقين من هذا الأمر. وأنا أيضا أحد الأمناء فيما يتعلق بما يُرسل إليّ، وأريد أن أطمئنكم بأن الله تعالى لم يجعلني جشعا نحو المال، وليس لي أي رغبة في اقتنائه. إنني أعطي زوجتي مصروفا ثابتا. وليس لي رغبة في الشهرة.

إنني أقترب من نهايتي، وأنا أكثر من يتمنى لكم كل خير وتوفيق، وأدعو الله دوما من أجلكم. إنني لم أترك مالا

لأولادي، ولم أتلق أي مال من والدي ولا من إخوتي، ولكن ربي القدير رزقني الكثير منه ولا يزال يرزقني، ولهذا عليكم أن تتخلوا عن كل سوء ظن يتعلق بهذا الأمر. اعملوا على تنمية الحب والمودة فيما بينكم، وتجنبوا النّزاع والفُرقة، ولا يأخذكم بأحد سوء الظن؛ وإن تضايق منكم أحد فتحلوا بالصبر الجميل، وحافظوا دوما على الدعاء والابتهال إلى الله تبارك وتعالى.

لقد كان في اعتباري طوال العام أن أقول لكم كل هذا الكلام. وقد يظن البعض منكم أنه كان لي بعض الدوافع الأنانية في رغبتي أن تأتوا لمقابلتي، ولكني لا أنتظر شيئا منكم، فإن اسمي في السماء "عبد الباسط"، الذي يعني عبدُ مَن يضفي الخير العميم والرزق الوفير، وهو سبحانه الذي يضفي عليّ كل ما أنا في حاجة إليه، وما أعظم فضله عليّ! فمنذ فترة سقطت من على ظهر مهرة كنت أمتطيها، ولو كانت قد ركلتني في عينيّ، فماذا عسى أن يكون مآل أمري؟ ولكن شملتني العناية الإلهية وحفظتني من الخطر. لقد وقعت الكثير من الأخطاء في العام الذي يوشك على الانتهاء، ولكني أرجو أن تُجتنب الأخطاء كلها في العام الذي على وشك الابتداء.

كان التقرير الطبي الصادر في ٥ يناير (كانون الثاني) ١٩١١ يقرر أن جروح حضرة خليفة المسيح كانت تُضمّد في كل يوم من أيام المؤتمر السنوي، وكان يغطيها بضمادة، ولكن الجروح التأمت منذ ذلك الحين وتم رفع الضمادة. وقد أنهكه الجهد الذي بذله خلال انعقاد المؤتمر،

والأعداد الغفيرة من الزوّار الذين كان عليه أن يلتقيهم ويتحدث إليهم. وقد تم خلع ضرسين كانا يسببان له الألم، ونتج عن ذلك ارتفاعا في درجة حرارته استمر لمدة يومين، ولكنها أصبحت عادية الآن. غير أنه يعاني بعض الآلام العصبية التي تظهر وتختفي. وهو منشرح دائما ولا تظهر عليه آثار القلق والاضطراب. وقد قال بعد خلع ضرسيه: إن كل ألم له ما يعوّضه، فالآن أستطيع أن أستمتع بشرب الماء البارد.

وبعد مرور أسبوع صدر تقرير آخر يبين أنه لا يزال يعاني من ألم الأعصاب من حين لآخر، وقد أصيب بوَرَم مؤلم في خده نتيجة لخلع الضرسين.

وبيّن تقرير صدر في ١٩ يناير (تشرين الثاني) استمرار ألم الأعصاب الذي يظهر من حين لآخر، وأنه قد أصيب بشيء من الاضطراب والأرق في ليلة واحدة.

وجاء في تقرير الدكتور مرزا يعقوب بيج في ٢٢ يناير أنه قد حقق تقدما طيبا من جميع النواحي، وقضى ليلة مريحة بغير ارتفاع في درجة الحرارة، كما أنه يستعيد قوته باضطراد. وعندما كان الطبيب يهم بالانصراف بعد أن أتم فحصه، سأله عما إذا كان يريد شيئا ما على وجه الخصوص، فكان جوابه:

> إن كل ما أريده من أعماق قلبي أن يكون الله تعالى راضيا عني (وكرر ذلك مرات ثلاث). إنني أود أن تستمروا على سبيل الطاعة، وألا تتطرق الفُرقة إليكم، فلا تثيروا المشاحنات. لقد نلت نصيبي من الدنيا، ولم تعد لي أي رغبة دنيوية، وكل ما

أتمناه هو أنني عندما أرحل من هذه الدار يكون الله تعالى راضيا عني. قولوا هذا للجميع. إنني لست حريصا البتة على الأمور الدنيوية. لقد أنعم الله عليّ بالكثير، وأعطاني الكثير، وأنفقت الكثير، وتنازلت عن الكثير، وليس لي مطمع آخر. وأحيانا أتمنى نوال الصحة، حتى لا يتسبب المرض في التأثير على ديني. يا الله! إنني أتوسل إليك أن تكون راضيا عني.

إني أتوق من كل قلبي ألا يتطرق النّزاع إلى جماعتنا. إن العالم لا يعني شيئا بالنسبة لي، وسوف يغمرني السرور والرضى إذا بقيتم متحدين. إنني لا أستطيع السجود أثناء أدائي الصلاة؛ ومع ذلك فقد دعوت الله طويلا لكم وأنا ساجد. وابتهلت إلى الله كثيرا، مرارا وتكرارا، من أجل خيركم. وأنا لا أريد شيئا منكم، وليس لي أي مطمع دنيوي. إن ربي أعطاني الكثير، وكان فضله هذا يفيض عليّ بطرق خفيّة، وكان أوسع من جميع احتياجاتي. كونوا على حذر من الخلافات والمشاحنات، فإن تجنبتموها سوف يبارككم الله تعالى ويحفظ لكم شرفكم وقوتكم، وإلا فإنكم سوف تخسرون كل شيء.

إنني لم أصدر أي توجيه ينبع من دافع أناني، بل إن جميع توجيهاتي كانت تتعلق بإرادة الله تعالى. كونوا دائبين على إقامة الصلاة وادعوا الله على الدوام. إن الصلاة نفسها دعاء. ولا تعملوا على تعميق الخلافات والمشاحنات، فقد تسببت في الكثير من الأضرار. وإذا وقعت الخلافات فالتزموا الصمت، وابتهلوا إلى الله تعالى من أجل أنفسكم ومن أجل من يختلفون

معكم. وكرروا دوما: لا إله الله، محمد رسول الله. تمسكوا بكتاب الله واتلوه كثيرا واعملوا به. أما بالنسبة لي، فقد رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا. وبهذا فإني أستودعكم الله.

وقد أوضحت التقارير الطبية التي تلت ذلك أن حضرة خليفة المسيح مستمر في تحقيق تقدم بطيء نحو المعافاة الصحية الكاملة. وقد شُفيت جميع جروحه الأخرى، ولكن الجرح الذي أصاب صدغه الأيمن تحول إلى قرحة دائمة. وقد اضطر بحكم الظروف أن يقضي يومه في غرفة جلوسه حيث كان يؤدي أعماله ويمارس مسؤولياته حسب استطاعته. وكان يعطي بعض الدروس، وأحيانا كان يقوم بفحص بعض المرضى ويصف لهم الدواء اللازم. وفي ٣٠ يناير (كانون الثاني) أرسل في استدعاء "مخدوم ميان محمد صدّيق"، وطلب منه أن يحضر أوراقا ومواد الكتابة، وطلب منه أن يتلو الآية التالية من القرآن المجيد ثلاث مرات: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (العنكبوت:٥٢)؛ وعندما فعل هذا قال له:

إن الله تعالى قد بيّن في هذه الآية الكريمة جميع المراحل اللازمة لتحقيق التقدم لمن يطلب الحق. وهو سبحانه يسأل: أليس الكتاب الذي أنزلناه على محمد فيه كل ما يكفي حاجات المؤمنين؟ إنه مجمع للرحمة ومنبع كل ذكرى.

إنني أعلم جيدا ظاهرة الطبيعة وكل أشكال الرؤى، ولكن بعد هذه الشهادة الربانية أعتبر أنه من أشد أنواع الجحود أن

يسعى أحد لاتخاذ أي وسيلة أخرى للرقيّ الروحي، وليست هي عندي إلا مجرد مراسم لا قيمة لها. تذكروا هذا، جميعا. إذا صوّر لكم خيالكم أي وسيلة أخرى بعد رحيلي عنكم، فاستمدوا القوة من "لا حول ولا قوة إلا بالله"، فلا حول لعمل الخير، ولا قوة لتجنب الشر، إلا بالاستعانة بالله العليّ العظيم.

ثم ضعوا في اعتباركم شهادة ربانية أخرى جاءت في مطلع آيات القرآن المجيد، وهي: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة:٢-٣)، أي أنا الله أعلم أن هذا هو الكتاب الكامل، ولا يوجد به أي شك أو ريْب، بل هو الهدى اللازم للمتقين. وهذا يعني أن القرآن الكريم يقدم السبيل الوحيد لتحقيق التقوى. إنني أبين لكم هذه الأمور تحت توجيه رباني، فقد رُوي في الأحاديث أن الرسول ﷺ كان يدعو بالكثير من الأدعية من أجل نوال الحماية من الله تعالى، ولكن بعد أن نزلت سورتا الفلق والناس، تخلى عن جميع الوسائل الأخرى والتزم بالدعاء بهما فقط.

والشهادة الربانية الثالثة هي: ﴿إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي، هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف:٢٠٤-٢٠٥).

وفي ١٠ فبراير (شباط) ١٩١١ تحدث حضرة خليفة المسيح إلى أولئك الذين كانوا في صحبته في ذلك الحين فقال ما يلي:

إن فضل الله عليّ عظيم. لقد أظهر قدرته وإحسانه لعبده المتواضع هذا بوسائل مدهشة أثناء مرضي. وقد أيقنت من جديد باستجابة الدعاء. إن الدعاء مصدر عظيم لفضله الذي غمرني. وقد أفضى ربي عليّ أفضالا عظيمة، وأتمنى لو كان لدي القوة لأخبركم عنها بالتفصيل. واليوم فقط تلقيت الوحي التالي: "اغنني بفضلك عمّن سواك". لقد كنت أعاني من الأرق. وكان الأطباء يعملون على إنامتي بالعقاقير دون جدوى، ولكني نمت الليلة السابقة لمدة خمس ساعات بغير أي دواء أو عقار. إن الله ملكٌ عزيزٌ وهو يفعل ما يريد. تذكروا نصيحتي هذه. كونوا على إيمان قوي بالله الكريم، وارجوا أن تنالوا فضله. ولا تجعلوا الصعاب والمشاكل تفت من عزمكم وإرادتكم، فهي مقدّرة لأجل رفعتكم وتقدمكم. استعينوا دوما بالله. هذا ببساطة واختصار ولكنه في غاية الأهمية، فاذكروه ولا تغفلوا عنه. عسى أن يكون الله معكم دائما، يحفظكم ويحميكم وينصركم. آمين.

وفي ٢٧ فبراير (شباط) ١٩١١ استفسر أحد الأشخاص من حضرة خليفة المسيح عما إذا كان الاختلاف العقدي بين الأحمديين وغير الأحمديين هو خلاف في الأساس أو في التفصيل. فقال:

إنه من غير الصحيح القول بأن هذا الخلاف في التفصيل. صحيح أننا نؤدي الصلاة كما يؤدونها، وليس هناك أي فروق فيما يتعلق بالزكاة والحج والصيام، ولكني أعتبر أننا نختلف في

الأساس، ويمكن شرح ذلك الأمر على الوجه التالي. إن الدين يتطلب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره واليوم الآخر. ويزعم معارضوننا أنهم يؤمنون أيضا بكل هذه الأمور، ولكن هنا يبدأ الخلاف. فلا أحد يُعتبر من المؤمنين ما لم يؤمن برسل الله تعالى، أي بجميع الرسل دون أي تفرقة بينهم فيما يختص بالزمان أو بالمكان، فإن رفْض المبعوث من لدن الله تعالى يصم الإنسان بالكفر. ومعارضوننا يرفضون قبول دعوى حضرة المرزا المحترم بأنه مبعوث من الله تعالى، وهذا أمر لا يُعتبر من التفاصيل، إذ يقول القرآن المجيد: ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِه﴾ (البقرة:٢٨٦). إن رفض الإيمان بالمسيح الموعود يُعتبر تفريقا بين الرسل. ونحن نؤمن بأن الرسول ﷺ خاتم النبيين، كما جاء ذلك في الكتاب العزيز بسورة الأحزاب، ونؤمن أن كل من لا يعتبره كذلك فإنه لا يكون من المؤمنين. ولكننا نختلف مع معارضينا على معنى تعبير "خاتم النبيين"، غير أن هذا الخلاف لا علاقة له بقوله ﴿لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِه﴾. وعلى هذا فإني أعتبر أن هناك خلافا في الأساس وليس في التفاصيل بيننا وبين غير الأحمديين.

وفي نفس اليوم كتب حضرته إلى "نواب فتح علي خان" من لاهور يعده بالتبرع بمقدار ألف روبية مشاركة منه في مشروع إنشاء جامعة إسلامية، كما أنه أصدر التوجيه التالي لأفراد الجماعة:

هناك مشروع لإنشاء جامعة إسلامية في الهند، والبعض من أصدقائنا كانوا يتساءلون عما إذا كان يمكن لهم أن يكتتبوا في

هذا المشروع. ولأجل هؤلاء وغيرهم من أفراد جماعتنا أقول إنه رغم أن الجماعة لديها الكثير من الاحتياجات، وينبغي على الأحمديين أن يتبرعوا بمبالغ كبيرة من أجل تلبية هذه الاحتياجات، إلا أن الجامعة الإسلامية مشروع على جانب كبير من الفائدة، وأنا أعتبر أنه من الضرورة لأحبائنا أن يساهموا في تنفيذه.

وفي بداية شهر أبريل (نيسان) ١٩١١، اقترحت صحيفة إسلامية تصدر في لاهور أن يوم ميلاد النبي ﷺ يجب أن يكون عيدا يُحتفل به، وقد أرسل فرع الجماعة في "شملة" يستفسر من حضرة خليفة المسيح عن توجيهاته بخصوص هذا الاقتراح، فأجاب بما يلي:

إن النبي الكريم الذي أسس أركان الإسلام في الأرض حدّد يومين اثنين ليكونا عيدا للمسلمين. كما اعتبر أيضا أن يوم الجمعة بمثابة عيد أسبوعي. وأي عيد آخر سوف يكون بدعة مكروهة. وسوف يفتح هذا الباب للناس كي يضيفوا أعيادا أخرى. فالأحمديون قد يرغبون أيضا في اعتبار اليوم الذي بدأ المسيح الموعود يتلقى فيه أول بشارات الوحي عيدا، أو يوم وفاته. إن صحابة الرسول ﷺ كانوا أكثر حبا وإخلاصا وولاء له، ولكنهم لم يتخذوا من يوم ميلاده عيدا ثالثا. وكان المسيح الموعود عليه السلام أشد الناس حبا للرسول ﷺ، ولو جاز اتخاذ مثل ذلك اليوم عيدا يُحتفل به لكان هو أول من احتفل به. إن

هذه المقترحات حماقة، ومن يقترحونها يبتغون الشهرة الشعبية، وليسوا مسوقين بدوافع روحية.

وقد أمّ حضرة خليفة المسيح صلاة الجمعة للمرة الأولى بعد الحادثة في ١٩ مايو (أيار) ١٩١١، بعد مرور فترة ستة شهور. وكانت مناسبة طيبة للفرح والابتهاج لدى جميع أفراد الجماعة. وبعد ذلك ظل لفترة طويلة يحضر صلاة الجمعة في المسجد بغير أن يتولى الإمامة، بينما الذي تولى إمامة بقية الصلوات بما فيها صلاة الجمعة كان صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد، وذلك بناء على توجيهات منه. وفي إحدى المناسبات، اقترح المولوي محمد علي على "حافظ روشن علي" أن يستفسر من حضرة خليفة المسيح عن السبب الذي جعله يأمر بأن يتولى صاحبزادة إمامة الصلاة في وجود من هو أكبر منه سنا وأكثر منه علما، على ألا يُفصح عمن أثار الاستفسار. وقد تلقى الجواب التالي:

إن القرآن المجيد يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات:١٤). والآن، قل لي من هو بين جميع أفراد الجماعة من هو أكثر تقوى من ميان محمود أحمد. فهل أكلف المولوي محمد علي بإمامة الصلاة وإلقاء خطبة الجمعة؟

* * *

أعلنت الحكومة البريطانية أن الاحتفالات سوف تُقام في دلهي يوم ١٢ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١١ لإعلان تنصيب صاحب الجلالة الملك جورج الخامس إمبراطورا على الهند. ورأى حضرة خليفة المسيح أنها سوف تكون فرصة طيبة لكي يطلب من جلالة الملك الإمبراطور، من خلال سعادة الحاكم العام للهند، أن يمنح المسلمين ساعتين يوم

الجمعة كي يتمكنوا من أداء صلاة الجمعة. فكتب مذكرة بهذه المناسبة، وأعلن عن ذلك في أول يوليو (تموز) ١٩١١، فقال:

إن يوم الجمعة يوم مبارك في الإسلام، ويعتبره المسلمون يوم عيد أسبوعي. وحضور صلاة الجمعة في المسجد يعتبر فرضا فيه، بل إن حضور صلاة الجمعة أهم من حضور الصلاة في يومي العيد الآخرين، كما جاء في القرآن المجيد: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ (الجمعة:١٠). وهذا هو السبب الذي من أجله يُعتبر يوم الجمعة يوم عطلة في جميع البلاد الإسلامية منذ نشأة الإسلام. وفي الهند أيضا كان يوم الجمعة يوم عطلة لعدة قرون. فالآية المذكورة لا تسمح بأداء صلاة الجمعة بصفة فردية. وإنما من المفروض أن يحضر الناس في المساجد، ويستمعوا للخطبة ويشتركوا في صلاة الجماعة.

إن يوم الأحد قد اعتُبر يوم عطلة بسبب دين الحاكم، والأعمال الحكومية لا تسمح بيومَي عطلة في الأسبوع. وعلى هذا ينبغي اقتراح أمر يحقق رغبة المسلمين بغير خلق أي مصاعب إدارية. والطريق لذلك يكون إما بإغلاق جميع المكاتب والمحاكم والمدارس والكليات وخلافه لمدة ساعتين في وقت صلاة الجمعة، أو منح الموظفين والطلبة المسلمين إذنا بالغياب لمدة ساعتين للاشتراك في صلاة الجمعة. ويمكن إصدار منشور بهذا الخصوص للإدارات المختلفة.

لقد أعددنا مذكرة بهذا الشأن لتقديمها للحاكم العام. ولكن لما كان الهدف مشتركا مع جميع المسلمين، فإننا نعتبر أنه من الضروري قبل تقديم هذه المذكرة، أن تنشر محتوياتها لعامة المسلمين، والصحف، والجماعات، حتى يقوموا بتأييدها من خلال القرارات والإعلانات والمقالات وغير ذلك. حتى تتخذ الحكومة الإجراءات اللازمة لتنفيذه إذا اقتنعت بضرورة تنفيذ هذا الاقتراح. ونحن نرى أنه لما كان هذا الأمر يهم جميع المسلمين، فإن المذكرة ينبغي أن تُرفع للحاكم العام وهي تلقى التأييد العام من المسلمين. وليس لدينا أي رغبة في الاستئثار بتقديم هذه المذكرة. ولكن لما كان الله تعالى قد ألهمنا أن نقوم بهذا العمل، فإننا قمنا بإعداد هذه المذكرة. فإذا كانت أي جماعة إسلامية أو أي هيئة مسلمة تعترض عليها لمجرد أننا اقترحنا تقديمها، فإننا على استعداد أن ننسحب بكل سرور، على أن توجد طريقة أخرى لتقديم الاقتراح للحكومة.

وقد صدر اقتراح من عليكرة أن تُقدم المذكرة باسم الحزب الإسلامي الهندي الذي يمثل جميع المسلمين في الهند. وقد أعطى حضرة خليفة المسيح موافقته على ذلك. وقامت الحكومة بمنح المسلمين هذا الحق بناء على هذه المذكرة.

الفصل السادس عشر

النصائح الأخيرة

عُقد المؤتمر السنوي للجماعة في ٢٦ إلى ٢٩ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١١، وقد شرّف حضرة خليفة المسيح المؤتمر وتحدث فيه لمدة ساعتين ونصف بعد ظهر يوم ٢٧ ديسمبر، وبدأ بقوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۞ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۞ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران:١٠٣-١٠٦)

وخلال حديثه أكد على أهمية العديد من الأمور التي يمكن تلخيصها فيما يلي:

ما هو واجبكم نحو الله تعالى؟ هو أنه ينبغي عليكم أن تؤمنوا بالعقائد الصحيحة، وأن يتفق سلوككم مع ما تؤمنون به، وأن تتمسكوا بأهداب التقوى. إن التقوى تحفظ المرء من المعاناة وتمنح الاطمئنان، والإنسان التقيّ ينجو من جميع المكاره. إن

الله تعالى يحبه ويرزقه من حيث لا يحتسب، وبأسلوب لا يتصوّره ولا يخطر على باله. ويسمع الله لأدعيته وينصره على أعدائه الذي يصيبهم الدمار. كما يفتح الله تعالى أبواب المعارف الربانية للإنسان التقي. ولهذا فإن أول ما أنصحكم به هو: كونوا أتقياء، كونوا أتقياء، كونوا أتقياء من أجل الله تعالى. كونوا مطيعين بحق لله عَزَّ وَجَلَّ، ولتكن خاتمتكم وأنتم في طاعة الله، وإن مثل هذه الطاعة إنما هي فضل من الله. إن إبراهيم أبو الأنبياء، نال جميع البركات بسبب هذه الطاعة، كما جاء عنه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة:١٣٢). ولذلك، إذا أردتم أنتم أيضا أن يُنعم الله عليكم بالبركات الإلهية، فكونوا أتقياء. إن التقوى الحقيقية تنبت في المسلم الحقيقي، ولذلك كونوا مسلمين بحق، وموتوا مسلمين.

ثم عليكم أن تتحدوا جميعا، وبقوة اتحادكم تتمسكوا جميعا بحبل الله ولا تتفرقوا. وسوف أتلو عليكم الآية الكريمة مرة أخرى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾، أي تمسكوا بقوة بحبل الله، جميعا، ولا تتركوه يفلت من أيديكم أبدا. وحبل الله في الإسلام هو القرآن المجيد. إن الآرية والبراهما والسناتانيين والمسيحيين والملحدين والوثنيين كلهم يجذبون هذا الحبل بكل قوتهم ويبتغون أن ينتزعوه ناحيتهم. ومن ناحية أخرى فإنكم تعلنون أنكم تتمسكون بحبل الله

هذا، فلا تتركوه بغير دليل، بل اجمعوا أمركم ووحدوا قوتكم وتمسكوا به بكل قوة لئلا ينتزعه أعداؤكم منكم. والتمسك به يعني أن تتخذوا من القرآن المجيد دستورا ومرشدا. وكل جانب من جوانب حياتكم ينبغي أن يخضع له. وجميع أموركم، وكل حركة من حركاتكم، وكل سكونكم، ينبغي أن ينتظم بحسب ما يأمر به كتاب الله هذا، الذي هو نور شافٍ. إنني أبلغكم مرة أخرى بأمر الله فاستمعوا إليه جيدا وأنصتوا له بانتباه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾. انتبهوا! لا تتفرقوا! هل تعلمون ماذا ستكون النتيجة إذا ما تفرقتم؟ إن هذا الحبل سوف ينسل من أيديكم وتفقدون كل قوتكم، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ (الأنفال:٤٧). سوف تتمزقون، وسوف تتبدد قوتكم، وسوف يستطيع أعداؤكم أن يتغلبوا عليكم.

اسمعوني جيدا! إنني خليفة المسيح، وقد جعلني الله تعالى خليفة. لم يكن لديّ أي رغبة على الإطلاق أن أكون خليفة، ولكن.. الآن، بعد أن ألبسني الله هذا الرداء، فإنني أمقت بشدة كل نزاع وشقاق، ولا أريد لكم أن تقعوا ضحية النّزاع والشقاق، بل أود أن أزيل كل أسباب النّزاع والشقاق. إنكم لا تتصورون كم تؤلمني فكرة وجود شقاق في الجماعة. إنكم لا تشعرون بهذا الألم، ولا يمكن لكم أن تتخيلوه. إنني أتمنى، وهو أمر يتوقف بالطبع على فضل الله تبارك وتعالى، أن لا أسمع بتاتا عن وجود أي شقاق أو انقسام بينكم، وأن أرى بعيون

رأسي أنكم تقومون بتطبيق عملي للأمر الإلهي: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُوا﴾.

إنني أكرر لكم، وليبلغ الحاضر منكم الغائب، تجنّبوا الشقاق. بعد وفاتي سوف تواجهون أسبابا عديدة للنّزاع. لعلكم تتصوّرون أنني قد أصبحت خليفة بسهولة مثل أبي بكر، ولكنكم لا تتصورون حقيقة الواقع، ولا يمكن لكم أن تتخيلوا مقدار ثقل المسؤولية التي وُضعت على كاهلي، ولا مقدار القلق الذي تسببه لي. ولولا خالص فضل الله تعالى لما استطعت أن أتحمل هذه المسؤولية. إن أحدا منكم لا يستطيع أن يقدّر حجم هذه المسؤولية، ناهيكم أن يقدر على تحملها. هل يمكن لمن عليه أن يرعى شؤون مئات الألوف أن ينام براحة واطمئنان؟

إنني أقف هنا في هذا المسجد، وأحمل القرآن المجيد في يدي، وأُشهد الله تبارك وتعالى أنني لم يكن لديّ أدنى رغبة في أي وقت من الأوقات أن أكون إماما روحيا، ولكن لا يعلم أحد تدبير الله، فهو يفعل ما يريد. إنه سبحانه وحّد بينكم جميعا على يديّ، وهو بنفسه الذي كساني ثوب الخلافة وليس أي واحد منكم، ومن واجبي أن أحافظ عليها وأحترم مقامها. وأنا لست راغبا في أي مال منكم أو أي شيء آخر، ولا أكترث لشيء، وسواء عندي إن حيّاني أحدكم أم لم يحيني. وحتى شهر أبريل (نيسان) الماضي كنت أرسل بجميع الهبات

المالية التي ترسلونها لي إلى المولوي محمد علي، ولكن يبدو أن شخصا ما قد خدعه وقال إن هذه الهبات المالية تخص صدر أنجمن، وأنه بصفته سكرتير أنجمن هو الوصي الشرعي على تلك الأموال. وعندئذ توقفت عن إرسال هذه الأموال إليه وذلك من أجل الله تعالى، ولأرى ماذا سيفعلون إزاء ذلك. إن أولئك الذين تخامرهم مثل هذه الظنون مخطئون، كما أنهم آثمون لعدم احترامهم الخليفة، وينبغي عليهم أن يتوبوا إلى الله. إنني أكرر: عليهم أن يتوبوا إلى الله، وإن لم يتوبوا إلى الله سيكون مآلهم السوء.

والآن فإني أعزل الهبات التي تُهدى لشخصي وأقوم بإنفاقها في سبيل الله. وليكن معلوما أنني لا أعتمد على أحد منكم من أجل احتياجاتي الشخصية ولا من أجل حاجات أفراد أسرتي. فالله تعالى لم يتركني قط لأعتمد على أحد سواه؛ فهو يرزقني بما يكفيني من كنوزه الخفية. كذلك فأنا لا زلت قادرا بفضله تعالى على ممارسة المهنة التي أنعم بها عليّ. كونوا على يقين من ذلك، وها أنا أكرر لكم أنني لست بحاجة إلى أموالكم، ولا أطلب منكم شيئا. فإن أرسلتم إليّ مالا فإني أنفقه في سبيل الله تعالى، كما أراه مناسبا. وعلى هذا، فما الذي يدعوني للتطلع لمنصب الإمامة؟ إن الله يفعل ما يريد، ولا يستطيع أحد منكم ولا غيركم أن يفعل شيئا إزاء ذلك. وعلى هذا فالأَوْلى بكم أن تروّضوا أنفسكم على احترام وقبول تدبير الله تعالى؛

فهذا هو السبيل لكسب رضاه. وهذا أيضا حبل الله الذي وحّد بين جموعكم المشتتة، فاعتصموا به.

ينبغي عليكم أن تعلموا أنكم لا تملكون سُلطة عزل الخليفة. إذا رأيتم فيّ شيئا تظنونه عيبا أو نقيصة، فبيّنوه لي باحترام. إن الله هو الذي يختار الخليفة؛ وليس هذا من عمل الإنسان. إن الله هو الذي جعل آدم عليه السلام خليفة، وأيضا داود عليه السلام، وهو الذي يقيم الخليفة حسب وعده في سورة النور ٥٦: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾، وهو جعلكم جميعا خلفاء أيضا. فإن كنت قد أصبحت خليفة، فهذا فعل الله تعالى بحسب حكمته عز وجل ولفائدتكم ومصلحتكم. ولا يستطيع أحد أن يعزل الخليفة الذي اختاره الله، ولذلك فليس لأحدكم السلطة ولا القوة على أن تعزلوني. فإذا أراد الله سبحانه أن يعزلني فإنه سوف يتوفاني، فالأوْلى بكم أن تتركوا هذا الأمر في يد الله تعالى؛ فليس لكم حق العزل. وأنا لست مدينا لأحدكم بشيء، ومن يزعم منكم أنه قد جعلني خليفة فهو كاذب. إنه يسيئني كثيرا أن أسمع أن هذا هو عهد الدساتير والبرلمانات؛ وأن إيران والبرتغال وتركيا قد أقاموا برلمانات. وأنا أؤكد لكم أن من يعتبر هذه الجماعة برلمانية ودستورية فينبغي عليه أن يتوب من خطئه. فأي أمن أو طمأنينة تحسبون أن إيران وغيرها قد جنت من البرلمانات؟ إن الكثيرين أصابهم الدمار تحت حكم محمد

علي شاه، ويتلقى أتباعه الإنذارات. وهل استطاع الأتراك أن يناموا في أمان واطمئنان بعد أن أقاموا برلمانا؟

إنني أذكّركم مرة أخرى بأنه قد جاء في القرآن المجيد بكل وضوح أن الله تعالى هو الذي يُعيّن الخلفاء. وعندما اختار آدم قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣١). وقد تساءل الملائكة عن ذلك، ولكن ما الفائدة التي جنوها من هذا التساؤل؟ اقرأوا القرآن وانظروا. فإن كان هذا هو حال الملائكة الذين اضطروا إلى الاعتراف: ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ (البقرة:٣٣)، فمن تكونون أنتم حتى تنتقدوني؟ إن الأوْلى بكم أن تنظروا في المرآة. إنني أذكر جيدا أن شخصا ما قال: لقد أقيم برلمان في إيران، وهذا هو عصر الدساتير. إن مثل هذه المشاعر منافية للولاء والاحترام. وأولئك الذين تخالجهم مثل هذه الظنون قد أرتهم غيرة الله تعالى نتائج هذه الدستورية في إيران نفسها. ولذلك أكرر بأن عليهم أن يتوبوا فورا الآن.

إنني أتلقى أموالا وملابس من أجل اليتامى والفقراء. وأبعث بهذه الأموال إلى المولوي محمد علي، عملا بقوله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ (الأنعام:١٥٣). وأحيانا أتسلم بعض الملابس الثمينة. وقد قلت لزوجتي أن تبيع هذه الأشياء الثمينة، وبثمنها تقوم بتجهيز بعض الملابس ذات القيمة المتوسطة، وذلك حتى يستفيد منها عدد أكبر ممن يستحقون المساعدة. وقد سألتني زوجتي ما إذا كانت تستطيع أن تشتري بعض

هذه الملابس الثمينة، فقلت لها إنها لا تستطيع ذلك، وإنما من له حق شراء هذه الأشياء هم النساء اللواتي لا يرتبطن بنا بأي صلة قرابة. وكثيرا ما يحدث أن تتزوج بعض النساء الفقيرات، وينبغي أن يتوفر لهذه النسوة بعض الملابس والحليّ. ثم هناك بعض الأموال التي تصلني كي أنفقها حسب ما أرى، أو بنيّة أن يوهب ثوابها لبعض الذين انتقلوا إلى رحمة الله تعالى. وبعض الأموال تصلني بغرض الصدقة، وبعضها يحدد مرسلوها أنها هدية لشخصي، وأنا أعلم أن هذا يتم بتدبير من الله تبارك وتعالى.

إنني لم أقل كل هذا لأدافع عن نفسي، إذ يعلم الله تعالى أنني لا أعلق أي أهمية على موافقتكم أو عدم موافقتكم أو رفضكم لي. إنما قلت لكم ذلك حتى لا يأثم أحد منكم بأن يقع ضحية سوء الظن. أنا لست في حاجة إلى أموالكم. فقد كنت أتسلم مثل هذه الأموال أثناء حياة المسيح الموعود عليه السلام وكنت أقبلها. إنني أقول لكم هذا لأني أريد لكم الخير. أما أنا فلا يساورني أدنى خوف منكم، فأنا لا أخشى إلا الله تعالى وحده. فلا تسيئوا الظن. إن كنت مخطئا فدعوني في خطئي. فإن لم أكن قد تعلمت شيئا من القرآن المجيد حتى بلغت ما بلغته من العمر، فماذا يمكن لكم أن تعلموني؟ إن حالتي لا تمكنني من الوقوف لمدة طويلة، فإن أقدامي تؤلمني؛ ومع ذلك فإني أتحدث إليكم واقفا لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يلقي خطبه

واقفا. فأرجو أن تنصتوا لي من أجل الله تعالى، فأنا أبلغكم أوامره هو وليس أمري أنا، حيث يأمر سبحانه: ﴿اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾.

* * *

وأثناء حديثه مع أحد المرضى في ١١ يونيو (حزيران) ١٩١١ قال حضرة خليفة المسيح:

في كل مهنة يمكن تحديد موعد معين لإتمام إنجاز العمل إلا في مهنة الطب. فالبنّاء مثلا يستطيع أن يحدد المدة التي يستطيع أن يتمم فيها البناء؛ والكاتب يستطيع أن يعد بإتمام التقرير في مدة معينة؛ وصانع الملابس يستطيع أن يقول بأنه سوف يسلم الرداء في اليوم الفلاني؛ ولكن الطبيب لا يستطيع أن يقول بأنه سوف يشفي المريض في أي مدة محددة، رغم أن بعض الأطباء الأغبياء يزعمون هذا. إن الطبيب الجيد لا يقدم مثل هذه الدعوى. وفي بعض الأحيان أشتري بعض الأدوية من الصين، ولكني شديد الحرص حتى إني لم أستعمل على مريض أيا من هذه الأدوية التي حصلت عليها بعد جهد كبير وثمن غال، وذلك لأن أحدا لم يخبرني بعد عن نتائج خبرته السابقة في استعمالها أو طرق استعمالها. كذلك فإني لا أصف لمريض دواء ولا عشبا لا يسهل الحصول عليه.

كان الشيخ رحمة الله من لاهور قد تلقى وعدا من المسيح الموعود عليه السلام بأن يضع الحجر الأساسي لبناء كان يريد الشيخ إقامته في لاهور، ولكن المسيح الموعود انتقل إلى جوار ربه قبل أن تحل الظروف المناسبة.

وفي يونيو (حزيران) ١٩١٢ طلب الشيخ رحمة الله أن يتفضل حضرة خليفة المسيح بتنفيذ ما وعد به المسيح الموعود عليه السلام، وقد تفضل حضرته بالموافقة. فذهب إلى لاهور في ١٥ يونيو، وقام بمراسم إرساء الحجر الأساسي بعد أن ألقى كلمة قال خلالها:

> إن سيدي ومحسني كان قد وعد الشيخ المحترم أن يضع بيده الكريمة حجر الأساس للمبني الذي يريد أن يبنيه، ولكن شاء الله تعالى أن يقوم خادمه بتنفيذ وعده. وقد كتب إليّ الشيخ المحترم كي أحضر لهذه المناسبة. ورغم أني لست على ما يرام من الناحية الصحية، وأعاني من بعض الآلام في أطرافي، إلا أني كنت في شوق للوفاء بوعد سيدي الحبيب.
>
> إن هناك الكثير من المباني الجديدة قد أقيمت حول هذه الأرض، ولا يزال بعضها تجري إقامته، ولكن لنا اهتمام خاص بهذا البناء المزمع إنشاؤه، من ناحية شخصية ومن ناحية الجماعة. أما الاهتمام الشخصي فهو أن حضرة المرزا المحترم رحمه الله قد وعد بأن يرسي له الحجر الأساس، وكان مقدّرا لخادم من خدامه أن ينفذ الوعد. وأما اهتمام الجماعة فهو بسبب أن الجماعة أيضا لها نصيب في هذا البناء. وينبغي على أفراد الجماعة أن يدعوا مخلصين لكي تكون ثمرة هذا البناء جيدة، وأن يتمتع الذين يقيمون فيه والذين يتولون إدارته بالصلاح والتقوى ومحبة الخير.

لقد قلت إن الجماعة كلها لها نصيب في هذا المبنى. وأرجو منكم جميعا أن تدعوا بكل حرارة أن يبارك الله هذا المبنى، وأن يحبنا أبناء الشيخ المحترم كما يحبنا هو. إنني سوف أضع الآن حجرا واحدا، وبعد ذلك سوف يضع حجرا كل من صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد، وبشير أحمد، وشريف أحمد، ونواب محمد علي خان.

كان المسجد الذي يقع في مباني الأحمدية بلاهور قد تم بناؤه بعد الزيارة السابقة لحضرة خليفة المسيح إلى لاهور، ولذلك حالما وصل حضرته إلى لاهور في ١٥ يونيو توجه على الفور إلى ذلك المسجد، وصلى فيه ركعتين، ودعا الله طويلا لأولئك الذين اشتركوا في بنائه ولذريتهم. وفي اليوم التالي تحدث إلى عدد كبير من أفراد الجماعة، وقال خلال حديثه:

إن الله تعالى بخالص فضله ورحمته جمعكم معا بعد رسول الله ﷺ من خلال مليكنا المسيح الموعود عليه السلام، وبعد وفاته حفظكم على يديّ من الفُرقة والتشتت. فقدّروا ذلك الفضل الإلهي حق قدره، ولا تنخرطوا في مجادلات سخيفة وتطلعات عقيمة. إنني لا أتصور أي فائدة روحية أو أخلاقية يمكن أن تجنوها من مثل هذه المناقشات. إن الله تعالى هو الذي يجعل من يشاء خليفة، وهو الذي يقضي بأن تخضعوا له. وهي حماقة من أولئك الذين ينتقدون فعل الله وإرادته. لقد قلت لكم مرارا وبيّنت لكم من القرآن المجيد أن الناس ليسوا هم الذين يجعلون أحدا خليفة، إنما هو الله سبحانه الذي يختار الخلفاء.

من جعل آدم خليفة؟ يقول تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣١)، وقالت الملائكة: إنه سوف يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ولكن ماذا جنوا من هذا القول؟ تستطيعون أن تقرأوا في القرآن المجيد أهم في النهاية كان عليهم أن يخضعوا. فإن كان أحد يجد فيّ أي خطأ، حتى ولو كان ذلك الشخص ملاكا، فإني سأقول له: إنه من الأفضل لك أن تخضع لخلافة آدم. فإذا رفض تكبرا وسلك سبيل إبليس، فعليه أن يتذكر ماذا جنى إبليس من معارضته لآدم. إني أكرر لكم مرة أخرى، إذا اعترض أحد على خلافتي، حتى ولو كان متصفا بصفات الملائكة، فإن طبيعته الطيبة سوف تقنعه بأن يخضع لآدم، ولكن إن كان إبليسا، فإنه سوف يخرج من هذه الصحبة الطيبة.

كذلك كان داود عليه السلام خليفة أيضا، كما جاء في الكتاب العزيز: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾ (ص:٢٧). فهو أيضا جعله الله خليفة، وكان معارضوه من المتمردين، واستطاع بعضهم أن ينفذوا إلى حصنه، ولكن من ذا الذي ينجح في معارضة من جعله الله خليفة؟

ثم جعل الله أبا بكر وعمر خلفاء، رضي الله عنهما. ولا زال الرافضة يقدحون في خلافتهم، ولكن ألا ترون أن الملايين من الناس يترحمون عليهم ويدعون لهم بالخير والبركات؟ وأنا أُشهد الله تعالى أنه جعلني خليفة. إن هذا المسجد قد سر قلبي،

وقد دعوت طويلا وبحرارة لجميع أولئك الذين اشتركوا بطريق أو بآخر في بناء هذا المسجد، وأنا على يقين بأن دعواتي قد بلغت إلى العرش. ها قد وصلتُ إلى هذا البلد ووقفت في هذا المسجد الذي أثلج قلبي وأبهج فؤادي، فإني أعلن أيضا أنه كما جعل سبحانه آدم وداود وأبا بكر وعمر خلفاء، كذلك فإنه هو أيضا الذي جعلني خليفة.

فإن قال أحد إن أنجمن هي التي جعلتني خليفة فإنه لا يقول إلا كذبا. إن مثل هذه الأفكار تقود إلى الدمار، وعليكم أن تكونوا على حذر منها. استمعوا جيدا وأنصتوا مرة أخرى، ليس من إنسان ولا أنجمن قد جعلني خليفة، ولا أنا أعتبر أن أي أنجمن لديها السلطة أن تجعل أحدا خليفة. وأنا لم تجعلني أي أنجمن خليفة، ولا أنا أقيم وزنا لأي أنجمن تفعل هذا. ولن أهتم حتى بأن أبصق على أي أنجمن تجحدني، فليس لأحد القدرة على أن يسلب مني هذا الرداء الذي كساني الله به.

من هو ذاك الذي يظنون أنه يستحق أن يكون خليفة؟ هناك العزيز محمود، ابن سيدي ومحسني المسيح الموعود عليه السلام. وهناك أيضا ختنه نواب محمد علي خان، وحموه مير ناصر نواب، وزوجه أم المؤمنين. هؤلاء هم الأشخاص الوحيدون الذين قد يُقال إن لهم الحق في الخلافة، ومع ذلك فمن الغريب أن أولئك الذين يدّعون بأن حق هؤلاء قد انتُهك، لا يتفكرون في أن جميع هؤلاء يدينون لي بالطاعة والولاء، وهم لم يتقدموا لأولئك المعترضين بطلب لنوال الخلافة. إن أبناء المسيح

الموعود عليه السلام وجميع أقاربه الأقربين كلهم مخلصون لي. والحق أقول لكم إنه ليس من أحد يطيعني بإخلاص كما يطيعني أعزائي محمود وبشير وشريف، وكما يطيعني مير ناصر نواب ونواب محمد علي خان. وأنا لا أقول هذا إرضاء لأحد منهم، وإنما أقوله لأنه حقيقة، فهم يطيعونني رغبة منهم في نوال رضا الله تعالى. وقد سمعتُ أم المؤمنين تؤكد عدة مرات أنها تعتبر نفسها بمثابة خادمة لي. ميان محمود قد كبر الآن ويستطيع أن يخبركم بنفسه أنه يطيعني بإخلاص. وقد يزعم أحد أولئك المنتقدين أنه لا يطيعني بإخلاص، ولكني أعلم يقينا أنه يطيعني أكثر من أي واحد منكم. إن جميع أفراد عائلة مرزا صاحب عليه السلام يطيعونني كما كان عليّ وفاطمة والعباس يطيعون أبا بكر وأشد، رضي الله عنهم أجمعين. إن كل فرد منهم يدين بالولاء والإخلاص الصادق لي حتى إني لا أتصور أن أحدا منهم يمكن أن يحمل لي أي خاطر سيئ.

اسمعوا، إنني لم أرغب مطلقا أن أكون خليفة. وقبل أن أكون من تلاميذ حضرة المرزا المحترم كنت أرتدي ملابسي بنفس الشكل الذي أرتديه اليوم. وقد حظيت بصحبة أصحاب العلا والسلطان، وكنت أرتدي ملابسي بنفس الأسلوب. وبعد أن صرت تلميذا لحضرة المرزا عليه السلام لم أغير أسلوبي في الحياة. وبعد وفاته فعل الله تعالى ما شاء، ولكن لم يخطر على بالي قط أني سوف أكون خليفة، غير أن الله تعالى أراد ذلك بخالص

حكمته، فجعلني أماما لكم وجعلني خليفة، كما جعل أولئك الذين تظنون أنهم أولى مني بالخلافة، مطيعين لي. والآن، من أنتم لتعترضوا على ذلك؟ إن كان لا بد لكم أن تتصيدوا الأخطاء، فاذهبوا وتصيدوا الأخطاء لله تعالى، ولكن كونوا على حذر من العقاب الذي يحل بكم لهذه الوقاحة والازدراء. إنني لا أجامل أحدا، ولا أرغب حتى في تلقي تحياتكم، ولا أنا في حاجة لهداياكم أو عطاياكم. عسى أن ينجيني الله تعالى من مجرد التفكير في نوال هذه الأمور. لقد أفاض الله عليّ من كنوزه الخفية، من حيث لا يعلم إنسان ولا أي مخلوق. إن زوجتي وأولادي لا يعتمدون على أحد منكم، فالله الكريم هو الذي يرزقهم. ماذا يمكن لكم أن ترزقوا أحدا؟ إن الله هو الغني وأنتم الفقراء.

إن على جميع الحضور هنا أن يسمعوني جيدا، وعلى الحاضر أن يبلغ الغائب، إن أولئك الذين يزعمون أن حق الخلافة قد سُلب من هؤلاء الذين هم أحق بها، إنما يسلكون مسلك الرافضة، وعليهم أن يتخلوا عن هذا الفكر الفاسد. لقد أقام الله تعالى بيده الخليفة الذي يعلم سبحانه أنه يستحق الخلافة، فمن يخالفه يكون كاذبا فاسقا ومتمردا. كونوا ملائكة واخضعوا وأطيعوا؛ ولا تكونوا مثل إبليس. إن إثارتكم الجدل حول الخلافة له سمة الرفض. وعليكم أن تشكوا إلى الله تعالى أن رجلا من سكان "بهيرة" قد أصبح خليفة. ثم هناك الذين يتساءلون ويقولون: ما الذي يفعله الخليفة؟ ويقول البعض: إنه

يقوم فقط بتعليم الأولاد. ويقول البعض: إنه مغرم بالكتب، وهو دائم الانشغال بالكتب. إنكم قد تجدون فيّ ألف خطأ، وكل محاولاتكم لتصيد الأخطاء ستتوجه إلى الله تعالى الذي جعلني خليفة. وهؤلاء الذين يتصيدون الأخطاء إنما هم مثل الرافضة الذين يصرون على تصيد الأخطاء لأبي بكر وعمر رضي الله عنهم.

المسألة الأخرى التي تختلفون عليها وتثيرون عنها النّزاع هي ما هو موقف معارضينا؟ فاسمعوا الآن جيدا. إن كلمة الله تعالى قد بينت في الكتاب العزيز المبادئ التي تتعلق بقبول أو رفض نبي من الأنبياء. وحينما يبعث الله نبيا، لا يكون هناك أي صعوبة في تحديد موقف أولئك الذين يؤمنون به وأولئك الذين يكفرون به. وبغير أي تحايل على قوانين الشريعة، فإن الله تعالى قد بيّن بوضوح مبادئ الكفر والإيمان واتخاذ الشركاء لله. لقد كان هناك أنبياء في الماضي، وفي كل حالة كان هناك الذين آمنوا بهم والذين كفروا. فهل كان لديكم أي مشكلة فيما يتعلق بهم، وهل كان لديكم أي مشكلة فيما يتعلق بتصنيف أولئك الذين لم يؤمنوا بهم؟

إنكم تعلمون جيدا مبادئ الإيمان والكفر. وقد كان حضرة المرزا رسول الله، ولو لم يعلن عن نفسه أن نبي لكان مذنبا برفضه الحديث النبوي الشريف المذكور في صحيح مسلم، الذي ينص على أن الشخص الموعود بمجيئه يكون نبيا. وعلى

هذا فإن موضوع الإيمان به أو الكفر به واضح تمام الوضوح. إن كان من يرفض الإيمان به يقول عن نفسه إنه مسلم، فهو يكون أقرب إليكم كما يكون النصارى أقرب إليكم من اليهود. وبنفس الطريقة، فإن أولئك المسلمين الذين يرفضون حضرة مرزا صاحب يكونون أقرب إلينا من غيرهم. وكل من يؤمن بحضرة المرزا المحترم ويرفض قبولي كخليفة فهو مثل الرافضة الذين يرفضون صحابة الرسول ﷺ وخلفاءه. إن الأمر واضح تمام الوضوح، ولكن السفهاء يشغلون أنفسهم بِنزاعات لا جدوى منها.

ثم بعض الأصدقاء يقولون إن أفراد الجماعة في لاهور يعيقون الخلافة. لقد درست القرآن الكريم والحديث الشريف على أيدي أساتذة معلمين، وأنا أؤمن بهما بكل إخلاص. ويغمر قلبي حب القرآن المجيد والحديث الشريف، كما أني أنفق ألوف الروبيات على اقتناء كتب السيرة والتاريخ الإسلامي. وكل هذه الدراسة قد أكدت إيماني بأن أحدا لا يستطيع أن يعوق ما يشاء الله تعالى أن يحققه. لقد تحدثت عن آدم وداود عليهما السلام كخلفاء، وأشرت إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما اللذين خلفا سيدنا ومولانا ﷺ كخلفاء. وقد قلت لكم إنه كما كان أبو بكر وعمر خلفاء، فقد جعلني الله تعالى خليفة بنفس الأسلوب بعد حضرة المرزا عليه السلام. ولكن هنا شيئ آخر. يقول تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:١٥). فأنتم أيضا

جعلكم الله تعالى خلفاء في الأرض، علما بأن هذا نوع آخر من الخلافة. وعلى هذا فإن الله تعالى وحده هو الذي يجعل الخلفاء، ولا يستطيع أحد أن يعوقهم.

إن لاهور ليست بلدتي، وإنما بلدتي هي "بهيرة"، والآن هي قاديان. وأقول لكم إنه لا أحد في لاهور يعوق خلافتي ولا يستطيع أحد أن يعوقها. لا تسيئوا الظن بأحد. إن كنتم مؤمنين فعليكم أن تكونوا شاكرين لفضل الله تعالى، وأيضا تمسّكوا بالصبر والثبات. وبالرغم من مرضي الذي يجعل من الوقوف أمرا مؤلما لي، فإني أنتهز هذه الفرصة لكي أطبع في أذهانكم أن الخلافة ليست أمرا يؤخذ ببساطة. إنكم لن تستفيدوا شيئا من هذه المجادلات. فلن يجعلكم أحد خليفة، ولن يكون أحد خليفة أثناء حياتي. وعندما أموت، فإن ذلك الذي يختاره الله تعالى للخلافة سوف يتقدم وسوف يقيمه الله بنفسه ليكون خليفة. إنكم أقسمتم على يديّ عهد البيعة، فلا تتخيلوا أنفسكم في دور الخليفة. إن الله تعالى هو الذي جعلني خليفة، ولا يمكن عزلي بناء على رغبتكم، وليس لأحد القدرة على أن يعزلني. فإذا تماديتم في غيّكم بفرض أنفسكم على الآخرين، فتذكروا أن لديّ الكثيرين من أمثال خالد بن الوليد الذين سوف يعاقبونكم باعتباركم خونة.

اسمعوني جيدا. إن أدعيتي تصل إلى عرش الله تعالى. ويحقق ربي جميع مرادي حتى من قبل أن أدعوه. فإن نازعتموني فإنكم في

الحقيقة تنازعون الله تعالى، فكفّوا عن ذلك وتوبوا. وتحمّلوا قليلا بالصبر، فمن سيأتي بعدي سوف يتعامل معكم بما يشاء الله.

إن بعض الأمور التي تختلفون عليها قد حكم فيها حضرة المرزا المحترم، فمن يخرج على حكمه لا يكون أحمديا. وأما عن الأمور التي لم يحكم فيها، فلستم في حل من أن تتفلسفوا فيها بغير إذني. فضعوا أقلامكم وكفوا ألسنتكم عن مثل تلك الأمور إلى أن يطرقها الخليفة، أو إلى أن يظهر خليفته. وعلى هذا، لا تحاولوا أن تسهبوا في بحث أمور سكت عنها إمامنا وقائدنا، وإلا فإن جميع كتاباتكم سوف تكون بلا جدوى. وليس لكم أن تحتجوا بعذركم الواهي بأنكم اضطررتم أن تستعملوا أقلامكم لأني لم أستعمل قلمي. أقرأوا إذن كتبي: نور الدين، تصديق البراهين الأحمدية، فصل الخطاب، إبطال ألوهية المسيح، وسوف تدركون أنني أعرف جيدا كيف أكتب. إنني مقيد فقط بحكمة الله تعالى. نعم. إن الله تعالى هو الذي يكبح جماحي.

وها أنا أنصحكم مرة أخرى. ليكن لديكم بعض الاحترام لشيبتي ومرضي. وتفكروا ما إذا كان من الممكن أن يؤدي بكم نزاعكم إلى أن تكونوا أقرب إلى الله تعالى، فإن لم يكن الأمر كذلك، فانصتوا لما أقوله لكم، واسعوا لكي تنمّوا في قلوبكم الحب لبعضكم بعضا. واسلكوا بالشكل الذي يجعلني سعيدا بكم كما سعدت برؤية هذا المسجد عند زيارتي لهذا

البلد. عسى أن يقضي الله تعالى بأن أسمع عنكم عند رحيلي أنكم متحدون في محبة وإخاء لبعضكم البعض، واستعينوا دوما بالدعاء، وسوف أستمر أنا أيضا في الدعاء لكم.

* * *

كان حضرة خليفة المسيح كثيرا ما يروي الحادثة التالية، التي كانت مثالا لتوضيح أسلوبه العقلاني في المناقشة. قال:

دعاني أحد غير الأحمديين إلى الغداء، وعندما وصلت وجدت أنه قد دعا أيضا مولويا آخر غير أحمدي كان جالسا بجواري. وتحدث معي بمحبة واحترام عن كثير من أمور العقيدة، وقال إنه يعتقد بوفاة المسيح عليه السلام وفاة طبيعية، وأظهر الكثير من الاحترام لحضرة المرزا المحترم واعتبره رجلا صالحا، وكان على اتفاق معه في جميع الأمور، وأنه كان بمثابة تلميذه، ولكنه يريد أن يستفسر مني عن نقطة صغيرة. ماذا يُعتبر الشخص الذي لم يقبل دعواه؟ فقلت له: هناك طريق سهل للإجابة على هذا السؤال. نحن لدينا موسى عليه السلام ولدينا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لدينا مسيح في الأمة الموسوية، ولدينا مسيح في الأمة الإسلامية. وأنت تعلم ماذا يُمكن أن يُعتبر الشخص الذي لا يقبل دعوى موسى عليه السلام، وتعلم ماذا يُعتبر الشخص الذي يُنكر دعوى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. والآن، إن كل ما تعتبر أنه ينطبق على الشخص الذي لا يقبل دعوى المسيح الموسوي، فيمكن أن تطبقه على الشخص الذي لا يقبل دعوى المسيح

الإسلامي. وعند سماع ذلك نادى المضيف على ابنه وقال له: أرجو أن تأمر بتقديم الغداء بسرعة، فهذا أمر ليس من السهل مناقشته معه.

أرسى حضرة خليفة المسيح في ٢٥ يوليو (تموز) ١٩١٢ حجر الأساس للبناء الجديد الذي يحتوي المدرسة العليا لتعليم الإسلام. وقد قال بهذه المناسبة:

لقد قرأت في مكان ما أنه إذا اجتمع أربعون شخصا من المؤمنين ليدعوا الله تبارك وتعالى، فإن الله بفضله يستجيب لدعائهم. وفي هذه المناسبة الطيبة، يوجد أكثر من أربعين من المؤمنين قد اجتمعوا سويا هنا. وقد يكون من بيننا من ارتكب بعض الأخطاء، فعليهم أن يتوبوا ويطلبوا من الله المغفرة. ثم لندعو الله عز وجل جميعا أن يُخرج من هذه المدرسة خدّاما للدين يتميزون بالصلاح والتقوى، وأن يُبعد عن هذه المدرسة أولئك المفسدين الذين يمكن أن يكونوا سببا في إضلال الآخرين، وإذا حدث أن جاء أحدهم إلى هذه المدرسة، فعسى أن يمكنه الله تعالى من التوبة الصادقة. إن هدف هذه المدرسة هو تخريج العلماء الأتقياء الصالحين المخلصين.

وقد اشترك الجميع في الدعاء الصامت لله تعالى.

حدث أن سأل أحد المولويين غير الأحمديين حضرة خليفة المسيح: هل كان حضرة المرزا المحترم عالما واسع المعرفة؟ فكانت إجابته على النحو التالي:

لم يكن حضرته عالما بالمعنى العلمي، فقد عيّن له والده أحد المولويين الشيعة من "بطالا" اسمه كول علي شاه، كان يعلمه في صغره. ولكن الله تعالى أسبغ عليه من المعارف الواسعة ما لم يستطع العلماء الكبار في الهند والبلاد العربية أن يجاروه فيه، أو أن يكتبوا كتبا مثل كتبه التي دوّنها باللغة العربية. لقد كان لديه إيمان عميق يقيني بقوة الدعاء، واستجابة لدعائه أضفى الله تعالى عليه كل ما يحتاجه من المعارف.

كان حضرة خليفة المسيح يؤمن أن هذا سوف يكون هو نفس حال الابن الموعود لحضرة المرزا المحترم ، صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد، الذي تحدث عن تلقيه العلم من حضرة خليفة المسيح فقال ما يلي:

لقد تعلمت القرآن المجيد من حضرة الخليفة الأول للمسيح الموعود في مدة ستة شهور. ولما كان حلقي يتميز بالحساسية، لم يدعني أقرأ النص، وإنما كان يقرأ هو بنفسه ويترجمه لي وكنت أنا أنصت له فقط. وبعد ذلك كان يقدم لي تفسيرا شفهيا لبعض النقاط، وقد أتممت ذلك في شهر. كما حضرت أيضا بعض دروس القرآن المفتوحة التي كان يعقدها للجميع، وكان ذلك هو كل التعليم الذي تلقيته منه. ثم قضى معي بعد ذلك ثلاثة شهور في دراسة كتاب صحيح البخاري، وكان حافظ روشن علي قد زاملني في هذا الدرس. وكان على جانب كبير من الذكاء وكثيرا ما كان يستفسر عن شرح

بعض الأمور، فكان حضرة خليفة المسيح يقدم الشرح المطلوب. وفي مرة أو مرتين سألت أنا أيضا سؤالا وتلقيت الإجابة. وفي المرة الثالثة عندما سألت سؤالا قال حضرته: "ميان، إن حضرة الحافظ شخص له طبيعة المولويين، فهو يسأل أسئلة وأنا أجيب على أسئلته؛ ولكني لن أجيب على أسئلتك أنت. إن ما أعلمه أخبرك إياه، ولا يمكن أن أخبرك بما لا أعلم. إنك عبد لله مثلي، وأنت من أتباع محمد رسول الله ﷺ وأنا كذلك. والدفاع عن الإسلام ليس من واجبي أنا فقط، بل هو من واجبك أيضا. فعليك أن تتفكر في الأمر وتجد الإجابة بنفسك، فلا تسألني". وبعد ذلك لم أتقدم إليه بأي سؤال، وكنت أعتبر أن ذلك كان أقْيَم وأبلغ الدروس التي تعلمتها منه.

كيف يمكن اجتناب الإثم؟ كان هذا هو السؤال الذي حاول حضرة خليفة المسيح أن يجد له جوابا لدي الكثير من الشخصيات الكريمة. كان جواب مولانا محمد قاسم النانوتوي: إن تذكّر الموت يحفظ المرء من الإثم. أما العلاج الذي قدمه شاه عبد الغني المجدّدي فهو: إن الشخص الذي يجعل الله تعالى حاضرا دائما في ذهنه فإنه يحفظ نفسه من الإثم. وقال المسيح الموعود عليه السلام إن الدعاء المستمر لكبت الميول نحو ارتكاب الإثم (الاستغفار) هو ما يحفظ المرء من الإثم. وكان حضرة خليفة المسيح يرى أن مداومة صحبة الصالحين ومداومة الدعاء يقدمان أيضا علاجا ناجحا. وفي حالته هو كان يتبع وسيلة معينة، إذ كان يضع نسخة من المصحف الشريف بحيث تكون دائما أمام عينيه، وذلك كي يراجع

نفسه دائما فينصحها قائلا: إنك تؤمن بهذا الكتاب، ومع ذلك فإنك تميل إلى معصيته. وكان هذا يكبح ميوله، إلى أن يختفي الدافع من فكره. وكان من رأيه أن جميع هذه الوسائل نافعة وصالحة، فبعض الناس يتأثرون بإحداها، وبعض الناس يتأثر بالأخرى. ولكن المهم في الأمر أن يظل المرء يثابر ويواصل محاولاته إلى أن يتحقق له النجاح.

كان المؤتمر السنوي قد عُقد في الأيام من ٢٥ إلى ٢٧ ديسمبر (كانون الأول) ١٩١٢، وقد تحدث فيه حضرة خليفة المسيح فقال:

> عندما تستمر علاقة الإنسان بالله تعالى في تقدم مضطرد، فإن الله يأمر جبريل أن يقيم علاقة معه، فيبدأ في تلقي البركات عن طريق الملائكة. إن مثل هذه الأمور أصبحت نادرة الحدوث. وأنا لا أتحدث عنها من باب الإعجاب بالنفس أو الكبر أو الغرور، ولكني أقدم فقط مثالا للفضل الإلهي. فقد رأيت الملائكة مرارا، وقد ساعدوني في كثير من الأمور بشكل لا يمكن أن يتصوّره أحد. وقد طلبوا مني أن أسجل كيف كانوا يقومون بمساعدتي.

وقد ذكر بعض الشواهد على النجاح الفائق غير العادي الذي حققه صحابة الرسول ﷺ والذي بيّن مدى إفادتهم من صحبة الأبرار، كما أكد أهمية الطاعة والخضوع لله تعالى.

> كونوا حريصين على أداء واجباتكم نحو الله تعالى من جميع النواحي، وفي كل لحظة من لحظات حياتكم، حتى إذا ما جاءكم داعي الموت وجدكم في حالة من الخضوع التام

والإسلام لله تعالى، ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾.

وقد نصحهم بتنمية أواصر المحبة والمودة المتبادلة بينهم، والوفاق والوحدة، كما حثهم على نبذ العداوة والحقد والانقسام.

وقد أنهى حديثه بقوله:

عندما يقول لي أولئك الخاضعون لأهواء الدنيا: نحن الذين جعلناك رئيسا لنا، فماذا ينبغي أن يكون راتبك الشهري؟ فإنني أتوجه إلى الله تعالى وأدعوه: يا رب، إنك لم تجعلني قط أعتمد على أي إنسان، فهل تجعلني الآن، بعد أن اقتربت من نهاية عمري، أن أعتمد على مخلوقاتك! لقد كان سبحانه أكثر فضلا عليّ، ورزقني من حيث لا أحتسب. ولذلك فإن كل ما أطلبه منكم هو: اجعلوا لدينكم الأولوية على الدنيا؛ وانبذوا الطمع، وتخلوا عن الخداع وفعل السوء.

كان يوم ٢٧ ديسمبر يوم جمعة، وفي خطبة الجمعة قال حضرة خليفة المسيح:

إن هذا المسجد (مسجد نور) يحمل اسمي، ولكنه صغير، وينبغي أن يُوسَّع، ولكن من أجل نشر الفضيلة والحق. اجعلوا فيه مدرسة لتعليم القرآن. إن المدرسة العليا لتعليم الإسلام لديها مبان جيدة وتنال منحة حكومية، كما تنال العناية اللازمة؛ ولكن لا يهتم أحد بالمدرسة الأحمدية التي أصابها الإهمال. لقد لفتُّ الأنظار إلى ذلك وتكونتْ لجنة، ولكن لم ينتج عنها أي خطوات عملية.

كان حافظ روشن علي التلميذ الرئيس لحضرة خليفة المسيح، وقد ذكر أن حضرته قد دوّن في إحدى المفكرات بعض الفوائد التي نالها من إقامته في قاديان، وكان إحداها:

> قبل الانتقال إلى قاديان بذلت كل ما في وسعي من أجل أن أكتسب صديقا واحدا على الأقل يحبني فقط من أجل الله تعالى، وأنفقت في سبيل ذلك ألوفا من الروبيات، ولكنني لم أنجح في ذلك. وعندما جئت إلى قاديان، وهبني الله تعالى من فضله مجموعة كبيرة من الأصدقاء، حققوا ما كانت تتعطش إليه روحي، ولم يكلفني ذلك فلسا واحدا.
>
> والفائدة الأخرى التي جنيتها من صحبة حضرة المرزا المحترم هي أن حبي للدنيا قد مات من قلبي تماما. انظروا إلى جميع جوانب حياتي. هل تجدون فيّ ذرة من حب الدنيا؟ إن كل هذا ثمرة من ثمرات فضل الصحبة المباركة لحضرة المرزا المحترم. هناك المثل المعروف جيدا: إن حب الدنيا هو سبب كل خطيئة. وقد نلت هذه البركة من صحبة حضرة المرزا المحترم. وعدم السقوط في حب الدنيا هو الهدف والغرض من جميع التعاليم الربانية، وهو سبب النجاة، ويضفي على الإنسان حياة فردوسية في نفس هذه الحياة الدنيا.

كان الدكتور "باجوان داس كرشتا" ناظرا للمدرسة في "سهارنبور"، وقد قدّم نفسه لحضرة خليفة المسيح في ٢٢ مارس (آذار) ١٩١٣ وأعلن قبوله الإسلام. فنصح حضرته المسلم الجديد على النحو التالي:

لا إله إلا الله يعني أن الله تعالى وحده هو الذي يخلق ويرزق الإنسان جميع حاجياته. فلا أحد سواه يستحق أن يُعبد أو يُعتبر إلها. وعبادة أحد مع الله تعالى أو السجود لأحد غير الله تعالى يُعتبر إشراكا بالله. وبينما يحض الإسلام على وحدانية الله، فإنه يتطلب أيضا الاعتراف بأن محمدا عبده ورسوله. وهذا لأنه في الماضي حين كان يظهر في العالم مبعوث صالح من الله، كان أتباعه فيما بعد يتخذونه إلها، وهذا ما حدث في حالة "رام شندرا" و "كرشنا". كذلك فإن الناس حوّلوا المسيح ابن مريم إلى إله وأطلقوا عليه لقب ابن الله، مع أنه قال: لماذا تدعونني صالحا، ليس أحد صالحا إلا الله وحده. ولذلك فإن الرسول ﷺ، حرصا منه على ألا يتخذه الناس إلها من دون الله، أضاف الإقرار بكونه عبد الله ورسوله إلى كلمة التوحيد: لا إله إلا الله. والجانب الثاني من الإسلام هو العطف على مخلوقات الله تعالى. الزكاة والحج يتضمنان العطف على الناس، والصلاة والصيام تُنمّيان العطف على النفس. هناك الكثير من الفوائد والبركات في الصيام، فهو يدرب المرء على الامتناع عن استعمال الأشياء غير المسموح بها؛ فالمرء الذي يمتنع عن الأشياء المباحة أثناء صيامه، فإنه لإيمانه بالرسول ﷺ سوف يمتنع بالتأكيد عن الأشياء غير المباحة. وعلى هذا فإن خلاصة كلمة الشهادة تعني وحدانية الله تعالى، وأن محمدا هو عبده ورسوله، وأن الصلاة والصيام والزكاة والحج قد فرضت من أجل مصلحة الإنسان نفسه ومصلحة المجتمع ككل. ولكن

ما فائدة نثر الماء على الشخص تعبيرا عن قبوله الدين؟ لقد قال المسيح إن مرور الجمل من ثقب الإبرة أيسر من دخول الغني إلى ملكوت الله.

وقد أنهى حضرة خليفة المسيح كلامه بالدعاء للمسلم الجديد، ووافق على تسميته باسم "عبد الله".

* * *

في خريف وشتاء عامي ١٩١٢ – ١٩١٣ قام صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد بزيارة لمصر والحجاز، وأدّى فريضة الحج، ثم عاد إلى قاديان في ٣ فبراير (شباط) ١٩١٣. وفي صيف ذلك العام، وبعد الحصول على إذن من حضرة خليفة المسيح، قرر أن يبدأ في إصدار جريدة أسبوعية أسماها حضرة خليفة المسيح "الفضل". وقد تم نشر العدد الأول في ١٩ يونيو (حزيران) ١٩١٣. وفيما بعد، أصبحت هذه الجريدة جريدة يومية، وظلت لمدة تقرب من نصف قرن وإلى الآن تُعتبر الجريدة الرسمية للجماعة الإسلامية الأحمدية*.

أصابت حضرةَ خليفة المسيح نوبةٌ من الحمّى في يوم ٢٥ يونيو، وفي اليوم التالي، رغم أنه كان لا يزال ضعيفا إلا أنه أعطى الدرس اليومي للقرآن المجيد، وفي نهايته قال:

عندما داهمني المرض أحسست بأنها قد تكون النهاية، والآن يخالجني نفس الشعور هذه المرة. وقد قمت بأداء ركعتين قرأت في الركعة الأولى

---

*كان ذلك عند نشر هذا الكتاب باللغة الإنجليزية، أما الآن فقد مضى على إصدار الجريدة ما يقرب من قرن. (المترجم)

منهما بعد الفاتحة سورة الضحى، وفي الركعة الثانية سورة الانشراح. ثم انشغلت بتسبيح الله تعالى وبالاستغفار، وبعد ذلك توجهت إلى الله بالدعاء، وأنا على يقين بأن الله قد استجاب دعائي. وسوف أكرره الآن كي تشتركوا جميعا فيه، وهو كما يلي:

لا إله إلا الله العليم الكريم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض، ورب العرش الكريم. اللهم إني أسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك، والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم. اللهم لا تدع لي ذنبا إلا غفرته، ولا همّا إلا فرّجته، ولا حاجة إلا قضيتها يا أرحم الراحمين. يا رب إننا أوذينا بشدة من جميع النواحي، فالإسلام يتعرض لهجوم شديد، والمسلمون لا يبالون، ولا يعلمون كثيرا من أمور الدين، ولا من القرآن الكريم، ولا من أسوة الرسول ﷺ. والعدو يتقدم. اللهم أقم شخصا يكون ذا شخصية مغنطيسية، ولا يكون كسولا، بل يتميّز بالشجاعة العالية، والتصميم القوي، وأن يلجأ دوما إلى الدعاء، ويكون محل رضاك، وعلى معرفة بالقرآن المجيد والحديث الصحيح. ثم أنعم عليه بجماعة يتصف أفرادها أيضا بجميع هذه الصفات. اللهم إن كان لا بد من وقوع الابتلاء فارزقهم الثبات والصبر، ولا تحمّلهم ما لا طاقة لهم به، وبارك فيهم وارعهم كما دعوتك يا رب.

إنني أشعر بأن الله تبارك وتعالى قد استجاب دعائي، فادعوا أنتم أيضا بنفس الدعاء، وكونوا أيضا أنصارا في سبيل الله.

وفي اليوم التالي الذي كان يوم الجمعة، حث المصلين في الخطبة الثانية كما يلي:

> ليس لدي شيء أؤكد أهميته سوى الدعاء، فكونوا مداومين على الدعاء. إنني أحثكم على الدعاء لأنه في مصلحتكم أنتم. أما أنا فلا أريد شيئا منكم، ولا حتى أن تقفوا من أجل التعبير عن احترامكم لي. ولو كنت أريد شيئا منكم لكنت آثما في حق شكر الله تعالى. إن الله عز وعلا أفاض علي من أفضاله بشكل يفوق كل توقع خلال جميع أيام حياتي، فهل يجعلني اليوم في حاجة إلى الاعتماد عليكم بعد أن شاخ عمري في أواخر أيام حياتي؟ .... إن أفضاله الدائمة عليّ تستلزم أن أكون له بكليتي. إن جميع قواي ومواهبي وقدراتي هي من فضله، وكل ما أناله من شرف واحترام هو أيضا هبة منه.

وإنها لحقيقة تثير العجب أن جميع نصائح حضرة خليفة المسيح التي تحض على التوافق والوحدة بين أفراد الجماعة، وجميع تحذيراته من العواقب الوخيمة للانقسام والشقاق، لم يكن لها سوى أثر مؤقت، إن كان لها أي أثر على الإطلاق، على المجموعة التي تتعمد المشاكسة والنّزاع. ولم يبد عليهم سوى أنهم كانوا يزدادون إصرارا على عنادهم. صحيح أن العدد الأعظم من أفراد الجماعة قد أصبحوا يقظين للأخطار بعد أن تم تحذيرهم، وأمكن الحفاظ عليهم من الوقوع في فخاخ المكر والخديعة للمجموعة المعاندة، وكان ذلك في حد ذاته إنجازا كبيرا في مواجهة هذه المجموعة التي رغم صغرها كان لها قوة تأثيرها وسلطانها.

ومع ذلك، فإنه من المؤسف أنه لم يكن من الممكن كلية تجنب افتراق الطرق.

كانت قيادة المجموعة العنيدة مركّزة في لاهور. ولأن صحة حضرة خليفة المسيح لم تكن على ما يرام، بدأت المجموعة العنيدة الاستعداد لمواجهة المحنة التي لا بد منها. وكانت الخطوة الأولى هي أنهم بدأوا في نشر صحيفة أصدروها من لاهور باسم "بيغام صلح" أي رسالة السلام. وصدر العدد الأول منها في ١٠ يوليو (تموز) ١٩١٣. وفي أول الأمر كان حضرة خليفة المسيح أحد المكتتبين فيها، ولكنه فيما بعد رفض أن يتسلمها، وقد أساءه ما وجده فيها من سياسات وموضوعات، حتى إنه أطلق عليها اسم "بيغام جانج" أي رسالة الحرب. ومن وقت لآخر كان يُنشر فيها بعض الكلمات عن الولاء لخليفة المسيح، ولكنها كانت تفتقر الصدق والإقناع. وقد قامت بشن حملة شعواء من الإساءة وتشويه سمعة صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد. فقد كانوا يخشون أنه، رغم حداثة سنه، فربما يقع عليه اختيار الجماعة ليكون خلفا لحضرة خليفة المسيح، الذي لم يكن تقديره العظيم لصاحبزاده سرا مخفيا. وأما العقائد التي تتميز بها الجماعة كما أوضحها المسيح الموعود عليه السلام، وكما أكدها مرارا وتكرارا حضرة خليفة المسيح، والتي كانت تؤمن بها تلك المجموعة حتى ذلك الوقت، فقد بدأت تتلاشى وتتغير ويُخفف أثرها من أجل كسب الشعبية بين جموع المسلمين الآخرين.

وبالرغم من اضمحلال صحته، فقد استطاع حضرة خليفة المسيح من إتمام تقديم القرآن المجيد بأكمله في درس القرآن خلال شهر رمضان الذي وقع في شهري أغسطس وسبتمبر ١٩١٣.

* * *

جاء الهجوم الرئيس من جانب المجموعة العنيدة مستترا بحجاب رقيق وجبان في رسالة من مجهول وبدون توقيع. كان ذلك في أكتوبر (تشرين الأول) ١٩١٣، وكانت تلك الرسالة في شكل نشرتين نُشرتا الواحدة بعد الأخرى وبينهما زمن قصير. وكان عنوانهما هو "إظهار الحق (١) وإظهار الحق (٢). كان كل منهما حقيرا، وكان عملا مخجلا يمتلئ بالزيف والخداع والمفتريات والاتهامات الكاذبة لحضرة خليفة المسيح وأفراد عائلة المسيح الموعود عليه السلام بما فيهم حضرة أم المؤمنين. وحقيقة أنهما كانا من وحي قيادة المجموعة المعاندة، رغم إنكارهم، تتبين من المقالة التي نُشرت في جريدتهم بيغام صلح في ١٦ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩١٣ بقلم هيئة التحرير، والتي جاء فيها:

> مما رأيناه في هاتين النشرتين لا يمكن أن يكون هناك أدنى شك في أن معظم البيانات التي جاءت فيهما صحيحة ... فإذا رأى أنصار الله في لاهور أنه من المناسب تحريك الأمر، وإذا فكروا في كتابة شيء ضدنا لكي يثيروا سوء الفهم بسبب تأييدنا لبعض البيانات التي جاءت في النشرتين، فإنهم سيكونون هم المسؤولون عما يمكن أن نقوم بنشره للرد عليهم.

وقد أصدر حضرة خليفة المسيح توجيهاته إلى لجنة أنصار الله بإعداد ونشر رد على النشرتين. وعندما قُدّم له الرد المكتوب قام بقراءته وكتب عليه:

لقد اكتسبت "بيغام صلح" ألوفا من الملامات بإرسالها إلينا رسالة الحرب بنشرها الخطاب المفتوح، وأعلنت بذلك مدى نفاقها. ملعون كل من يعمل على إيقاظ الكارثة النائمة.

نُشر الرد في منشورين، كان أحدهما بعنوان "الخلافة الأحمدية"، ونشر في ٢٣ نوفمبر (تشرين الثاني)، والآخر بعنوان "إظهار الحقيقة"، ونشر في ٢٨ نوفمبر ١٩١٣. وقد تبين أن أثرهما كان كاملا في تفنيد جميع الاتهامات الكاذبة والمفتريات الخادعة التي جاءت في المنشورين الجارحين. وبذلك تم حفظ الجماعة من تدابير السوء التي كان يهدف إلى إثارتها نشر هذين المنشورين.

عندما كان حضرة خليفة المسيح في مرضه الخطير الذي أصيب به على إثر سقوطه من على ظهر حصان، رأى في رؤيا أن شخصا ما وضع روبية في جيبه. وقد فسر الرؤيا بأن الله تبارك وتعالى سوف يرزقه بابن يولد له. وفي ١٨ نوفمبر ١٩١٣ تحققت الرؤيا عندما وُلد ابنه الخامس الذي سمّاه "عبد الله".

عُقد المؤتمر السنوي للجماعة لعام ١٩١٣ في الأيام ٢٥ إلى ٢٧ من شهر ديسمبر (كانون الأول). وكان الحضور يزيد كثيرا عن أي مؤتمر سابق. وخلال حديثه في المؤتمر قال حضرة خليفة المسيح:

إن الوفاء بالعهود التزام مقيّد. وأريد أن ألفت انتباهكم إلى أحد عهودكم كي تتفكروا إلى أي مدى كان وفاؤكم به، وهذا هو عهد الطاعة الذي التزمتم به معي. ثم هناك أولئك الأشقياء من بينكم الذين يقولون: ما هو الخليفة؟ إنه خرف. انظروا واسمعوا واذكروا أن الله تبارك وتعالى بنفسه قد جعلني

خليفة، وأنا لا أعتمد على أحد منكم في أي شيء. لقد دعوت أن يحفظني الله تعالى من آثار تقدم العمر، وقد حفظني بفضله تعالى، وأنعم عليّ بفهم كلامه المقدس. إن انتقادكم لي لا يلقى رضى الله تعالى، وهو غيور على شرفي، فتوبوا من أفكاركم السيئة وسوء ظنكم بي. لقد حفظ الله تعالى جميع قواي، فالحمد له على فضله الكريم.

إنكم لستم أحرارا في نشر الشائعات عن الأمور التي تتعلق بالأمن والخطر، وإنما عليكم أن تُبلغوا كل ما يتعلق بهذه الأمور إلى الأمير أو إلى الرئيس حتى يتخذ هو الإجراء الذي يراه مناسبا. وهؤلاء الذين نشروا نشرتي "إظهار الحق" والخطاب المفتوح المَوَجّه إلى أنصار الله وراحوا يعقدون المناقشات عن خليفة المسيح لم يكن من حقهم أن يفعلوا هذا. إن الخطاب المفتوح أدمَى قلبي. ثم أرسل إليّ أحد الأشخاص بطاقة وطلب أن يقوم بنشرها! وقد قلت له إنه تصرّف بما يخالف تعاليم القرآن المجيد. لقد طلب مني الإذن أن يفعل ما كان قد قام بفعله مسبقا. إن مثل هؤلاء الناس يناقضون تعاليم الكتاب المجيد، ويبتغون أن يزرعوا الفُرقة بين الناس الذين جمعهم الله تعالى بخالص فضله ووحّد كلمتهم على يد رجل واحد، فكونوا على حذر منهم. ثم قال بعض الأشخاص إنني سقطت من على صهوة حصان، وأن هذا يعني سقوطي من مقام الخلافة، وأن هذا كان بسبب عدم الإخلاص. وهذا أسوأ

تفسير للرؤيا التي كان المسيح الموعود عليه السلام قد رآها. لقد أمرني الله تعالى أن أرد على جميع هذه الأمور، فانبذوا مثل أولئك الناس وتحاشوا سوء الظن.

وبعد المؤتمر قام حضرته بتسجيل الملاحظة التالية:

قال الله تبارك وتعالى في القرآن المجيد: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (إبراهيم:٨). إن شُكر نعمة الله تعالى يصبح مصدرا للمزيد من الفضل والنعمة. ولذلك فإني تقديرا واعترافا بفضل الله تعالى أسجل شكري لله عز وجل على فضله وإحسانه الذي غمرنا به.

خلال العام الحالي حاول بعض الأغبياء من الناس أن يثيروا الاضطراب في الجماعة، ولتحقيق هذا الغرض نشروا على نطاق واسع نشرتين بعنوان "إظهار الحق"، وقد جعلوني فيهما هدفا لانتقاداتهم الجارحة. وكان الهدف الذي يسعى إليه مؤلف هاتين النشرتين هو نشر الفتنة بين أفراد الجماعة، ولكن الله بفضله تعالى حفظ الجماعة وحفظني من شروره. وقد ظهر عونه تعالى وتأييده بشكل واضح حتى إن جميع تدابير فاعلي السوء قد فشلت تماما، وحفظ الله الجماعة من كل شر وضر. وقد ظهر هذا واضحا في الأعداد الغفيرة التي حضرت المؤتمر السنوي بما يزيد عن السنوات السابقة. لقد كانت ملامح الحاضرين وقسمات وجوههم تعكس المحبة والإخلاص التي تشهد ببلاغة لحقيقة أن الجماعة الأحمدية تحت حفاظة إلهية حفظتها من كل تأثير سيئ. وبالإضافة، فإن فروع الجماعة

المختلفة قدّمت مثالا للتضحية كان دليلا على فضل خاص من الله سبحانه وتعالى. فخلال العام الحالي استطاعت الجماعة أن تفي بمسؤولياتها من التبرعات. وقد كانت صدر أنجمن تعاني من عجز في الميزانية، فقامت فروع الجماعة بكل رحابة وسعة الصدر بتحمل مسؤولية سد العجز في الميزانية، وكانت الكمية التي تم الاكتتاب بها ودفعها الأعضاء فعلا كمية كبيرة من النقود بلغت ثلاثة أضعاف ما تم جمعه في العام الماضي، وهي بالنسبة لعدد أفراد الجماعة الصغير تُعتبر دليلا على فضل الله.

كذلك كان المؤتمر تفنيدا واضحا على سوء تفسير أولئك الذين سعوا ليجعلوا سقوطي من صهوة الحصان دليلا على عزلي من منصب ومقام الخلافة. وعندما بدأتْ إثارة الفتن ضد الخلافة، أراني الله في رؤيا أنني كنت أمتطي صهوة حصان خلال أرض كانت صلبة وجرداء. وحثثت الحصان على التقدم فبدأ يجري بسرعة حتى أصبح من الصعب عليّ السيطرة عليه، ولكني بفضل الله تعالى ظللت جالسا بثبات على ظهره. وبعد أن عبرنا مسافة طويلة، دخل الحصان في واد أخضر حيث كان كل ما حولنا نباتات خضراء كثيفة طولها قدمان. واستمر الحصان في الجري بسرعة، ولما وصلت إلى منتصف الوادي استيقظت. وقد فهمت من هذه الرؤيا أن هؤلاء الذين أكدوا بأني سوف أسقط من سرج الخلافة سوف يَثبت خطؤهم، وأن الله لن يؤيدني فحسب، وإنما سوف يمنحني

النجاح أيضا. وإنه لفضل من الله تعالى أنه حقق أيضا هذه الرؤيا. وقد أثبت المؤتمر السنوى هذا العام أنها كانت رؤيا حق. فرغم المعارضة ونشر هاتين النشرتين اللتين كانتا بدون توقيع، فإن الله أظهر لنا تأييدا بعد تأييد، وكان ينشر في كل يوم المحبة والإخلاص في قلوب أفراد الجماعة، وجذب قلوبهم نحوي، وملأ صدورهم بروح الطاعة، ووقاهم من خداع المعاندين.

وقد أصدر حضرة خليفة المسيح التوجيه التالي في ٢ فبراير (شباط) ١٩١٤:

تذكروا، يجب ألا يُعطى أولادي شيئا من أموال التبرعات أو الصدقات أو الزكاة أو من أي مبلغ آخر مخصص لرفع شأن اليتامى والفقراء. إن الله الكريم سوف يتولى رزقهم. وكل من يكتب سيرة حياتي فعليه أن يذكر هذا التوجيه الذي أصدرته، وينبغي ألا يُنقض بحال من الأحوال. إنني لا أملك مالا. وكل ديوني تم سدادها ولا أدين بشيء لأحد، وليس لأحد أن يطالب أولادي بشيء.

الفصل السابع عشر
ذكريات شخصية

كان والدي شودري نصر الله خان محاميا يمارس مهنته في سيالكوت. وفي بداية القرن وُكّل للدفاع في قضية مدنية تناولت الكثير من المسائل الهامة والمثيرة للحكم فيها. وقبل ذلك بعدة سنوات، كان المولوي مبارك علي، إمام ومتولي المسجد الكبير المعروف باسم مسجد الجمعة الواقع في مدينة سيالكوت، قد انضم إلى الجماعة الإسلامية الأحمدية. وكان اقتناعه بمجموعة من العقائد التي كانت تلقى معارضة عنيفة ومدانة من المولويين المتزمتين، قد أصبح مصدرا للتوتر وعدم الارتياح لأغلبية المصلين في المسجد، وتحول ذلك إلى تذمر وعداوة. وأخيرا قام عدد منهم برفع قضية لطلب إصدار حكم بأن المدّعى عليه المولوي مبارك علي لم يعد مسلما بسبب انضمامه إلى الجماعة الإسلامية الأحمدية، وبالتالي فَقَد أهليّته ليكون إماما ومتوليا لمسجد الجمعة. وفي ذلك الوقت لم يكن هناك أي محامي أحمدي يقيم في سيالكوت، فوقع الاختيار على والدي ليكون محاميا للدفاع عن المتهم. وقد قام بدراسة مفصلة ودقيقة للمسائل العقدية التي أثارها أصحاب الدعوى دعما لدفعهم بأن الأحمدي لا يمكن أن يُعتبر مسلما، ووجد والدي نفسه متعاطفا مع وجهة النظر الأحمدية. والأمر الآخر الذي أثر فيه تأثيرا عميقا هو أن المدّعين وشهودهم عند تقديم شهادتهم تحت اليمين، لم يترددوا في الكذب أو ليّ الحقائق إذا شعروا أن الإجابة المباشرة سوف تهدد

وضعهم، بينما كان المدّعَى عليه والشهود الأحمديون يتمسكون بقول الحق دون اعتبار لتأثير شهادتهم على نتيجة القضية. وقد شعر أن المستوى العالي لأخلاق الأحمديين الذي ظهر بشكل واضح كان دليلا على أنهم كانوا على الحق. وكانت نتيجة المحاكمة أن القاضي حكم لصالح المدّعَى عليه وأمر برفض الدعوى. واستأنف أصحاب الدعوى الحكم، ولكن رُفضت دعوى الاستئناف. وقد تركت إجراءات القضية والدي بشعور يميل نحو الأحمدية.

وبعد ذلك بفترة قصيرة، استُدعي كشاهد للدفاع في محكمة بمقاطعة كورداسبور في قضية جنائية كان يُحاكم فيها حضرة مرزا غلام أحمد مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية، لاتهامه بالقذف في حق المولوي كرم دين، الذي كان أحد ألد أعدائه الخبثاء. وقد أتاح ذلك فرصة لوالدي أن يقابل تلك الشخصية العظيمة، وقد تأثر به وبروحانيته تأثرا كبيرا.

وحول ذلك الوقت، في صيف عام ١٩٠٤، لم يكن لوالدتي أي علم ولا اتصال بالأحمدية، رغم أن والدها وأخاها الوحيد كانا قد انضما حديثا إلى الجماعة، غير أنها تلقت من الله تعالى سلسلة من الرؤى كانت تتميز بالروحانية العالية. إذ رأت نفسها في حضرة شخصية روحية عظيمة، كان يريد أن يهديها إلى طرق التقوى. وقد أعطتها هذه الرؤى دفعة روحية عالية، وتركت في نفسها وفي عقلها تأثيرا عميقا. ولم يكن لديها أدنى فكرة عن هذه الشخصية المبجلة الكريمة التي كانت تراها في رؤاها، وعندما رأت الرؤيا الثالثة توسلت إليه أن يخبرها عن شخصيته،

فأخبرها أن اسمه أحمد. وحينما ذكرَت هذه الرؤيا لوالدي ذكر إنه لما كان اسم أحمد هو أحد أسماء الرسول ﷺ، فلعلها كان لها حظ نوال نعمة الاتصال الروحي به. فقالت والدتي إن إحساسها يقول بأن الشخصية العظيمة التي رأتها كانت من الأشخاص المعاصرين على قيد الحياة وأنه سوف يهديها إلى الحق والتقوى. وبعد بضعة أيام جاء أخوها لزيارتها، وعندما سمع منها عن رؤياها الأخيرة قال لها إن أحمد هو اسم المسيح الموعود، وأنها قد رأته في رؤاها. فقالت إنها على يقين بأن الله تعالى، الذي اختار هذه الوسيلة لهدايتها، سوف يكشف عن حكمته في الوقت المناسب.

وقد أُعلن أن المسيح الموعود عليه السلام سوف يزور لاهور، وأن خطابا له سوف يُقرأ أثناء وجوده في لاهور في ٣ سبتمبر (أيلول) ١٩٠٤. فذهب والدي إلى لاهور لهذه المناسبة، ولحسن حظي أنه اصطحبني معه. وفي اللحظة التي رأت عيناي ملامح الوجه الكريم المبارك لهذه الشخصية القدسية أحسست بقلبي ينتشي ببهجة خلبت لبي، وطوال الوقت الذي استغرقه المولوي عبد الكريم في قراءة المحاضرة، ظلت عيناي مثبتة في نظرتهما المحدقة على وجه المسيح الموعود عليه السلام الذي كان يشع بالنور. وقد نفذ صدقه إلى روحي وعقلي على الفور، وشعرت أنني منجذب إليه بكل قواي وروحي ونفسي. لقد كنت مجرد تلميذ من تلاميذ المدارس في الثانية عشر من عمري، ولكني كنت على يقين بأن الله تبارك وتعالى الذي أتاح لي هذه الفرصة قد منّ عليّ ببركة عظيمة من فضله الكريم.

وصل المسيح الموعود عليه السلام إلى سيالكوت في زيارة لها يوم ٢٧ أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٠٤، وكان في صحبته أفراد أسرته وبعض أصحابه بما فيهم المولوي نور الدين. وفي الصباح التالي عندما كان والدي يستعد للذهاب إلى المحكمة، استأذنته والدتي في الذهاب لزيارة الضيف العظيم، ولترى ما إذا كان هو الشخصية الجليلة التي رأتها في أحلامها. فقال:

- يمكنك أن تذهبي طبعا وتتأكدي بنفسك، ولكن لا تتخذي قرارا نهائيا في الأمر.
- إذا حدث أن كان هو نفس الشخص، فإني سأكون مذنبة في حق الله تعالى لو أني انتظرت أو تأخرت بعد الهداية الواضحة التي أنعم بها عليّ.
- هذا موضوع في غاية الأهمية ولا أريد أن نختلف عليه. فكما تعلمين أنا لا زلت أدرس هذا الموضوع، وسوف نناقشه سويا وأتعشم أن نصل إلى نفس القرار.
- أنت رجل متعلم، وأنا لم أنل أي قسط من التعليم. ولكني أشعر أن الله تعالى بفضله عز وجل قد اختار وسيلته الخاصة لكي يهديني إلى الحق. فإذا وجدت أن هدى الله يشير إلى هذا الاتجاه فيتحتم عليّ أن أسير في هذا الاتجاه بغير تردد. وإذا كان الأمر غير ذلك فسوف يسعدني أن أناقش الأمر معك ويمكن أن نقرره سويا.

- إن التمهل في الأمر قليلا لن يؤدي إلى أي ضرر، فأنا أخشى العواقب الوخيمة التي يمكن أن تحدث لو وجدنا أنفسنا على طرفي نقيض في هذا الأمر الهام.
- لقد قلت لك رأيي في الأمر.

اصطحبتني والدتي في هذه الزيارة التي كانت تُعوّل عليها أهمية كبرى في بحثها عن الحق، والتي كانت تشعر بأن روحها تدفعها دفعا إلى معرفة نتيجتها. وعندما وصلنا إلى البيت الذي كان ينْزل فيه المسيح الموعود وعائلته، قدمت نفسها إلى حضرة أم المؤمنين وتوسلت إليها أن ترتب الأمر بحيث تتمكن من إلقاء نظرة على زوجها المبجل. وتم إبلاغه بهذه الرغبة فأرسل يقول إنه سوف يذهب بعد برهة إلى المسجد المجاور للاشتراك في الصلاة، وفي طريقه سوف يمر بهن ويتوقف لبضع دقائق. وبالفعل وصل وجلس بجوار حضرة أم المؤمنين على بُعد بضع أقدام من المكان الذي كانت والدتي تجلس فيه وأنا بجوارها. وفي اللحظة التي وقعت عيناها على ملامحه الكريمة أضاء وجهها وانفرجت أساريرها بابتسامة رضى وقالت بنبرة توّاقة: سيدي، إني أريد أن أبايعك؛ فتفضل بإجابتها قائلا: رَدِّدِي بعدي ما أقوله. وأخذ يذكر عهد البيعة جملة بعد أخرى، وكانت هي تردد بعده كل ما يقوله. وفي النهاية انخرط في دعاء صامت شاركته فيه جميع سيدات الأسرة ووالدتي وأنا معهم، ثم غادر المكان بعد ذلك متوجها إلى المسجد. وقد علمت فيما بعد، حسب ما كنت ألاحظه، أن هذا لم يكن أمرا معتادًا من جانبه، وعلى الأخص أن الشخص المبايع كان امرأة و لم يكن زوجها من أفراد الجماعة. إذ لم يسأل أحد الأطراف الآخر أي سؤال، و لم يقل أحد ولا كلمة واحدة فيما عدا

الصيغة المعروفة للبيعة. ويبدو أنه كان هناك توافق روحي كامل بين الطالب والمطلوب. وشعرت والدتي بأن روحها قد أصبحت في راحة وسكينة، وأن بحثها عن الحقيقة قد قادها إلى جنّتها الروحية. وهي لم تره بعد ذلك أبدا، سوى في أحلامها، ومع ذلك فإن وفاءها له استمر كاملا لا تشوبه شائبة خلال جميع المحن والابتلاءات التي مرت بها إلى أن لفظت آخر أنفاسها بعد مرور أكثر من ثلث قرن من بعد ذلك. و لم يحدث أبدا ما عكر صفو طمأنينة نفسها، وظل إيمانها ثابتا صامدا لا يتأثر بشيء، كما استمر يسمو بها إلى آفاق عليا في جميع الأحوال.

وبقيَت والدتي في ضيافة حضرة أم المؤمنين لمدة تقرب من نصف ساعة، تأصلت خلالها أواصر صداقة قوية بينهما استمرت طوال حياتها. وعدنا بعد ذلك إلى منْزلنا، ولا بد أنها شعرت أنها بعد ما يقرب من ساعتين سوف يتحتم عليها أن تواجه أشد محنة في حياتها عندما تواجه والدي، ولكنها كانت على ثقة من أن الخطوة التي اتخذتها كانت من توجيه الله تعالى، حتى إنها كانت على يقين أن الله الذي قاد خطاها حتى الآن سوف يحميها ويؤيدها على الدوام. لم يحدث أبدا أن وقع بينها وبين زوجها أي خلاف حقيقي، والآن فإنهما يواجهان أزمة كانت تتعلق بأمر الهداية والضلال والنجاة أو البوار. ولا بد أنها قد دعت الله ﷻ كثيرا من أجل أن يلهمها الرشاد ويمنحها القوة والسداد.

ووصل والدي، ومرة أخرى كان لي حظ أن أشاهد ما حدث. وسألها بقلق وهو يتوق إلى معرفة إجابتها، وبالطبع بعد إضافة تعبيرات المحبة المعتادة، فقال:

- هل ذهبت؟
- نعم، ذهبت.
- والنتيجة؟
- (فقالت بصوت مرتجف) لقد كان هو نفس الشخص.
- أتعشم ألا تكوني قد اتخذت أي قرار نهائي.

فوضعت يدها اليمنى على قلبها وقالت:

- لقد بايعت.

وامتقع لونه وشحب وجهه وارتعشت شفتاه، ولكنه بذل جهدا في التماسك ثم تمتم قائلا:

- لم يكن هذا التصرف سليما.

ثم نادى خادمه وأمره قائلا:

- انقل سريري إلى الغرفة المجاورة.

وهنا رفعت والدتي صوتها بنبرة أعلى قليلا من نبرته وقالت للخادم بصوت يملؤه الحزم:

- انقل سريره إلى جناح الرجال.

ولا بد أن هذا قد فاجأه وأدهشه، فسألها بنبرة تشوبها المرارة:

- و لم هذا؟
- لأن الله تعالى بفضله العظيم قد أراني النور، وأنت لا زلت في الظلام.

وشعر أنها قد انتصرت عليه، فاستدار إلى الخادم وصرفه وهو يقول بصوت مستسلم:

- كنت أعلم أنها سوف تنتصر.

ومرت الأزمة. وساد الجميع شعور بالارتياح، غير أنه كان لا يزال على والدي أن يتخذ قراره، وكانت والدتي تدعو الله دوما من أجل أن يجمع سبحانه شملهما روحيا.

كان أحد زملاء والدي في المحاماة مهتما أيضا بالجماعة، وأراد والدي الذي كان يميل إلى الانضمام إلى الجماعة أن يسأله عما إذا كان على استعداد لمشاركته في الانضمام سويا إلى الجماعة، فقال الزميل إن هناك بعض الأمور التي يرغب في استيضاحها. واتفقا على أن يسترشدا برأي المولوي نور الدين، الذي تفضل بكرمه المعتاد فأخبرهما بأنه سيكون سعيدا أن يلتقي بهما لمدة ساعة كل ليلة. وقد تم عقد أربعة لقاءات، كان لي أيضا حظ حضورها جميعا. وأتاح لي ذلك فرصة ملاحظة المولوي نور الدين عن قرب، ولعله قد لاحظ أيضا وجودي باعتباري ابن صديقه نصر الله. وبعد اللقاء الرابع سأل والدي زميله ما إذا كان يستطيع الآن أن يتخذ قرارا في الأمر، فقال إن جميع الأمور قد تم توضيحها. فسأله والدي:

- إذن هل نؤدي البيعةَ؟
- ما رأيك أنت؟
- أنا مستعد، إذا كنت أنت مستعد.
- حسنا. غدا في الصباح حين تذهب لصلاة الفجر خذني معك لنؤدي البيعة.

وفي صباح اليوم التالي صحبت والدي لصلاة الفجر، وفي طريقنا إلى المسجد مررنا على زميله ليصحبنا، ولكنه شعر أنه ليس على استعداد

بعد لتحمّل المسؤوليات التي يفرضها عهد البيعة. وعلى هذا، فقد قام والدي بمبايعة المسيح الموعود عليه السلام في لقاء خاص معه بعد صلاة الفجر، وكنت أنا موجودا أيضا. وكانت بيعة والدي التي حدثت بعد فترة قصيرة من بيعة والدتي قد حققت أحد الأحلام التي رأتها والدتي. وهكذا التأم الشمل مرة أخرى وعاد الوفاق ثانية إلى العائلة، مما أثلج صدور الجميع وملأ القلوب بالرضا والاطمئنان. وفيما بعد، وبعد مرور عشر سنوات، تعرّض كل ذلك إلى هزة، ولكن تم معالجة الأمر بنفس الحكمة.

وبعد البيعة، قضى والدي في قاديان معظم شهر سبتمبر (أيلول)، وهو الشهر الذي يتعطل فيه العمل في محاكم القطاع. كما أنه حضر بانتظام المؤتمر السنوي الذي يتم عقده في الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر (كانون الأول). وقد كنت في صحبته في جميع هذه المناسبات، مما أتاح لي الفرصة أن أكون في صحبة المسيح الموعود عليه السلام عندما كان يذهب لرياضة المشي بعد الظهر، وعندما يجلس في مسجد مبارك بعد صلاة الظهر وصلاة العصر. وفيما عدا هذه الأوقات، كنت أنتهز كل فرصة متاحة لأكون في صحبة المولوي نور الدين. وأذكر ذات مرة أنه كان قبل الظهر يعطي درسا في كتاب "المثنوي" لمولانا جلال الدين الرومي.

ولما أنهيت دراستي الثانوية في أبريل (نيسان) ١٩٠٧، التحقت في شهر مايو (أيار) بالكلية الحكومية بلاهور لدراسة إحدى المواد المعتمدة في جامعة البنجاب. وفي العطلة الصيفية من تلك السنة عندما كنت في منْزلنا بسيالكوت، تلقى والدي بطاقة بريدية من المولوي نور الدين،

تفيد بأن عليّ أن أقوم بتأدية البيعة للمسيح الموعود عليه السلام. وفي تقديري الخاص، كنت أعتبر نفسي واحدا من أفراد الجماعة منذ ٣ سبتمبر (أيلول) ١٩٠٤، وذلك عندما تشرفت بالنظر إلى الوجه المبارك للمسيح الموعود عليه السلام لأول مرة في لاهور، كما كنت أعتبر نفسي أيضا مشتركا في البيعتين اللتين قام بهما كل من والديّ في وجودي بعد بضعة أسابيع في سيالكوت. ومع هذا، وانصياعا لتوجيهات حضرة المولوي نور الدين إلى والدي، قمت بأداء البيعة في قاديان على يد المسيح الموعود عليه السلام، وكان ذلك في ١٦ سبتمبر (أيلول) ١٩٠٧. وإنني مدين بالشكر العظيم وأشعر بالامتنان الكبير لحضرة المولوي نور الدين على قيامه بإصدار هذه التوجيهات إلى والدي في ذلك الوقت، إذ بوفاة المسيح الموعود عليه السلام في ٢٦ مايو (أيار) ١٩٠٨، تم بصفة نهائية إغلاق سجل الشرف الذي يضم أسماء الصحابة الذين تشرفوا بمبايعته. وفي ذلك اليوم الفاجع الذي غمر فيه الحزن جميع النفوس، كنت في لاهور، وصاحبت الجسد المبارك للإمام الراحل عليه السلام إلى قاديان. وهناك، بعد ظهر اليوم التالي، تم إعلان اختيار حضرة المولوي نور الدين ليكون خليفة المسيح، وقام جميع أفراد الجماعة الموجودون بقاديان في ذللك الحين بمبايعته، وأنا بينهم.

* * *

خلال المرحلة التالية من دراستي العليا كنت كثيرا ما أزور قاديان وأقضي هناك جزءا من العطلة الصيفية، كما كنت أحضر دوما أيضا المؤتمر السنوي. وبذلك كان لي حسن الحظ أن أكون معروفا شخصيا

لدى حضرة خليفة المسيح، وتلقيت منه العديد من الأفضال والمكارم التي غمرني بها.

وبعد امتحان التخرج النهائي في أبريل (نيسان) ١٩١١ عدت إلى سيالكوت. وبعد أن قضيت بضعة أسابيع مع والديّ انتقلت إلى قاديان في شهر يونيو (حزيران). وكان حضرة خليفة المسيح في ذلك الوقت لا يزال معتلا، وكان يقضي اليوم في غرفة جلوسه حيث كان يعطي بعض الدروس، ويؤدي بعض الأعمال التي تخص إدارة شؤون الجماعة، ويفحص المرضى، ويستقبل الزوار. وكان الجرح الذي أصاب صدغه الأيمن قد تحول إلى قرحة مستديمة مما كان يستدعي تغيير الضمادات يوميا عليه. وبعد أن يقوم الطبيب بواجبه في علاج الجرح، كان حضرة خليفة المسيح يظل مستلقيا لبعض الوقت، بينما يقوم أحد تلاميذه بتدليك أطرافه. ولم يكن في تلك الفترة قادرا بعد على الذهاب إلى المسجد لأداء الصلوات، بل كان يؤدي الصلاة جالسا في غرفة جلوسه، ويؤم الصلاة الشيخ محمد تيمور الذي كان تلميذه المقرب إليه، بينما يظل حضرة خليفة المسيح جالسا. وكان يشترك معهما في صلاة الجماعة أربعة أو خمسة من التلاميذ على أكثر تقدير، إذ كان حضرته يأمر جميع الموجودين بالتوجه إلى المسجد لأداء الصلاة عندما ينادي المؤذن للصلاة في المسجد المجاور. وفي اليوم الأول لزيارتي، وبعد أن أذّن المؤذن لصلاة الظهر، وانصرف الجميع إلى المسجد، وقفت أنا أيضا أهم بالانصراف. وحينئذ تفضل حضرة خليفة المسيح وقال لي بكل مودة: ميان، يمكن لك أن تبقى وتؤدي الصلاة معنا هنا. وعلى هذا فقد أديت صلاة الظهر والعصر في غرفة الجلوس.

كان هناك صف واحد خلف الإمام، حيث جلس حضرة خليفة المسيح في ناحية الشمال، ثم وقفت أنا على يمينه بجوار أريكته، واصطف الباقون على يميني. وحرصا مني على عدم إزعاجه، وأيضا من باب الاحترام لشخصه، كنت أقف بعيدا عنه بعض الشيء، ولكنه كان يضع يده حول ساقيّ ويجذبني إلى جواره. وفي إحدى المرات، لم يكن الشيخ محمد تيمور موجودا عندما حان موعد أداء صلاة العصر، فنظر حضرة خليفة المسيح إلى الموجودين حوله ثم قال لي: ميان، لقد قرأت القرآن الكريم، فمن فضلك أمّ الصلاة. و لم يكن أمامي سوى أن أمتثل طاعة للأمر.

وفي أحد الأيام، حدث بعد أن قام الطبيب بالتغيير على الجرح، أنه لم يكن أحد موجودا في الغرفة سواي. و لم أكن أعلم الطريقة الصحيحة للتدليك. ورحت أقلب الأمر في خاطري، ما إذا كان ينبغي عليّ أن أنسل خارجا من الغرفة بهدوء، أم أقوم بتدليك أطراف حضرة خليفة المسيح، الأمر الذي قد يسبب له آلاما أكثر؟ وكما هي عادته، كان مستلقيا على جانبه الأيسر، فتحركت بهدوء وجلست خلفه على طرف الأريكة، وراحت أصابعي الخجولة تقوم بمهمتها. وبعد مرور ما يقرب من خمس دقائق توقفت عن التدليك، عازما أن أنسحب بهدوء لأتركه ينعم ببعض الراحة. ولما شعر بذلك، رفع ذراعه اليمنى ووضعها حول رقبتي بحنان، ثم جذب وجهي برقة ناحية وجهه، وأبقاني في هذا الوضع لما يقرب من دقيقتين في صمت تام. وعندما رفع عني ذراعه قال لي:

- ميان، لقد ابتهلت إلى الله من أجلك بالكثير والكثير من الأدعية!

حقا، لقد كانت تلك الأدعية ينبوعا دافقا من البركات التي ظل عبيرها يلازمني في الأعوام السبعين من حياتي التي عشتها بعد ذلك.

وبينما كنت لا أزال في قاديان، كتب إليّ والدي وأمرني أن أتقدم بعدة أمور لحضرة خليفة المسيح، وكان من بينها التماس بطلب الإذن لي من حضرته كي أذهب إلى إنجلترا لتلقي التعليم العالي. وقدمت لحضرته كل ما طلب والدي مكتوبا، وفيما يختص بأمري كتبت قائلا إني بفضل الله تعالى أدّيت امتحان التخرج بكفاءة ولي كبير الأمل أن أجتازه بنجاح، وأن والدي يرغب، بعد إذنه، أن أستكمل دراستي في انجلترا. وقد أشار حضرة خليفة المسيح بأن على والدي وعليّ أيضا أن نقوم بأداء صلاة الاستخارة، وإذا شعر كل منّا بنتيجة طيبة، فلي عندئذ أن أسافر تحقيقا لرغبة والدي. وأخبرت والدي بتعليمات حضرته، ودعا الله كل منا لمدة أسبوع، وتبين لي في نهايته ما يشير إلى أن الخير فيما أراده لي والدي، رغم أنني شخصيا لم أكن حريصا على السفر إلى الخارج.

وأُعلنت نتيجة امتحان التخرج، وكتب لي صديق من لاهور يخبرني بأني قد اجتزت الامتحان بامتياز وتفوق في الدرجة الأولى، فقدمت الخطاب لحضرة خليفة المسيح الذي اعتلاه السرور حتى إنه علّق على ذلك أمام جميع أولئك الذين جاءوا لزيارته بعد ظهر ذلك اليوم، وكان يقول:

- إنني سعيد جدا اليوم. فهو (مشيرا إليّ) قد اجتاز امتحان التخرج وحصل على درجة البكالوريوس (B.A)، والمدهش في الأمر أنه كان يعلم مقدما أنه سوف ينجح.

وقد تبين فيما بعد أنني حزت المركز الأول مع مرتبة الشرف في امتحان اللغة العربية، وأنني إذا قررت الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية، سأكون مستحقا لنوال منحة كبيرة من الجامعة. وكان هذا الخيار يبدو محببا إلى نفسي، ولكن تحقيق رغبة والدي كانت عندي فوق أي اعتبار آخر.

كان من عادة حضرة خليفة المسيح أن يخرج إلى الفناء الواسع الملحق بمكان إقامته المتواضع في الجزء الأخير من ساعة العصر، عندما يكون الجو في ذلك الوقت عليلا بنسماته الرطبة الجميلة. وهناك أيضا كنت أتشرف بمعيته. وفي أحد الأيام قال لي: هذا هو وقت المباريات وممارسة الرياضة، ألا تريد أن تشترك في أي نوع من أنواع الرياضة؟ فأجبته قائلا باحترام:

- سيدي، إنني أشعر بسعادة أكثر حيث أنا.

كان عليّ أن أستأذن بعد قليل لأذهب إلى البيت وأبدأ في إعداد العدة للسفر إلى إنجلترا. كانت والدتي تشعر بالرعب بسبب طول المدة التي سأفارقها فيها، وأنا أيضا كنت منقبضا من الانتقال إلى المجهول الكبير، وأتوجس خيفة من الرحيل إلى مناطق لا أعرف الكثير عنها، والقليل الذي أعرفه لم يكن سوى نتيجة ما كنت أسمعه عن أقوام كان دينهم وثقافتهم وأسلوبهم في الحياة غريبا تماما بالنسبة لي. وعلى هذا لم يكن الاستعداد للسفر أمرا مثيرا، وكنت أشعر بالكثير من القلق والاضطراب.

كانت رحلتي من بومباي إلى تريستا قد تم حجزها على متن مركب بخاري تابع لشركة أوستن لويد، كان من المقرر أن يبحر من بومباي أول سبتمبر (أيلول) ١٩١١. وقد غادر والديّ وخالي وأحد أصدقاء العائلة سيالكوت في الصباح المبكر من يوم ٢٨ أغسطس (آب)، واستقلوا القطار إلى بطالا، ووصلوا إلى قاديان بعد ظهر ذلك اليوم. وذهبت في اليوم التالي أستأذن حضرة خليفة المسيح في الرحيل، وقد ودّعني حضرته بوداع يفيض بالمحبة، تصحبه الكثير من الأدعية الكريمة، كما أنه أملاني بعض التوجيهات والأدعية التي قمت بكتابتها، وتفضل عليّ ببعض النصائح الشفهية، وشدد عليّ في الكتابة إليه بانتظام. وأما والدتي فقد أسعدها كثيرا لقاؤها بحضرة أم المؤمنين. وغادر الركب قاديان إلى بطالا بعد ظهر نفس ذلك اليوم، ثم استقلينا القطار إلى أمرتسر، حيث استقلت والدتي وخالي وصديق العائلة القطار إلى سيالكوت، بينما اتجهنا أنا ووالدي بالقطار إلى بومباي التي تقع على بُعد ألف ميل. و لم أكن قد سافرت بالقطار إلى ما أبعد من أمرتسر من قبل، فكل شيء بعدها كان جديدا بالنسبة لي. ووصلنا إلى بومباي يوم ٣١ أغسطس (آب)، وفي ظهر اليوم التالي ركبت المركب الذي سوف أسافر على متنه وهو س.س.كوربر، الذي تبلغ حمولته ٤٠٠٠ طن. وقد شد والدي على يديّ عند السلم المؤدي إلى ظهر الباخرة، وفيما عدا كلمات التحية والوداع المعتادة في تلك المناسبات لم نتبادل أي كلمة أخرى.

وخلال ساعة من تحرك الباخرة من الرصيف أصبت بدوار البحر، وهي حالة لم أكن على علم بها و لم يحذرني أحد منها. كانت رياح

موسم المونسون تهب على أشدها، وتلى ذلك أربعة أيام من الشقاء المذهل الذي استمر دون توقف وبغير انقطاع. ومن اللحظة التي خرجنا فيها من نطاق رياح المونسون، صارت كل لحظة بعدها من الرحلة مبهجة وممتعة. وبعد أربعة أيام من المجاعة التي عشتها كنت أشعر بجوع نهم، واستمتعت بكل لقمة التهمتها من الطعام الممتاز الذي كان متوفرا على ظهر المركب. ووصلنا إلى تريستا بعد ظهر يوم ١٤ سبتمبر (أيلول)، ومنها سافرت شمالا بالقطار السريع إلى أوستند، ثم عبرت إلى دوفر ووصلت إلى لندن في الصباح المبكر من يوم ١٦ سبتمبر.

كانت لندن في ذلك الحين عاصمة العالم، وفيما عدا ما كان يسمى بالربع المغمور، كانت الحياة كريمة ومريحة كما كانت تتميز بالسهولة واليسر. وكان من حسن حظي أنني وجدت مكانا للإقامة كضيف يدفع نفقات إقامته مع أناس تبين أنهم كانوا ودودين للغاية، وكانوا يعاملونني دائما بكرم ومحبة. واستقر بي الأمر لدراسة القانون، ولم يمض عليّ طويلا حتى شعرت بالراحة والاستقرار وكأني أقيم في بيت أهلي، باستثناء شعور البُعد والانفصال عن والديّ. وكنت أكتب إليهما كل أسبوع، كما كنت أتلقى منهما خطابا كل أسبوع أيضا. كذلك كنت أكتب بانتظام إلى حضرة خليفة المسيح، وكان يشرفني بالكتابة إليّ بكل محبة وبيده الكريمة. كنت أكتب إليه بكل صراحة، وعن كل شيء كان يثير انتباهي، وفي ردوده كان يُبدي اهتماما بالغا بكل ما كنت أكتبه إليه. وسرعان ما أصبحت مغرما بالسفر، فكنت أقضي عطلاتي خارج لندن، ولكني لم أسافر إلى خارج إنجلترا إلا بعد الحصول على إذنه. كان

دائما يحييني في خطاباته بتحية تفيض محبة ومودة، وفي بعض الأحيان كان يخاطبني بأسلوب دُعائي فيقول: لعلك تكون بحق ظفر الله، أو يقول: لعلك تكون من المهديين ذوي الحظ العظيم. وقد تم نشر خطابه إليّ بتاريخ ١٦ سبتمبر (أيلول) ١٩١٣، وفيما يلي أقدم ترجمة له باللغة الإنجليزية، على سبيل المثال:

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تحياتي المحبة للشيخ محمد أكبر: السلام عليكم. هذه تحية مباركة، وللأسف أن مسلمي الهند قد أهملوها.

ينبغي لكل رحلة أن يكون لها غرض، إما أن يكون دنيويا أو دينيا، وإلا فإنها تكون عبثا.

أرجو أن يكون المسجد في بيترسبرج مصدر خير وبركة.

في فنلندا تتحدد مواعيد الصلاة وفترة الصيام بحسب الساعة، فقد قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس: ٤٠)، وهذا من أجل هداية القاطنين في تلك المناطق.

تصور يا عزيزي أن ميزانية الكنيسة الإنجليزية تبلغ ٢٤ مليون جنيها أسترلينيا. فإن لم يكونوا مؤمنين بالمسيحية، فلماذا ينفقون هذه المبالغ الضخمة كما يسكبون الماء؟

لماذا تقوم دول البلقان وفرنسا وإيطاليا بسفك الكثير من دماء المسلمين في تركيا وطرابلس ومراكش في السنتين الماضيتين؟

إن العقل لا يؤيد عقيدة الثالوث التي قد تروق لإنسان هوائي. ويرتبط أفول هذه العقيدة بالمسيح الموعود. إن معظم أتباعها لديهم خواء داخلي، ولكنهم يترددون في قبول الإسلام صراحة.

عليك أن تركز على نشر توحيد الله تبارك وتعالى، ويكفي أن تبلغ الطلبة البنجابيين والهنود اسم الله تعالى ورسوله ﷺ.

لا تهمل أداء الصلوات، واتلُ القرآن المجيد بانتظام، وابتهل إلى الله دائما بالدعاء.

ما الذي حدث لصديقك الألماني؟ إنك لم تكتب لي كيف حاله الآن.

والسلام

نور الدين

* * *

كان الخواجه كمال الدين أحد أعضاء الجماعة البارزين، وكان يعمل بمهنة المحاماة، وقد مارس المهنة لفترة من الزمن في بيشاور ثم انتقل بعد ذلك إلى لاهور. وكان يذكر كثيرا أنه في وقت من الأوقات كان منجذبا بشدة نحو المسيحية، ولكن حسن حظه وضعه في اتصال مع المسيح الموعود عليه السلام، وبسبب تأثيره المبارك عاد إليه إيمانه بالإسلام، وأصبح بذلك من المسلمين المخلصين. وعندما كان المسيح الموعود عليه السلام في زيارته الأخيرة للاهور وكان مقيما في مباني الجماعة الأحمدية، رأى الخواجه كمال الدين في رؤيا أن الشرطة ألقت القبض عليه هو والمولوي محمد علي ومعهما ثلاثة أو أربعة آخرين. وقيل لهم أنهم متهمون بالخيانة

وأهم سوف يُقدمون للمحاكمة أمام الملك. واقتادهم الشرطة إلى قاعة كبيرة كان المولوي نور الدين جالسا في نهايتها على عرش موضوع على نصب مرتفع تحت سقف كبير. وخاطبهم قائلا: إنكم تمردتم عليّ، فماذا أفعل معكم؟ فأجاب الخواجه كمال الدين: إنك أنت الآن الملك وتستطيع أن تفعل بنا ما تشاء. وحينئذ قال المولوي نور الدين: إنني أحكم عليكم بالنفي.

وقد ذكر الخواجه كمال الدين هذه الرؤيا للمسيح الموعود عليه السلام، فانصرف عنه قائلا إن الرؤيا لا تنذر بسوء. وبعد ذلك أخبر المولوي نور الدين برؤياه، فاستغرق في تفكير عميق وطويل، ثم حذره بعد ذلك من أن يذكر رؤياه لأحد. وبعد مرور بضعة أيام رحل المسيح الموعود عليه السلام إلى جوار ربه، فذهب الخواجه كمال الدين إلى المولوي نور الدين وقال له: لقد جاء موعد تحقق رؤياي، وأنا على استعداد أن أقوم بمبايعتك فورا. فأخبره المولوي نور الدين أن يصبر قليلا حتى يتمكن ممثلو الجماعة من الاجتماع في قاديان للتشاور في الأمر. وبعد مرور بعض الوقت منذ إعلان اختيار حضرة خليفة المسيح لمقام الخلافة وممارسته لمسؤوليات ذلك المنصب الكريم، حدث أن رأى الخواجه كمال الدين نفس الرؤيا مرة أخرى، ولكن بتغيير بسيط. إذ أنه في هذه المرة أعلن حضرة خليفة المسيح حكمه قائلا: لقد تمرّدت للمرة الثانية، ولذلك فإني أحكم عليك بالإعدام. وفي الرؤيا تم اقتياد الخواجه كمال الدين إلى مكان تنفيذ الحكم، وعندما ارتفع فأس الجلاد ليهوي على رقبته استيقظ من نومه مذعورا.

وفي عام ١٩١٢ تُوفيت زوجة الخواجه كمال الدين، مما أصابه بحزن شديد، وتحولت أفكاره بشكل أكثر وأكثر نحو الدين، وقام بجولة واسعة في أنحاء شبه القارة الهندية بغرض إلقاء المحاضرات عن الإسلام. وعندما وصل إلى بومباي قابله أحد الأثرياء النبلاء من سكان حيدرأباد في ولاية دكن، وكان ذلك النبيل يشعر بميول نحو قبول الأحمدية، وطلب من الخواجه كمال الدين أن يقوم نيابة عنه بمهمة خاصة تتعلق كلية بأمور خاصة، وكانت تقتضي منه أن يسافر إلى لندن، وعرض عليه الرجل مبلغا كبيرا نظير أتعابه. ولما كانت المهمة تتعلق أيضا بأمور قانونية ولا تقتضي أي صعوبة، لم يجد الرجل مشقة في إقناعه بقبولها، فوصل إلى لندن في نهاية عام ١٩١٢. وبعد أن أدى مهمته، قرر أن يقيم في لندن بصفة دائمة ويكرس نفسه لنشر الإسلام. وفي ذلك الوقت كان في إنجلترا ثلاثة أحمديين فقط، كان أحدهما يدرس الطب في مدينة نيوكاسل، وكان الدكتور عباد الله يتلقى دراسات تدريبية متقدمة في كلية لندن لجراحة الأسنان، وكنت أنا أدرس القانون. وعند وصول الخواجه كمال الدين إلى لندن انتقل الدكتور عباد الله من مكانه تنازلا منه للخواجه كمال الدين، مما تسبب في كثير من المشقة له وافتقاد الراحة في البيت الذي كان يقيم فيه. ومن ناحيته كان الخواجه عازما على الحياة ببساطة و لم يهتم كثيرا بالراحة الشخصية. ولكن، سرعان ما خلت غرفة مريحة في البيت الذي كنت أقيم وعُرضت للإيجار، فانتقل للإقامة فيها معنا. وعلى هذا كنا على صلة وثيقة مع بعضنا البعض خلال الفترة التي عاش فيها معنا، واستطعت أن أتعرف عليه بشكل

أكبر. وفي ذلك الوقت كان يفكر في إصدار مجلة شهرية وأطلق عليها اسم Indian Muslims and Islamic Review، وفيما بعد حُذف اسم مسلمو الهند، وبقيت تصدر لعدة سنين باسم Islamic Review. كان حديثنا يتحول في أغلب الأحيان إلى الإسلام والأحمدية، وكان الخواجه يتولى المبادرة فيه. وبذلك اكتسبت فهما لبعض الأمور التي لولا حديثه لظللت جاهلا بها.

وفي إحدى المناسبات مثلا، قال:

- عند وفاة المولوي (كان كثيرا ما يشير إلى حضرة خليفة المسيح باسم المولوي من باب الود والتبسط) لا بد أن تقع مشكلة فيما يتعلق باختيار خليفته. والآن دعنا نرى. هناك محمود (يقصد صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد) ولكنه ليس إلا شابا يافعا؛ وهناك محمد علي وهو مفرط الحساسية؛ ويأخذ في البكاء من أقل شيء. أما عن نفسي، فأنا أعاني من عيب معين وهو أنني لا أستطيع أن أسيطر على نفسي فأقول الحقيقة بمناسبة وغير مناسبة.

وللأسف فإن خبرتي معه جعلتني أود أن أسأله في بعض الأحيان أن يبرهن على وجود ذلك العيب فيه، ولكني تصوّرت أن فكرته عن الحق ربما تختلف عما لدي. وأما عن موضوع الخلافة، فقد ذكّرته بأن قلقه لهذا الشأن كان سابقا لأوانه ولم يكن له ما يبرره، فإن حضرة خليفة المسيح كان كثيرا ما يؤكد أنه عندما يأتي الوقت، فإن الله تعالى نفسه سوف يقرر هذا الأمر ويقيم الخليفة.

وقد أصيب الخواجه باكتئاب فظيع عندما رأى منظرا أعاد إلى ذاكرته الرؤيا التي رأى فيها أن الفأس يكاد يهوي على رقبته ليفصلها عن جسده. وكان اكتئابه مفزعا حتى إنني كنت شديد القلق عليه، خاصة وأنني لم أكن أعلم بسببه. وبعد مرور بعض الوقت، بعد أن استعاد السيطرة على مشاعره، حكى لي الحلمين اللذين رآهما.

* * *

كان الدكتور هنري لايتنر مستشرقا ذا شهرة، وكان يشغل منصب عميد الكلية الشرقية في لاهور خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر. وتوقعا لتقاعده المنتظر، فكر في إنشاء المعهد الشرقي في لندن أو في ضواحيها. وفاتح في ذلك المشروع بعض الحكام المسلمين لبعض الولايات الهندية طلبا لمساهماتهم المالية. وكان من أكبر الممولين للمشروع صاحبة المعالي بيجم بهوبال، والنبيل الأول ورئيس وزراء حيدرأباد، نواب السير سالار جانج. وعند عودته إلى لندن، اختار الدكتور لايتنر لمشروعه قطعة أرض كبيرة قام بشرائها بالقرب من ووكنج في مقاطعة صري، وأقام عليها المعهد الشرقي في تلك المساحة. وبنى أيضا مسجدا صغيرا، ومبنى للإقامة على جزء صغير من الأرض. وقد أطلق على المسجد اسم "مسجد شاه جهان" على اسم صاحبة المعالي بيجم بهوبال، وأطلق على مبنى البيت اسم "سير سالار جانج ميموريال هاوس". كانت مقاطعة ووكنج تبعد عن لندن حوالي أربعة وعشرين ميلا، ولما لم يكن أحد من المسلمين يقيم في ووكنج أو في

ضواحيها، لم تُقم الصلاة في المسجد، وظل كأنه متحف أو مبنى تثير هندسة بنائه فضول الزائرين.

وعندما مات الدكتور لايتنر تحولت جميع ممتلكاته لتكون ميراثا لأسرته وأصبحت تحت إدارتهم. وحول ذلك الوقت كان سيد أمير علي، قاضي المحكمة العليا في كلكتا، رجلا معروفا ذا روح إسلامية وعالما بارزا، وكان له بعض الكتب ذات شهرة واسعة مثل كتاب "روح الإسلام"، "وتاريخ الساراسينيين". وكان قد عُين عضوا في اللجنة القانونية للمجلس الاستشاري الملكي، فاتخذ من لندن مكانا لإقامته. وكان هناك شخص آخر من المسلمين البارزين المقيمين في لندن في ذلك الوقت، وهو مرزا عباس علي بك، وكان عضوا في المجلس الاستشاري لوزير خارجية الهند. وتشاور هذان الرجلان معا، وأخبرا أفراد عائلة الدكتور لايتنر أن المعهد بما حوله من ملحقات، تشمل مسجد شاه جهان، وسير سالار جانج ميموريال هاوس، قد بُنيت وتأسست بأموال قدمها المسلمون، وعلى ذلك فإنها كلها تعتبر أمانة لدى العائلة وينبغي أن تُدار هذه الأملاك كأمانة عامة بواسطة المسلمين ونيابة عنهم.

ولم يكن هذا مقبولا لدى عائلة الدكتور لايتنر، الذين اعتبروا أن الممتلكات كلها ملكا خاصا لهم. ووُضع الأمر في أيدي المحامين، وبعد مفاوضات طويلة تم الاتفاق على تسليم المسجد والبيت والمساحة الصغيرة المحيطة بهما إلى المسلمين، بينما تحتفظ عائلة لايتنر بالمعهد والمساحة الكبيرة من الأرض الملحقة به. وفي تلك المرحلة، قام الخواجه كمال الدين بزيارة سماحة القاضي سيد أمير علي، واقترح أن تُسند إليه مهمة إدارة مسجد شاه جهان والميموريال هاوس، وفي هذه الحالة

سوف ينتقل للإقامة في الميموريال هاوس، وسوف يرتب أمر إقامة الصلاة بانتظام في المسجد. وتشاور سيد أمير علي مع مرزا عباس علي بك والمسلمين الآخرين المقيمين في لندن، وتمت الموافقة على اقتراح الخواجه كمال الدين. وتم إنشاء "مسجد ووكنج ترست" وانتقل الخواجه المحترم للإقامة في الميموريال هاوس، وتولى إدارة المسجد، ولكن صلاة الجمعة كانت تُقام في صالة يتم تأجيرها لهذا الغرض في نوتنج هيل جيت بلندن، وكان يؤمها الخواجه كمال الدين الذي كان يأتي إلى لندن من ووكنج لهذا الغرض.

كانت المسؤوليات المتعلقة بإدارة المسجد وإصدار مجلة "إسلاميك ريفيو" تقتضي عملا وجهدا ضخما، وجد الخواجه المحترم أنه من الصعب القيام به بمفرده على الوجه الأكمل. وطلب المساعدة من حضرة خليفة المسيح، فأرسل لمساعدته فتح محمد سيال الحاصل على درجة الماجستير، وكان شابا أحمديا في غاية الإخلاص والتفاني، فوصل في صيف عام ١٩١٣. وقد رتب الخواجه أن يسافر معه الشيخ نور أحمد، وهو رجل مسن بعض الشيء، وكان يعمل لديه كاتبا قانونيا في لاهور، وكان الغرض من استدعاء الشيخ نور أن يتولى العناية براحة الخواجه الشخصية.

* * *

كانت حياتي في انجلترا تمضي في طريقها بسهولة. وكانت إحدى الأدعية التي وجهني حضرة خليفة المسيح للدعاء بها هي: اللهم ارزقني الصحبة الصالحة. وقد أثمرت هذه الدعوة وآتت أكلها خلال أقل من

ثماني أسابيع من وصولي إلى لندن. وبمجرد الصدفة الطيبة حدث أن التقيت بطالب ألماني يماثلني العمر، وكان قد أتى إلى لندن لدراسة الهندسة والتحق بالكلية الملكية حيث التحقت أنا لدراسة القانون. كان ينتمي إلى عائلة بوميرانية أرستوقراطية من أصل بولندي. وكان والده يعمل في السلك الدبلوماسي ولكنه تقاعد الآن واتخذ إقامته في بلجيكا حيث أصبح يمتلك العديد من الصناعات الكبيرة. وكانت أمه فرنسية. وسرعان ما أصبحنا صديقين حميمين حتى إنه صار بالنسبة لي بمثابة الأخ الحقيقي. وكان هو ذلك الصديق الألماني الذي أشار إليه حضرة خليفة المسيح في رسالته بتاريخ ١٦ سبتمبر (أيلول) ١٩١٣، واستمرت صداقتنا طوال حياته. وقد حارب إلى جانب ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، وجُرح مرتين، ونال نيشان "الصليب الحديدي"، ورُسم فارسا لهوهنْزولرن. وبعد الحرب استأنفنا المراسلات بيننا، وكان قد فقد كل شيء في الحرب ولكنه استمر في مشوار حياته بشجاعة. وانتقل في عام ١٩٢٤ إلى انجلترا واستقر به المقام في لندن. وكنا كثيرا ما نلتقي في لندن، وقام بزيارتنا عدة مرات في الهند.

وأثناء إقامتي في إنجلترا، كانت خطابات حضرة خليفة المسيح مصدر راحة كبيرة لي، وكانت ترفع كثيرا من روحانياتي. وكنت دائما أقتطف الثمار الطيبة لأدعيته لي. وفي أوائل شهر مارس (آذار) ١٩١٤، تلقيت الإذن منه بالسفر إلى القارة الأوروبية لقضاء عطلة عيد الفصح القادمة. وقبل أن أبدأ رحلتي وصلت الأنباء الفاجعة بوفاته من الخواجه كمال الدين. وعندما سألته عن تفاصيل الحدث قال: إن الوضع في غاية الارتباك، وأنا لا أعرف أي تفاصيل. لقد تسلمت ثلاث برقيات،

ذكرتِ الأولى خبر وفاة المولوي المحترم، والثانية قالت إن ميان محمود قد أُعلن خَليفةً، وذكرتْ الثالثة أن انقساما وقع في الجماعة، وأن أولئك الذين انشقّوا وُصفوا بأنهم خونة. ولا أعلم ماذا أفهم من كل هذا.

في تلك الأيام كان البريد القادم إلى لندن من بنجاب يتم تسليمه بعد سبعة عشر يوما. وقد كنت في قلق شديد وينتابني الخوف من شر مرتقب، ولكن لم يكن هناك ما يمكن عمله. وسافرت لقضاء عطلتي ولكن بقلب حزين، ونفس قلقة، وعقل يستعين بالدعاء. وعند عودتي بعد ثلاث أسابيع وجدت رزمة من البريد في انتظاري. وذكرت والدتي في خطابها أن كارثة حلت بالجماعة، إذ وقع انقسام خطير، وأن حضرة صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد هو الخليفة الشرعي. وقد قامت بمبايعته وعليّ أن أقوم بمبايعته على الفور. وكتب والدي إن المسألة تتعلق باختيار كل إنسان، وأنه لن يملي عليّ أي قرار، وعليّ أن أقرر بنفسي بعد التفكير والتدبر في الأمر والاستعانة بالدعاء طلبا للهداية. وقد أقنعتني الدراسة العاجلة للجزء الذي اخترته من البريد أن النقطة المركزية في الخلاف كانت عما إذا كان ينبغي أو لا ينبغي أن يكون هناك رأس روحي للجماعة يتولى السلطة. وكان رأيي واضحا فيما يختص بهذه المسألة، و لم يكن لدي أي شك أو سوء فهم على الإطلاق. وكان من المقرر أن يُجمع البريد بعد ظهر ذلك اليوم، فأخذت قلمي وأبلغت بيعتي إلى حضرة الخليفة الثاني للمسيح. وكتبت رسالة إلى البيت لأخبر والديّ أيضا عن قراري.

الفصل الثامن عشر

المشهد الأخير

بدأت صحة حضرة خليفة المسيح تتدهور مع بداية شهر يناير (كانون الثاني) ١٩١٤، إذ شعر بآلام في أضلاعه، وفي بعض الأحيان كان يشعر بارتفاع طفيف في درجة الحرارة، مع رغبة في القيء، وبدأت قوته تتحول إلى إحساس بالضعف، غير أنه ظل بشوشا واستمر في تقديم الدروس اليومية في تفسير القرآن المجيد. وعندما أحس بأنه لن يستطيع أن يصعد درجات السلم للمسجد الأقصى، قرر إعطاء درس القرآن في فناء المدرسة الأحمدية، ولكن كان يحتاج إلى من يساعده في المشي كي يقطع المسافة القصيرة من المدرسة وإليها. ثم زاد إحساسه بالضعف واضطر إلى نقل الدروس إلى غرفة بمنْزل ابنه الأكبر الذي كان مجاورا لمنْزله، وكان يعطي الدرس جالسا. وقد نصحه الطبيب أن يتوقف عن إعطاء دروس القرآن، ولكنه كان مصمما على أنه ما دام يستطيع الكلام فسوف يستمر في شرح كلام الله تعالى.

ومع بداية شهر فبراير (شباط)، تزايد الشك في أنه يعاني من الدرن الرئوي. وقد وصل الدكتور مرزا يعقوب بك من لاهور، وكرس نفسه مع الدكتور خليفة رشيد الدين للعناية به، غير أنه كان يزداد ضعفا، وأصبح صوته خافتا، وكان يتناول قدرا ضئيلا من الغذاء. وفي ١٤ فبراير استُدعي الكولونيل الطبيب ميلفيل من لاهور، فوصل مع الدكتور سيد محمد حسين، وأجرى فحصا شاملا أكد فيه صحة تشخيص

الأطباء المعالجين، كما أيّد العلاج الذي قرروه، واقترح تقديم المزيد من الأطعمة المغذية. وبعد انصرافه علّق حضرة خليفة المسيح قائلا: لقد استغرق هذا الطبيب من لاهور وقتا طويلا في فحصي، مع أنه من السهل جدا تشخيص المرض الذي أعاني منه، حتى إنني عندما كنت أمارس مهنتي في عيادتي الخاصة، ويحدث أن يدخل عليّ مريض مصاب بهذا المرض ويلقي عليّ التحية، كنت أعلم على الفور من صوته، وحتى بدون النظر إليه، أنه يعاني من هذا المرض.

ونظرا لاستمرار ازدياد ضعفه، قرر الأطباء المعالجون نقله للإقامة في دار نواب محمد علي خان التي كانت تحوطها حديقة كبيرة خارج نطاق البلدة، حيث يمكن له أن يكون أكثر راحة. وكان نواب المحترم شديد الحماسة للفكرة، كما كان سعيدا أن يقوم بواجب الترحيب به، وأكد على ذلك مرتين بنفسه. وأخيرا أبدى حضرة خليفة المسيح موافقته، وتم الانتقال في ٢٦ فبراير.

ومع بداية شهر مارس (آذار)، زاره الدكتور سيد محمد حسين. وأثناء الحديث معه أبدى رغبته أن يتم التعاون بين المسلمين بمختلف مذاهبهم من أجل الوصول إلى أهداف مشتركة. فعلق حضرة خليفة المسيح على ذلك بقوله:

> لقد قدمنا مثالا عمليا على هذا التعاون عندما قمنا بالمساعدة في إنشاء الجامعة الإسلامية، ولا شك أن مثل هذا التعاون مفيد، ولكن ينبغي أن نحافظ على شخصيتنا المتميزة. إن التقدم يزداد مع التميّز، وأما المخالطة العامة فهي تقتل روح

المبادرة وتُوقف مسار التقدم. وبالإضافة، إننا لا نستطيع أن نُخضع أنفسنا لأولئك الذين رفضوا قبول المبعوث الإلهي مؤسس جماعتنا. وفي هذه الحالة إن لم نحافظ على هذا التميّز، فلن نتمكن من الاستمرار في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. عندما تكون هناك جماعة متميزة عن الباقين، فإن هذا التميز سوف يخلق معارضة، وعندما تتزايد المعارضة، يلجأ أولئك المتميّزون إلى الدعاء، ويبذلون المزيد والمزيد من الجهد والعمل. تذكر دائما أنه ما لم تكن هناك مواجهة للصعاب، وما لم يلجأ المرء إلى الدعاء وبذل الجهد، فلا يمكن أن يتحقق التقدم. إن الصعاب تؤدي إلى العمل وبذل الجهد والابتهال إلى الله. أما الشخص الذي يوافق على أي شيء فإنه لا يحقق شيئا.

وفي ٤ مارس (آذار) كتب حضرة خليفة المسيح وصيته، وكانت كما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم نحمده ونصلي على رسوله الكريم

إن هذا العبد المتواضع، وهو في كامل قواه العقلية، يؤكد أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. إن أولادي صغار السن، وأنا لا أملك مالا، غير أن الله تعالى سوف يحفظهم. وينبغي ألا يُعطوا شيئا من أية أموال مخصصة لليتامى أو الفقراء. ولا مانع من تقديم قرض حسن على أن يتم سداده بواسطة من يستطيع ذلك من أولادي. وأما كتبي وممتلكاتي فتوضع في مؤسسة لرعاية مصلحة أولادي. وأما من يتبعني في منصب

الخلافة فينبغي أن يكون صالحا ومحبوبا، واسع المعرفة وكريم السلوك. وعليه أن يتغاضى عن نقائص صحابة حضرته عليه السلام، القدامى والجدد، كما عليه أيضا أن يكون ودودا لهم. لقد كنت أنا أتمنى الخير لكل واحد، وعليه هو أن يكون كذلك. وينبغي أيضا أن يستمر درس القرآن والحديث. والسلام. نور الدين، ٤ مارس ١٩١٤.

وقد ناولها للمولوي محمد علي وطلب منه أن يقرأها أمام الموجودين بصوت عال. ثم أمر بقراءتها مرة ثانية وثالثة، ثم سأل عما إذا كان قد ترك شيئا، فأجاب المولوي محمد علي بأنها على ما يرام. وحينئذ استودعها أمانة لدى نواب محمد علي خان.

وقد أدّى الضعف المتزايد لحضرة خليفة المسيح إلى التفكير فيما عسى أن يحدث في حالة وفاته. وكشف هذا التفكير المتنامي عن وجود اختلاف حاد في وجهات النظر المختلفة، مما كان ينذر بوقوع شقاق وتعطيل لأنشطة الجماعة. وعندئذ قام صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد بكتابة إعلان مفاده أن التعبير العلني عن وجهات النظر المختلفة عندما تكون صحة حضرة خليفة المسيح على ما يرام قد لا يسبب ضررا كبيرا، لأنه كان سوف يجمحه ويسيطر عليه. وأما الآن، وهو في حالة خطيرة من المرض، فإن مثل هذه المناقشات قد تؤدي إلى ما لا يُحمد عقباه من المشاكل والخلافات. وعلى هذا، ينبغي أن تتوقف هذه المناقشات، سواء كانت شفهية أو مكتوبة، إلى أن ينعم الله تعالى عليه بالصحة الكاملة. وقد أرسل مسودة الإعلان إلى المولوي محمد علي،

واقترح أن ينشره مذيّلا بتوقيعهما هما الاثنان. وكان رد فعل المولوي محمد علي أن قال إن الطريق الأفضل هو أن يتم عقد اجتماع عام، ويتكلم فيه كل منهما على الوجه المقترح. وعلى ذلك تم عقد اجتماع في مسجد نور، ودعا المولوي محمد علي صاحبزاده المحترم إلى الحديث أولا، فقال ما كان ذكره في الإعلان المقترح. وتحدث بعد ذلك المولوي محمد علي فوجه توبيخا شديدا لأولئك الذين ينتقدون الخواجه كمال الدين ومن يشاركونه الرأي. وقد استمع الحضور إليه في صمت غاضب متجهم، وفي نهاية حديثه أضاف بعض الكلمات بأسلوب حاد عن ضرورة التوافق. ولم يؤد حديثه إلا إلى المزيد من تنامي مشاعر الغضب التي كانت تسري من قبل.

استمر صاحبزاده المحترم منشغلا بالصلاة والابتهال إلى الله تعالى، كما حث أصدقاءه على فعل نفس الشيء. ولم يكن يعنيه كثيرا نقاط الخلاف بقدر ما كان يؤرقه المحافظة على وحدة الجماعة، التي كان يعلق عليها اهتماما كبيرا. وتحدث مع بعض أصدقائه من أعضاء الجماعة البارزين، ووجد أن الشعور العام لدى أولئك الذين كانوا يؤيدون مقام الخلافة ويؤمنون بنبوة المسيح الموعود عليه السلام، يحتم عليهم ألا يبايعوا أحدا يعارض هذه الثوابت، حيث إن هذا يعني انتهاء الأحمدية. ولكنه كان على قناعة بأن وحدة الكلمة لها الأولوية، وينبغي عدم التضحية بالوحدة في سبيل بعض الشخصيات. ولهذا بدأ في إقناع أصدقائه بأنه إذا كان الأمر سيؤدي إلى وقوع انقسام في الجماعة بعد انتقال حضرة خليفة المسيح إلى جوار ربه، فإنه ينبغي عليهم لتلافي ذلك أن يختاروا واحدا من المجموعة الصغيرة التي تضم المولوي محمد علي وزملاءه، لأن فريق هذه

المجموعة لن يقبلوا أحدا يختلف معهم، مما يؤدي حتما إلى وقوع الانقسام. ولكن إذا قام هو بمبايعة واحد منهم، فإن أصدقاءه سوف يحذون حذوه وبذلك يمكن تجنب انقسام الجماعة. وبعد ظهيرة أحد الأيام، قضى ساعتين من الزمان مع المولوي سيد محمد سرور شاه، وهو أحد أكابر أفراد الجماعة البارزين، وكان يحاول إقناعه بأنه في حالة وقوع اختلاف على شخص الخليفة، فينبغي أن يكونوا على استعداد لمبايعة واحد من المجموعة الأخرى. وأما عن وجهات الخلاف فيما يتعلق بالموضوعات الأخرى، فما دام الخليفة لم يصدر أي توجيه بخصوصها، فسيكونون هم أحرارا في اتباع كل ما يؤمنون بصحته والمحافظة على ما يعتقدون بحقيقته. وإذا حدث أن أصدر الخليفة توجيهات تتعلق بهذه الأمور، فسوف ينبغي عليهم أن يطيعوا الخليفة ويلتزموا الصمت، تاركين الأمر في يد الله عز وجل الذي هو الحارس الحقيقي لهذه الجماعة والحفيظ لها.

وخلال الأيام الأخيرة من مرض حضرة خليفة المسيح، حدث أن قال له پير افتخار أحمد إن المتصوّفين يعتبرون حياة المتصوّف مصدرا للبركة، سواء لنفسه أو للآخرين. ولذلك اقترح عليه أن يدعو الله تعالى كي يعيد إليه صحته. فأجابه حضرته قائلا: إنني أسمع دائما: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ۞ وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ (القيامة:٢١، ٢٢). وكانت هذه هي نفس الإجابة التي أعطاها أبو بكر رضي الله عنه عندما كان في نفس الموقف، حيث قال: لقد دعوت الله تعالى، وتلقيت الإجابة التالية: إني أنا العليم. أفعل ما أريد.

* * *

وقبل ظهيرة يوم الجمعة ١٣ مارس (آذار) أرسل حضرة خليفة المسيح يستدعي ابنه الأكبر ميان عبد الحي وقال له: لقد آمنتُ دائما أنه لا إله إلا الله وإني أموت على هذا الإيمان. وأنا أحترم جميع صحابة الرسول ﷺ. وبعد القرآن المجيد أعتبر أن كتاب صحيح البخاري هو أكثر الكتب قبولا عند الله. وأؤمن بحضرة مرزا غلام أحمد كمسيح موعود ومهدي معهود. وقد أحببته حبا جمّا، حتى إن أبناءه أعز عندي منك. إنني أستودعك الله تعالى، وأنا على يقين أنه لن يُضيّعك. وأنصحك أن تقرأ كتاب الله، وتُعلّمه للآخرين، وتعمل بأوامره. لقد رأيتُ أشياء عظيمة كثيرا، ولكني لم أر شيئا أعظم من القرآن الكريم، ولا شك أنه حقا كتاب الله. وفيما عدا ذلك فإني أستودعك الله.

واقترب موعد أداء صلاة الجمعة، وانصرف الجميع لأداء الصلاة في المسجد الأقصى، عدا شخصين أو ثلاثة. وقد تيمّم حضرة خليفة المسيح وأدّى الصلاة. و لم يكد ينتهي من أداء الصلاة حتى أصبح تنفسه صعبا، وفي خلال بضع دقائق غادرت روحه الطاهرة جسده الكريم وانطلقت للقاء بارئها، إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وعندما وصلت أنباء الفجيعة إلى المسجد الأقصى حيث كان صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد قد انتهى لتوّه من إمامة صلاة الجمعة، اتجه الناس جميعا إلى منْزل نواب محمد علي خان لإلقاء النظرة الأخيرة على قسمات وجه ذلك الإنسان الذي كرّس كل لحظة من حياته من أجل العمل على ما فيه خيرهم من الناحية الروحية والمادية. وبعد ذلك اجتمع عدد كبير من الناس في مسجد نور لأداء صلاة العصر، وهو المسجد الأقرب لمحل إقامة نواب محمد علي خان. وبعد أداء

الصلاة، تحدث صاحبزاده مرزا بشير الدين محمود أحمد إلى المصلين، فقال ما يلي:

بحسب قضاء الله تعالى، فقد انتقل حضرة خليفة المسيح إلى جواره، فعسى أن يؤتيه سبحانه رحمته وينْزل عليه بركاته الواسعة، وأن ينْزله أعلى الدرجات في الجنة، وأن يحشره في صحبة الرسول ﷺ والمسيح الموعود عليه السلام الذي قضى حياته مخلصا لهما بكل جوارحه، وتشبع قلبه برحيق حبهما. آمين.

والآن فإن المسؤولية التي تقع على عاتق الجماعة الإسلامية الأحمدية مسؤولية كبيرة وثقيلة. والجماعة بأكملها تواجه محنة شديدة. ومن يجتاز هذه المحنة فسوف يفوز بحب الله تعالى ورضاه، بينما من يخفق في اجتياز المحنة فلن يكون عند الله من الصالحين. وينبغي علينا أن نستعد بكل قوانا لاجتياز هذه الاختبار. وضعوا في اعتباركم دائما أن أحسن الأعمال وأحكم التدابير تتحوّل إلى مصدر خطر داهم إن لم تكن النية من ورائه نية خالصة طيبة. إن الصلاة وسيلة رائعة للعبادة، ومع ذلك قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ﴾ (الماعون:٥-٧). وعلى هذا، فإن الصلاة التي لا يكون الدافع من أدائها طيبا نقيا، لا تكون وسيلة للحصول على الطيبة والنقاء، ولا سببا للوصول إلى القرب من الله تعالى، وإنما تصبح لعنة.

لقد أمرنا الله تعالى أن نستعيذ به من الشيطان الرجيم قبل أن نتلوا القرآن المجيد، وكل سورة فيه تبدأ باسم الله، وهي وسيلة لطلب الحفاظة الإلهية. وهذا أيضا يشير إلى ضرورة الاستعانة بالله تعالى من تأثير الشيطان الرجيم، ومن الأفكار السيئة والظنون الخبيثة التي تتسرب إلى عقولنا، وطلب حفاظته قبل البدء في أي عمل هام يماثل قراءة القرآن الحكيم، وأيضا في طلب الحفاظة الإلهية لأنه أعطانا القوة والقدرة على القيام بما نقوم به من أعمال. إن الكثير من الناس يفوزون بنوال رحمة الله تعالى وبركته من خلال آية من آيات القرآن المجيد، ونفس الآية يمكن أن تكون سببا في دمار وهلاك كثيرين أخر، ولهذا قضى الله تعالى بضرورة طلب الحفاظة الإلهية والعون الإلهي. وباختصار، مهما كان الغرض عظيما أو كان الهدف نبيلا، إن لم تكن النية من ورائه خالصة وصادقة، يظل هناك دائما خطر أن يبتعد هذا الغرض أو ذلك الهدف بالإنسان عن الله تعالى.

إننا لن نستطيع أن نفي بالمسؤولية الخطيرة التي فُرضت علينا في هذا الظرف العصيب بغير أن يشملنا الله تعالى برحمته، ويهدينا بخالص فضله، ويمنحنا القوة على ذلك. ولهذا فإني أنصحكم أن تقضوا كل الوقت المتاح لكم في الابتهال والتضرّع إلى الله تعالى: اللهم اهدنا سبيل الحق حتى ننجوا من الهلاك ونفوز برضاك والقرب منك. إن هذه المسؤولية ثقيلة، ولا نستطيع أن نحملها ولا أن نؤدي ما علينا كما ينبغي بدون عون الله وتأييده، فركزوا على الدعاء: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ

الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الفاتحة:٦). ونحن لا نعلم ما الذي يمكن أن يحدث غدا أو بعد غد، فكل هذا مخبوء في رحم الغيب، وإن لم يعيننا ويؤيدنا عالم الغيب فإننا نكون عرضة للهلاك والخسران. ولهذا ادعوا الله، تضرعوا إليه، اسألوه العفو والمغفرة، وأن يكون لكم درعا واقيا من الوقوع في الخطأ، اطلبوا منه الهداية، واستنْزلوا الصلوات والرحمات على سيد الخلق ﷺ. وابتهلوا إليه بحرقة وشجون: اللهم أعنّا لنجتاز هذه المحنة بفضلك يا أرحم الراحمين. لقد جاء مسيحك وأنكره الكثيرون فتعثروا وسقطوا على هذا الحجر وأهلكوا أنفسهم؛ ولكنك هديتنا بفضلك وخالص رحمتك. وعند وفاته واجهنا مرة أخرى محنة عصيبة، ولكنك هديتنا أيضا بفضلك وخالص رحمتك. فأنزل علينا فضلك مرة أخرى، واهدنا، وأفض علينا بركات من لدنك تعمّ جميع أمورنا، ولا تشمت بنا الأعداء ولا تدعهم يفرحون لمصابنا، واختر بفضلك رجلا صالحا من بيننا ليقوم بخدمة الدين. آمين.

فلينشغل كل امرئ منكم بالدعاء في كل حين. انهضوا من نومكم خلال الليل وتضرّعوا إلى الله. إن الله يزيل جميع المصاعب بخالص فضله تعالى، فضعوا ثقتكم في الله، واعلموا يقينا أن جميع وعوده حق. لقد تحقق كل ما وعد الله به المسيح الموعود، وسوف يستمر تحقيق هذه الوعود. إن الإنسان قد يخلف وعده، ولكن وعد الله حق ولن يخلف الله وعده. آمنوا

بوعود الله، ولتكن ثقتكم فيه وتوكلكم عليه. إنني سوف أدعو الله الآن، وعليكم أن تشاركوني في تضرعاتي إلى الله، ثم استمروا بعد ذلك في الابتهال والدعاء إليه.

ورفع يديه في تضرع صامت، وهكذا رفع جميع الحضور في المسجد أيديهم ابتهالا إلى الله. كان كل فرد في المسجد قد تحرك وجدانه ورق قلبه وانهمرت الدموع من العيون، وسرعان ما تحول المسجد إلى ساحة للبكاء والنحيب. واستمر الدعاء لبعض الوقت، حتى إذا ما انتهى الدعاء شعر كل فرد براحة وطمأنينة. وطلب صاحبزاده من كل من يستطيع الصيام من الحاضرين أن يصوم في اليوم التالي. ثم انصرف صاحبزاده بعد ذلك وعاد إلى منْزل نواب محمد علي خان. ولكنه كان مضطربا وشعر بحاجة إلى أن يخلو إلى الله تعالى بالصلاة والدعاء، واستجابة لإحساسه هذا طلب من المولوي محمد سرور شاه ألا يتبعه أحد لأنه يريد أن يخلو بنفسه. وبينما كان يجتاز الحديقة بسرعة، لمحه من بعيد المولوي محمد علي، الذي كان مجتمعا مع مجموعة من أصدقائه، وجاء سريعا لمحادثته. وانخرط الإثنان في حديث طويل ذهابا وإيابا إلى أن نادى المؤذّن لصلاة المغرب.

* * *

وقد لخص صاحبزاده المحترم فيما بعد هذه المحادثة كما يلي:

- المولوي محمد علي: من الأفضل أن يتم الاتفاق على كل شيء من خلال المشاورة. وبعد وفاة حضرة خليفة المسيح لا ينبغي تقرير شيء على وجه الاستعجال، وإنما لا بد من التشاور بشكل تام وشامل.

- صاحبزاده: نعم إن العجلة أمر غير محمود، وبالتأكيد لا بد من الشورى في الأمر. وهناك أعداد كبيرة من الجماعة يفدون إلى قاديان، وبقدوم الغد سوف يكون قد وصل عدد غفير، فالكثير من أعضاء الجماعة البارزين يقيمون على مسافات قريبة وسوف يصلون في الغد، ويمكن إجراء التشاور المطلوب بعد وصولهم.
- المولوي محمد علي: هذه السرعة ليست محمودة. وما دام هناك اختلاف في وجهات النظر، فينبغي أن يُتخذ القرار بالإجماع بعد إتاحة الفرصة لبحث الأمر من جميع الوجوه. ولندع جميع أفراد الجماعة يفكرون في الأمر بتدبر لمدة أربعة أو خمسة شهور، ثم ينبغي أن يكون بعد ذلك تبادل لوجهات النظر، وأيما كان القرار بعد ذلك فينبغي أن يُنفّذ.
- صاحبزاده: السؤال الأول هو: ما هي أوجه الخلاف؟ السؤال التالي هو: إذا حدث خلال فترة التشاور هذه أن وقع أمر في الجماعة يستلزم اتخاذ قرار لمعالجته، فمن سيكون المسؤول في غياب القائد؟ عندما انتقل المسيح الموعود إلى جوار ربه، تشاور على الفور الناس الذين اجتمعوا مع بعضهم البعض ووصلوا إلى قرار. كذلك فإن هذا الأسلوب كان هو المتّبع في صدر الإسلام، ولم يحدث أبدا أن كانت هناك فترة انتظار لمدة ستة شهور قبل المسيح الموعود ولا بعده.

- المولوي محمد علي: في السابق لم يكن هناك اختلاف في وجهات النظر، ولكن يوجد خلاف الآن. وبالإضافة، ما هو الضرر في الانتظار لبعض الوقت؟ ما هو الذي سيفعله الخليفة غدا؟
- صاحبزاده: عند وفاة المسيح الموعود عليه السلام اتفقت الجماعة على أن يقوم بعده نظام الخلافة، والأمر لا يحتاج إلى مزيد من التشاور حول هذا الموضوع، كما لا يمكن إعادة بحث هذا الموضوع الآن. إن التشاور ينبغي أن يكون فقط عمّن يكون شخص الخليفة. أما سؤالك عما سيفعله الخلفة غدا، فالإجابة هي أنه بالإضافة إلى الإشراف الروحي على الجماعة، فإنه من مهمام الخليفة أن يحافظ على وحدة الجماعة، وأن يقيها شر الانقسام ووقوع الفوضى، وممارسة هذه المهمة ليست أمرا مرئيا حتى يمكن أن أعطيك أمثلة عليها. كذلك على الخليفة القيام بالتربية الروحية للجماعة والمحافظة على النظام فيها. والتربية الروحية ليست مهمة مادية يمكن تحديدها، وليس هناك زمن معين يمكن يحدث فيه الخروج على نظام الجماعة أو يضمن عدم وقوعه قبل تاريخ معين. ومن المحتمل أن يحدث شيء ما غدا يستلزم وجود يد عليا. وعلى ذلك، نحّ جانبا موضوع ما إذا كان ينبغي أن يوجد خليفة أو لا يوجد. ولتكن الشورى حول من هو الشخص الذي ينبغي أن يكون خليفة.
- المولوي محمد علي: هذا يُحدث الآن مشكلة. فما دام الاختلاف العقدي موجودا حول موضوع الخلافة، فسوف يكون هناك

خلاف في الرأي حول اختيار شخص الخليفة، ونحن لا نستطيع أن نبايع شخصا نختلف معه على أمر عقدي.

- صاحبزاده: حسب علمي ليس هناك خلاف يمنع من مبايعة شخص من هذا الجانب أو من ذاك. وفي أي من الأحوال فنحن على استعداد لمبايعة أي شخص من جانبكم.
- المولوي محمد علي: هذا أمر صعب، وعليكم أن تفكروا أكثر في الأمر وتتشاوروا فيه فيما بين أنفسكم، ثم نلتقي بعد ذلك غدا.

وعملا باقتراح المولوي محمد علي، كتب صاحبزاده قائمة تتضمن أسماء ستين شخصا، وطلب من المولوي سيد محمد سرور شاه أن يدعو هؤلاء الأشخاص إلى الاجتماع في نفس الليلة للتشاور. وبعد التشاور تم الاتفاق بالإجماع على أنه قبل أن يتم دفن رفات حضرة خليفة المسيح، فإنه ينبغي أن يتم انتخاب خليفة له كامل سلطات الخليفة، وهو الذي يرتب أمر الجنازة والدفن. وتم الاتفاق أيضا على ضرورة قضاء تلك الليلة في التضرع إلى الله تعالى كي يحفظ الجماعة بخالص فضله على الطريق المستقيم، وأن يمكنها من السير في ربوع رضاه، وأن يكون يوم الغد يوم صوم لله، مع الاستمرار في المزيد من الابتهال والتضرع إليه.

ومع قدوم ظهر اليوم التالي تجمّع أكثر من ألف شخص من الذين وصلوا من خارج قاديان. وتشاور صاحبزاده المحترم مع أفراد عائلته بخصوص الموقف الذي وقع، وأعرب بعضهم عن أنه ينبغي عليهم الاستمرار في التمسك بالعقائد التي يؤمنون بصحتها ويعملون على نشرها، ومن أجل تحقيق هذا الغرض كانوا يرون أن الخليفة ينبغي أن

يكون واحدا ممن يشترك معهم في الإيمان بهذه العقائد. غير أن صاحبزاده المحترم كان من رأيه أن الحفاظ على وحدة الجماعة أهم من أي شيء آخر، وكان يرى أن انتخاب الخليفة واجب ديني، فإذا تم الاتفاق على ذلك يكون من الممكن انتخاب الخليفة بأكثرية الأصوات للحاضرين. فإذا لم يكن هذا الرأي مقبولا لدى الطرف الآخر، فيمكن الاتفاق على انتخاب شخص محايد غير منحاز لأي فريق، فإذا لم يتم قبول هذا الرأي أيضا يمكن انتخاب شخص يرضى عنه الطرف الآخر أو يكون واحدا منهم. وفي النهاية اتفق جميع أفراد العائلة على ما قدمه من مقترحات.

وفي هذه المرحلة وصلت رسالة من المولوي محمد علي تفيد بأنه يريد استئناف الحديث الذي بدأه بالأمس، فدعاه صاحبزاده المحترم إلى الحضور، فجاء في صحبة بعض أصدقائه. وكان موجودا مع صاحبزاده في ذلك الوقت المولوي سيد محمد أحسن، ونواب محمد علي خان، والدكتور خليفة رشيد الدين. واستؤنف الحديث في نفس الاتجاه الذي سار عليه في اليوم السابق. وقد حدث أن ثار نقاش حول الخلافات العقدية بين المولوي سيد محمد أحسن والمولوي محمد علي، غير أن صاحبزاده المحترم أوقف ذلك النقاش، وسأل المولوي محمد علي عما عساه أن يحدث لو أن الإجماع الذي يريده لم يتحقق بعد الانتظار لهذه المدة الطويلة؟ وإذا كان ينبغي حينذاك أن يؤخذ القرار بأغلبية الأصوات، فلماذا لا يتقرر الأمر الآن بأغلبية الأصوات؟

في تلك الأثناء تجمّع الناس في مسجد نور، وكان يسودهم شعور من الإثارة والاضطراب والترقب. ويبدو أنه بعد ٤ مارس (آذار)، بعد أن كتب حضرة خليفة المسيح وصيته وقرأها المولوي محمد علي ثلاث

مرات، والتي كتب فيها أن من يتبعه في منصب الخلافة ينبغي أن يتحلى ببعض الصفات المعينة، أن المولوي محمد علي قام بإعداد منشور ذكر فيه أن الحاجة إلى وجود خليفة، بالمفهوم السائد، لم يعد قائما بالمرة. وقد طُبع هذا المنشور ووزّعت نسخ منه على أصحابه مع توصياته بأن يُنشر ويوزّع على أوسع نطاق بمجرد وصول الأنباء بوفاة حضرة خليفة المسيح. وكل من وصل إلى قاديان بعد أن علم بأخبار الفاجعة كان قد تسلم نسخة من هذا المنشور وهو في طريقه إلى قاديان. وقد غضبت الكثرة الغالبة منهم غضبا شديدا لهذه التدابير الفاسدة والدعايات الخرقاء، كما كانت الأغلبية حريصة أيضا على أن يتم انتخاب الخليفة على الفور.

ولم تؤد المحادثات إلى أي تقدم، وكانت جميع الدلائل تشير إلى ضرورة فض الاجتماع بأسرع ما يكون. واقترح صاحبزاده أنه لما كان الأمل يبدو منعدما في الوصول إلى اتفاق، فيكون من الأفضل أن ينفض اجتماعهم ويلتقي الجميع في مسجد نور للتشاور مع أولئك الذين تجمّعوا هناك. وحينئذ اندفع المولوي محمد علي قائلا:

- إنك تقول هذا لأنك تعلم من سوف ينتخبون.
- صاحبزاده: على العكس، فأنا على استعداد لمبايعة أي واحد منكم.
- المولوي محمد علي: ومع هذا فأنت تعلم ماذا يفكرون.

وعند هذا الحد، أصبح صاحبزاده المحترم على قناعة بأنه لا سبيل إلى الاتفاق، فقال:

- إننا نؤمن بأن علينا واجب ديني يفرض علينا المحافظة على نظام الخلافة، وأنت تظن أن الخليفة لا أهمية لوجوده، ولا سبيل إلى رفع هذا الخلاف. وعلى هذا فأنت حر في أن تفعل ما تشاء. إننا سوف نتشاور سويا، وسوف نبايع من نتفق على خلافته.

وعلى هذا انتهى الاجتماع بين الطرفين. وذهب صاحبزاده المحترم وزملاؤه إلى المسجد حيث كان ما يقرب من ألف وخمسمئة إلى ألفين شخص في انتظارهم. وأمّ صاحبزاده صاحب صلاة العصر. ثم قرأ نواب محمد علي خان وصيّة حضرة خليفة المسيح التي كتبها في ٤ مارس (آذار) ١٩١٤ التي كانت مودعة في حوزته، ثم أضاف قائلا: لقد أديت الأمانة التي استودعني إياها حضرة خليفة المسيح، والأمر الآن لكم لتقرروه كما ترون. وقد استُقبلت كلمته بهتافات تصاعدت من جميع أرجاء المسجد تؤكد: حضرة ميان صاحب، حضرة ميان صاحب. وفي وسط هذا الصخب، وقف المولوي سيد محمد أحسن وقال في صوت جهوري: لقد قال عني المسيح الموعود عليه السلام إنني أحد الملاكيْن المذكوريْن في الحديث الشريف الذي يذكر أن المسيح سوف ينْزل في آخر الزمان واضعا يديه عليهما. وأنا أعتبر أن صاحبزاده بشير الدين محمود أحمد هو الشخص الكفء من جميع الوجوه والذي يستحق أن نبايعه، وعلى ذلك فإني أطلب منه أن يقبل بيعتنا. وهنا وقف كل من المولوي محمد علي وسيد حامد شاه، وأراد كل منهما أن يقول شيئا، وبدأ كل منهما يجادل الآخر وينازعه في من ينبغي أن يتحدث أولا. و لم يكن الحاضرون في حالة تسمح بتحمل مثل ذلك الجدال والنّزاع، فوقف الشيخ يعقوب علي عرفاني وعبر عن الشعور السائد قائلا: إن الوقت

أثمن من أن نضيعه في مثل هذه المجادلات. يا سيدي، نرجو منك أن تقبل بيعتنا. وقد استقبل الحاضرون كلامه بهتافهم: لبيك لبيك. وبدأ الناس يتدافعون للأمام في اتجاه صاحبزاده المحترم. وحينئذ انسحبت القلة المنشقة من الاجتماع. و لم يحاول أحد أن يعوق خروجهم.

وهبط على الجميع صمت تام، رغم أن الجميع كانوا يتوقون أن يكونوا في أقرب مكان إلى صاحبزاده. وجلس هو في صمت كأنه كان يدعو الله تعالى. فجاء إليه القاضي أمير حسين، وهو أحد كبار رجالات الجماعة، وكان يبدو في اضطراب كبير، وتوسل إليه قائلا: حضور، أرجوك أن تقبل بيعتي. ورفع صاحبزاده عينيه ونظر وكأنه كان يبحث عن شخص ما، حتى رأى سيد محمد سرور شاه صاحب مضغوطا بين الجموع المتلهفة، فقال له: حضرة المولوي المحترم، هذه المسؤولية الثقيلة قد وُضعت عليّ فجأة بغير حسبان، ولا أستطيع أن أتذكر عهد البيعة، فهل تتفضل بتوجيهي في هذا السبيل. وبهذا بدأت إجراءات مبايعة حضرة الخليفة الثاني للمسيح، فكان هو يذكر كلمات عهد البيعة كما كان يوجهه فيها سيد محمد سرور شاه، ويرددها الجميع من بعده. وكان عهد البيعة كما يلي:

أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله (مرتان) اليوم، في الجماعة الأحمدية، أتوب إلى الله من جميع ذنوبي على يد محمود، وسوف أجاهد بما أعطاني الله من قوة لتجنب جميع الذنوب في المستقبل؛ ولن أشرك بالله شيئا، وسوف أقدم الدين على جميع الاعتبارات الدنيوية، وسوف أبذل ما وسعني لتنفيذ

جميع تعاليم الإسلام، وسوف أطيعك في كل ما تأمرني به من معروف.
إنني أؤمن بأن سيدنا محمد ﷺ خاتم النبيين؛ كما أؤمن بكل ما أعلنه المسيح الموعود؛ وسوف أسعى لنشر الإسلام.
أستغفر الله ربي من كل ذنب وأتوب إليه (ثلاث مرات)
ربي إني ظلمت نفسي، استغفرت لذنبي، فاغفر لي ذنوبي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت.

وعندما انتهت عملية المبايعة، انخرط حضرة الخليفة الثاني للمسيح في دعاء صامت طويل صاحبه فيه الجميع، ثم ختم بحديث قصير.

وهكذا عاد أعضاء الجماعة الإسلامية الأحمدية، الذين مزقهم الحزن، وعصفت بهم أنواء الخوف والترقّب، إلى شاطئ الأمن والاتحاد في أخوّة روحية، فاطمأنت جميع القلوب، وشعرت جميع الأرواح والنفوس بالأمن والسكينة. وشعر كل منهم بعد أن علاه التأثر وحركت فؤاده الأحداث، أن السكينة قد عادت إلى القلوب، وملأ الرضا النفوس، وبدلهم الله من بعد خوفهم أمنا.

بعد ذلك أمّ حضرة الخليفة الثاني صلاة الجنازة على حضرة الخليفة الأول. وكان هناك حشد كبير من الأحمديين وغير الأحمديين، ومن الهندوس والسيخ والمسيحيين، ومن الرجال والنساء والأطفال، الذين تجمّعوا جميعا عرفانا واحتراما لهذه الشخصية التي عم فضلها الجميع بلا أي تفرقة ولا تمييز، والذي فاض قلبه بالمحبة والعطف على الجميع. وقبل غروب الشمس، عادت رفاته الطاهرة إلى الأرض الطيبة، في الجانب

الغربي من رفات سيده الحبيب المسيح الموعود عليه السلام، الذي من أجل اتّباعه تخلّى عن كل شيء في دنياه.

اللهم أنزل على قبره وابلا من رحمتك؛
وأدخله بخالص فضلك في دار نعمتك.

* * *

وقد نشرت جميع الصحف كلمات العزاء والتأبين في جميع أرجاء الهند، تقديرا منها لهذا الإنسان العظيم، صاحب الفضل والمعروف الذي غمر بهما الجميع. ويمكن أن نقدم فيما يلي نموذجا أو اثنين مما نشرته تلك الصحف.

كتبت صحيفة زميندار تقول:

من بين الأخبار البرقية التي سوف يحزن لها المسلمون، وخاصة الأحمديون منهم، وفاة المولوي الحكيم نور الدين، الذي انتقل إلى رحمة الله يوم ١٣ مارس ١٩١٤ بعد مرض استمر لبضعة أسابيع. لقد كان حضرته واسع المعرفة، وبحرا من العلوم، وجهبذا من العلماء، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

كان المولوي الحكيم نور الدين معروفا بين أتباعه بلقب خليفة المسيح، وهو الذي خلف المرحوم مرزا غلام أحمد. ولا شك أن وفاته ستكون صدمة عنيفة لجميع أتباعه، وسوف يظل تأثيرها عليهم ماثلا لمدة طويلة. وحتى بعيدا عن الاختلافات العقدية، فإن شخصية وصفات ومواهب مولانا الحكيم نور الدين كانت من السمو بمكان، حتى إن المسلمين جميعا سوف

يحزنون لوفاته. وقد قيل إن الزمان يحتاج إلى قرون كي يجود برجل في عبقريته المتفرّدة. لقد كان مولانا الحكيم نور الدين بمعارفة الواسعة وعلومه الشاملة رجلا يتميّز بهذه العبقرية. إننا نبكي اليوم على هذه الخسارة الكبيرة لهذا العالم البارز. ونشعر بالتعاطف المخلص مع أصدقائنا الأحمديين الذين آلمهم بشدة هول الفاجعة. وندعو الله تعالى الرحيم أن يُدخل المولوي الحكيم نور الدين في رحاب رحمته، وأن ينعم على أتباعه وعلى أهله بالصبر والسلوان.

وكتب رئيس تحرير جريدة كرزون جازيت يقول:

إننا لم نعرف المرحوم المولوي الحكيم نور الدين عن قرب فقط، بل إننا كنا على صلة وثيقة به لعدة سنين في جامون. فكنا نلتقي كل ليلة، وكان رجلا كريم القلب محسنا بمعنى الكلمة. وكان يتصف بخفة الظل. كان طويل القامة، نبيل المظهر، جميل اللون، وله لمّة كثيفة. وقد أشرف على مدارس الولاية ومستشفياتها بكفاءة واخلاص وأمانة. وكان يتمتع براتب كبير، ولكنه كان يخصص الجزء الأكبر منه للإنفاق على الطلبة المعوزين وإعالتهم. وقد عمل على مساعدة المئات من الطلبة الفقراء خلال حياته. وتحوّل الشيخ عبد الله، الذي كان أحد البراهمة الكشميريين، إلى الدين الإسلامي نتيجة لتبليغه إياه. فكان يساعده ويدفع له مصاريف تعليمه ومعيشته إلى أن تخرج وأصبح محاميا، واستطاع أن يمارس مهنته في

عليغره. ومن جانبه، اهتم الشيخ عبد الله بضرورة تعليم المرأة، وأصدر صحيفة عن المرأة باسم "المرأة" من عليغره.

وعلى هذا كان الحكيم نور الدين مثالا حيا للخير والإحسان. وتملكت منه رغبتان عظيمتان، مساعدة الطلبة الفقراء وجمع الكتب النادرة، فأنفق دخله الكبير على هذين الغرضين. وكان متواضعا للغاية كما كان كريما مضيافا، وأدى كل مهمة أسندت إليه بأمانة وتقوى. ويشهد على ذلك أن جميع من كان يعمل تحت إدارته كان سعيدا بعمله، ولم يشتك منهم أحد أبدا. كان فذا واسع المعرفة، كما كان عالما عظيما، وكان يتمتع بإتقان اللغة العربية. وفي أوقات فراغه كان يعطي دروسا عن صحيح البخاري ومسلم. وقد أنعم الله عليه بمعرفة واسعة في أمور الدين.

وأما مولانا أبو الكلام آزاد، الذي كان هو نفسه أحد مشاهير العلماء، كما كان رجل دولة أيضا، وأصبح فيما بعد رئيس الكونجرس لجميع الهند ووزير التعليم، فقد كتب في جريدة "البلاغ" تحت عنوان كبير يقول: وداعا نور الدين، فقال:

يؤسفني أن أكون الأخير في تقديم التعازي والتعبير عن مشاعر الألم لرحيل إمام الجماعة الإسلامية الأحمدية، والخبير الطبي الفريد الذي حباه الله بالمعارف والحقائق الأزلية، الحكيم المولوي نور الدين. لقد جمعت تلك الشخصية الفذة آفاقا واسعة من المعارف مع كنوز وفيرة من السلوك العملي تعبيرا

عن الصلاح الحقيقي والتقوى العالية، والآن لم تعد هذه الشخصية العظيمة تعيش بيننا. إن المعارف الواسعة في كل ما يتعلق بالدين، والفهم العميق للحقائق، في قالب من العلم الذي يشمل كل أنواع الآداب والفنون، من الصحف المقدسة إلى الأعمال الأدبية العظيمة، قد سمت بعقلية نور الدين إلى مستويات عالية، استطاعت منها أن تستوعب وتنفذ إلى أسرار المشاعر البشرية. ولهذا فإن كلماته القليلة الغنية بالمعاني والحِكم البالغة أثر كبير في فرض الصمت المطبق على معارضيه. لقد كان كيانه كله مزيجا عجيبا من الحماسة للدين والمعرفة الواسعة. وكانت رؤيته الشاملة للكون بمثابة شبكة مغنطيسية كبيرة تجذب الحكمة وتفيض بها. واستطاعت بحوثه الفلسفية المتوائمة مع التقوى الكاملة أن تفتح أمامه أسرار السماء، حتى إن إيمانه العميق بالله وثقته البالغة في قدرته وحكمته قد تجلت في جميع أفكاره.

لقد كان الجزء الأخير من حياته مكرّسا للجماعة الإسلامية الأحمدية، وكان يقضي أيامه ولياليه في سعي دؤوب من أجل تحقيق أهدافها الروحية. ولا شك أن إخلاصه المطلق وطاعته التامة الكاملة التي كان يدين بها نحو أستاذه الروحي، لم يكن لها من مثيل سوى في المسلمين الأوائل. إن تقرير وفاة المسيح عيسى ابن مريم وفاة طبيعية، وهو الذي كان معروفا بوجه عام أنه حي بجسده في السماء، واعتبار المهدي والمسيح شخصية واحدة، كانت رسالة عويصة وجرعة مرة بالنسبة

لعلماء الدين في الهند. وكانت عاصفة المعارضة التي أثارها هذه الأفكار الجديدة مثل زمجرة الرعد المطبق؛ غير أن عتوّ هذه العاصفة لم تؤثر في شيء على ثبات إيمان نور الدين. فقد وقف بكل صلابة وثبات وثقة كالجبل الراسخ، لا يتزحزح في مواجهة الأعاصير العاتية والرعود المدوّية. ولم يهدأ له بال، ولم يخدش ثباته سوء حال، إلى أن أذن له الله بعد أن لفظ آخر أنفاسه أن يجد الراحة بعد حياة العناء التي كانت روحه تتوسد فيها وسادة صخرية من البحث والكد والتعب. ورغم أني لا أجد نفسي في توافق مع بعض أفكار الجماعة الإسلامية الأحمدية، إلا أنني أنظر بعجب وإعجاب إلى هذا الأتون الروحي الذي استطاع لهيبه أن يذيب جمود عواطفي لأذرف عليه دموع الحب والمودة.

إن هذه الشخصية الشريفة المشرّفة لنور الدين قد غابت عن أعيننا المادية، غير أن آثارها سوف تظل واضحة المعالم على صفحة الكون، لتكون بمثابة العلامات التي تهدينا للوصول إلى بر اليقين. عسى أن يسكب فضل الله ورحمته رحيق عنبره على ترابك يا نور الدين.

* * *

كان هذا سجلا مختصرا للمنجزات العديدة المتنوّعة، والأهداف النبيلة العالية، التي حققتها هذه الشخصية الفذة للحافظ، الحاج، الحكيم، المولوي، نور الدين، الخليفة الأول. وقد وقفت مقتضيات الالتزام بحجم

الكتاب حائلا دون تقديم سجل مفصل لحياته المباركة. ولكن هناك جانبا من الخدمات الجليلة التي أداها للأحمدية وللإسلام وللإنسانية، ينبغي أن يُلقى عليها الضوء. يقول القرآن المجيد إن جهود أهل الكتاب ضد الإسلام سوف تتضافر في آخر الزمان، وسوف يحاولون القضاء عليه بشتى الطرق، غير أن الله تعالى سوف يُفشل مسعاهم، ويخيّب آمالهم، ويرفع شأن الإسلام، وينصره على الدين كله. وسوف يتم هذا النصر النهائي على يد المسيح الموعود عليه السلام، لا بالسيف ولكن بالأسلحة الروحية والعقلية. وقد ظهر المسيح الموعود عليه السلام، وبتوجيه من الله تعالى استطاع أن يبني ترسانة من هذه الأسلحة الروحية، وبيّن بطريقة عملية كيف يمكن استخدام هذه الأسلحة لكسب قلوب الناس لخدمة الإسلام. وأعلن أنه قد أُرسل ليكون أول من يبدأ عملية نصر الإسلام، وأن يُقدم الأسلحة التي باستعمالها سوف تتمكن الجماعة التي يغرس غرستها من أن تحقق إحياء الإسلام تحت قيادة خلفائه الروحيين. وقال إنه غرس البذور التي سوف تنبت وتنمو لتكون شجرة مباركة تمتد فروعها في كل مكان، ولن يستطيع أحد أن يوقف أو يمنع نموها. وبعد أن أتم مهمته الربانية، رحل من هذه الحياة في ٢٦ مايو (أيار) ١٩٠٨. وكان للمصاب الفادح وقع أليم على أفراد جماعته، حتى إن هول المصيبة عصف بهم فلم يعلموا ماذا يفعلون، وفي أي سبيل يمضون. فقدّم الله لهم يد العون والسكينة، وبفضله ورحمته أعاد توحيدهم مرة أخرى تحت القيادة الروحية لحضرة المولوي نور الدين بصفته خليفة المسيح. ولم يكن هناك معارض واحد له، ولم يرتفع صوت واحد ضده. ولكن، ويا للأسف، سرعان ما بدأت تظهر على السطح بعض التمتمات، ليس من

معارضة واضحة صريحة، ولكن من همسات خافتة من وراء الستار، أخذت تتحول شيئا فشيئا إلى أصوات مسموعة. وبدأ بعض البارزين من أعضاء الجماعة يفكرون في الأنظمة الديمقراطية والدساتير والبرلمانات، ومع ذلك اختاروا "صدر أنجمن" (اللجنة المركزية) التي تصادف أن كانوا يمثلون فيها أغلبية الأصوات، لتكون هي الأساس الذي يرتكزون عليه، ناسين أنها، أو ربما لأنها، كانت تجدد نفسها بنفسها، فهي لم تُنتخب ولا هي ديمقراطية، بينما كان الخليفة هو اختيارهم، كما كان هو الاختيار الذي أجمع عليه أفراد الجماعة. إن ما تناسوه هو أن الخلافة كانت مقاما روحيا، وعد الله تعالى أن يقيمها ويثبت أركانها بألفاظ واضحة وكلمات قاطعة (انظر الآية ٥٦ من سورة النور). لقد كان من المقدر أن يتم ظهور الإسلام وانتصاره من خلال الوسائل الروحية تحت توجيهات الخلافة الراشدة. وعلى هذا كانت المشكلة ذات شقين. هل ينبغي أن تُقاد الجماعة عن طريق إمام يختاره الله تعالى ويحظى بتأييده ودعمه ونصره، أو يُشرف على أمورها ويدبر شأنها لجنة تجدد نفسها بنفسها؟ فإن كان الجواب هو الشق الثاني، فليس في هذا الحل أي روحانية، وستكون محرومة من الوعود الإلهية المذكورة في الآية ٥٦ من سورة النور. كانت هذه هي المشكلة التي واجهت ذلك الباسل المغوار بطل الخلافة حضرة المولوي نور الدين، الخليفة الأول. وهو لم يتهرب منها ولم يتجنبها ولم يتخل عنها، ولم يتزحزح عن موقفه قيد أنملة رغم التحديات الخفية والمكشوفة، والتهديدات الخافتة والمسموعة. لقد وقف ثابتا كالصخرة العتيدة، تتلاطم عليها أمواج التمرّد والنفور، ثم تتكسر

وتتراجع في اضطراب يائس وزبد لا قيمة له. لقد كان كل اتكاله على الله وحده، وكان يعلم أن موقفه هو الموقف الصحيح عند الله تعالى. وإن مرور ثلثي القرن بعد وفاته، ليقدم دليلا آخر على أن موقفه كان هو الصحيح عند الناس أيضا.

ولو كان حضرة المولوي نور الدين، أول خلفاء المسيح، قد تزحزح عن موقفه ولو شيئا قليلا تحت الضغط المستمر لهؤلاء الذين تصوّروا أنفسهم يشغلون موقع القيادة في الجماعة، لأدّى ذلك إلى ذبول سريع وجفاف متوال للشجرة التي زرعها المسيح الموعود عليه السلام، كما هو الحال المشاهد للتدهور المؤسف للمجموعة المنشقة وتنظيماها، ولظلت الوعود الربانية بظهور الإسلام في آخر الزمان دون أن تتحقق، ولوضعت بذلك صدق الإسلام نفسه موضع الشك والريبة. ولكن كان من المستحيل ألا تتحقق وعود الله تعالى، وما كان الله ليخلف وعده. لقد كان حضرة المولوي نور الدين الأداة التي استخدمها الله تعالى للحفاظة على مقام الخلافة وتقويته، وهو المقام الذي من خلاله كان من المقدر للإسلام أن يتقدم ويعلو ويظهر على كل دين. أما كيف قامت تلك الأداة بواجبها خير قيام، فهذا يمكن استنتاجه من صفحات هذا الكتاب، وأما النتائج المباركة التي حققتها تلك الأداة، فهذه يمكن مشاهدها في التقدم الباهر الذي حققته بالفعل شجرة الجماعة الإسلامية الأحمدية، هذه الشجرة المباركة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. وبالمقارنة، فإن شجرة الانشقاق قد اجتُثت من فوق الأرض ما لها من قرار. إن الاهتمام البالغ والجهد الكبير الذي وجّهه حضرة المولوي نور الدين نحو الاهتمام بالبذرة التي غرسها المسيح الموعود عليه السلام قد أكد

أن تلك البذرة سوف تخرج شَطْئَه، ثم تتقوى وتتآزر، ثم تستغلظ، ثم تستوي على ساقها لتعجب الزُرّاع وتغيظ الكفارَ (راجع الآية ٣٠ من سورة الفتح).

كان هذا هو الدور الذي شاءت الحكمة الإلهية أن يقوم به نور الدين، وقد أدّى بفضل الله ذلك الدور على الوجه الأكمل.

عسى الله ﷻ بخالص فضله ورحمته أن يجعل مثواه ومقره ومآله في أعلى درجات جنة رضوانه. آمين.

تعريف بالمؤلف

إن السير "محمد ظفر الله خانْ" رضي الله عنه (١٨٩٣-١٩٨٥م) كان من صحابة المسيح الموعود عليه السلام؛ ومن الذين لهم ذكاء خارق وذاكرة عجيبة. كان حضرته خطيبًا مفوّهًا وكاتبًا فياضًا وعالمًا كبيرًا في علم مقارنة الأديان.



لقد وُلدَ حضرته في "سيالكوت" للسيد "شودري نصر الله خانْ" وانضم إلى الجماعة الإسلامية الأحمدية مع أبويه على يد المسيح الموعود عليه السلام المباركة عام ١٩٠٤م.

تلقى حضرته دراسته الابتدائية في المدرسة الحكومية في بلدته؛ ثم درس في المدرسة الأمريكية العليا الخاصة. وعلى الرغم من اعتلال صحته؛ فقد اجتاز امتحان الثانوية محققًا المركز الأول وهو لم يبلغ من العمر سوى ١٤ عامًا فقط.

ثم تخرَّج محرزًا المرتبة الأولى من الكلية الحكومية في "لاهور" عام ١٩١١م. وفي عام ١٩١٤، وكان أول طالب هندي يتفوق في الامتحان النهائي لدراسة القانون من جامعة "لندن". وبعدها بدأ مستقبله المهني في المحاماة عام ١٩١٥ في "سيالكوت". وبالرغم من حداثة سنه قد انتُخِب كمحاضر في كلية القانون في "لاهور" عام ١٩١٩م.

إن عمله السياسي بدأ عام ١٩٢٦ عندما وقع الاختيار عليه ليكون عضوًا في اللجنة التشريعية لإقليم "بنجاب". ودافع بنجاح عن قضية المسلمين في اجتماع المائدة المستديرة الهندي المُنعقد في "لندن" من عام ١٩٣٠و١٩٣١و١٩٣٢. وانتُخب رئيسًا لرابطة مسلمي الهند عام ١٩٣١. وكذلك ظل لمدة ستة أعوام عضوًا في المجلس التنفيذي للحاكم العام للهند البريطانية وخدم في العديد من المجالات؛ منها: الصحة والتجارة والآثار والسكك الحديدية والقانون وغيرها.

وفي تلك الفترة قام حضرته بتمثيل دولة الهند الموحدة في العديد من المؤتمرات الدولية بالخارج، وتمكن من تقديم نظرية الدولتين✪ أمام عديد

✪ أي تقسيم الهند إلى دولتين لكي تكون للمسلمين دولة مستقلة يعيشون فيها بحرية، الأمر الذي أدى في عام ١٩٤٧م إلى قيام دولة مستقلة للمسلمين باسم باكستان. (الناشر)

من رؤساء الدول. لذا كان حضرته دومًا من الأصدقاء الموثوق بهم لدى القائد الأعظم "محمد علي جناح"، مؤسس باكستان.

ثم في عام ١٩٤٧ أصبح أول وزير خارجية "باكستان"، ولسنوات عديدة ظل يرأس وفد باكستان في الجمعية العمومية للأمم المتحدة، كما كان رئيسًا للدورة السابعة عشر للجمعية العمومية في الأمم المتحدة. وبعد ذلك توَّج تاريخه الرائع بجلوسه في مقعد القضاة في محكمة العدل الدولية بمدينة "هيج" في "هولندا" في الفترة من ١٩٥٤ إلى ١٩٦١م. لقد تولى حضرته أولاً منصب نائب رئيس محكمة العدل الدولية في الفترة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦١؛ ثم تولى منصب الرئيس من ١٩٧٠ إلى ١٩٧٣م.

لم يدخر حضرته جهدا في الدفاع عن القضايا العربية ولا سيما قضية فلسطين في الأمم المتحدة، حتى إن العرب أنفسهم أشادوا بمواقفه الجليلة. فقال عبد الحميد الكاتب في مقاله بعنوان "ظفر الله خان بطل قضية فلسطين" كما يلي:

"....أما بطل الدفاع عن مشروع فلسطين الموحدة فكان محمد ظفر الله خانْ، الذي حشد في دفاعه عن الحق العربي في فلسطين كلَّ مواهبه ومقدرته الخطابية والقانونية والسياسية. كما كانت خطبه تنبض بروح إسلامية صادقة. (مجلة "العربي" العدد ٢٩٥، حزيران عام ١٩٨٣م)

إن مجموعة الأعمال التي كتبها السير ظفر الله خان تضم: ترجمة القرآن الكريم وترجمة رياض الصالحين (وهو من كتب الحديث) وترجمة الكتاب "تذكرة" (وهو مجموعة إلهامات ورؤى وكشوف المسيح الموعود عليه السلام). وكذلك ألَّف أكثر من اثنتي عشر كتابًا حول مختلف المواضيع الدينية والسياسية.

الكتب الأخرى التي ألفها السيد محمد ظفر الله خان

- الترجمة الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم مع النص العربي
- الترجمة الإنجليزية لكتاب رياض الصالحين
- الترجمة الإنجليزية لكتاب "تذكرة" الذي يحتوي على رؤى وكشوف وكلمات الوحي التي تلقاها المسيح الموعود عليه السلام
- النبي ﷺ في البيت
- الحج إلى بيت الله الحرام
- العبادة الإسلامية
- حكمة الرسول ﷺ
- الإسلام وحقوق الإنسان
- النجاة من الصليب
- الإسلام ومعناه للإنسان العصري
- مُعاناة باكستان
- الأسوة المثالية
- تحديث نعمة (سيرة ذاتية باللغة الأردية)